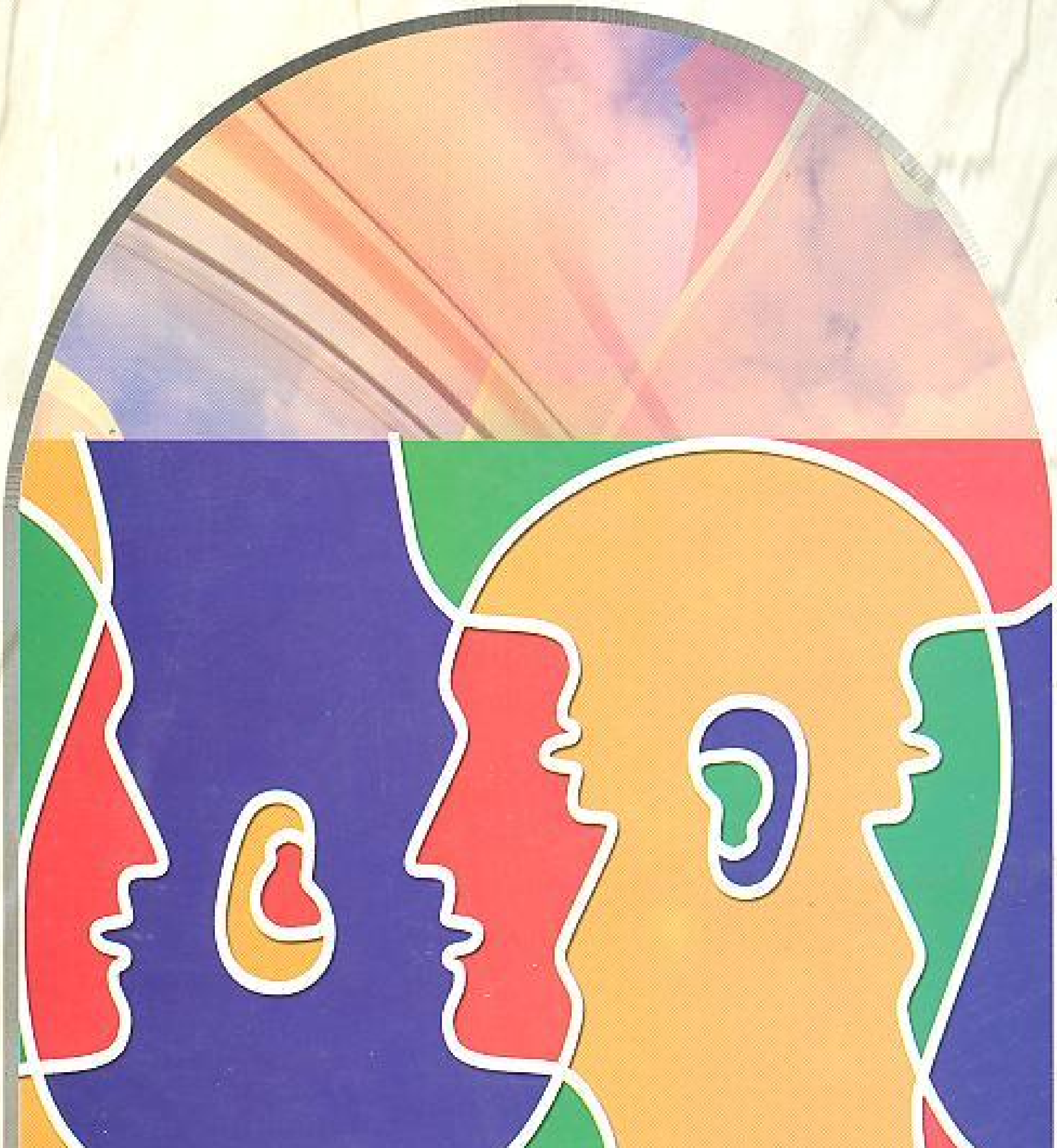
اللغة والسحر



أ.د. فالح شبيب العجمي

اللغة والسحر

أ. د. فالح شبيب العجمي
أستاذ اللغويات في قسم اللغة العربية
جامعة الملك سعود

الرياض ٢٠٠٣

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العجمي، فالح شبيب

اللغة والسحر/ فالح شبيب العجمي - الرياض، ١٤٢٤هـ

٢٣٠ ص ؛ ١٧×٢٤ سم .

ردمك : ٣-٧٨٣-٤٣-٩٩٦٠

١ - اللغة العربية ٢ - علم الاجتماع اللغوي - علم النفس اللغوي

أ - العنوان

ديوي ٤٠٠,١٩ ٥٩٩ / ١٤٢٤

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٥٩٩

ردمك : ٣ - ٧٨٣ - ٤٣ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

" إن من البيان لسحراً "

حديث شريف

" وأمـــا الذيــــن يميلون إلى ناحية المغرب فهم أكثر تأنيثاً وأنفسهم ألين ويخفون أمورهم في أكثر الأمر ويستروها لأن هذه الناحية قمرية ومن شأن القمر أبداً أن يكون أول طلوعه وظهوره بعد الاجتماع من ناحية مهب الرياح الغربية المسماة بالدبور ولذلك يظن بهذه الناحية أها ليلية مؤنثة متياسرة ضد الناحية الشرقية "

الهمداني

...

" الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه "

ابن خلدون

إلى كل من عانى من ابتزاز أو ازدراء بواسطة اللغة

ومسحت كرامته عبارات اللغة

إلى كل من اعتقد بحيادية اللغة

وظن أنها وسيلة مسالمة للارتقاء بحياة البشر

إلى كل من استغل اللغة في وصفات السحر

المقيت الذي يقلب الواقع دون مبرر

إلى كل من آمن أن الإنسان هو الذي يتحكم

في اللسان وأن الإنسان واللسان عناصر خير

على وجه الأرض

أقدم هذه الدراسة :

المحتويات

مقدمة

يتكلم الناس بواسطة اللغة مع الآخرين ، ويستخدمونها فطرياً دون أن يعوا ذلك بالضرورة، ودون أن يقدروا أهميتها أو أثرها فيهم أو في الآخرين إذا استخدموها في الحديث معهم . ويعشق الإنسان أو يكره أو لا يبالي بكثير من مفردات اللغة وعباراتها ، ويتغنى الشعراء في شعرهم ببعض عناصر اللغة بتوليفة تطرب من تعجبه طرائقهم في التركيب ، كما يتعب بعض الكتاب أنفسهم في سبيل الوصول إلى درجة من التأثير في قرائهم والدخول إلى ألبابهم بوسيلة هي الأقوى على مر التاريخ البشري ؛ وليست هذه الوسيلة سوى اللغة .

يا للروعة ! أم : يا للهلاك ! هذه هي اللغة بكل فتنتها أو بكل تدميرها !

سيستخدم اللفظ الأول كل من يعتقد أن اللغة شيء مدهش يبعث على السرور ، ولا يأتي إلا بخير ؛ بينما يستخدم اللفظ الآخر من يتشاءم عند التواصل بواسطة اللغة ، ولا يثق أنها تأتي بخير . هناك من تأتي له عبارات اللغة بمغنم ومن تخرجه عباراتها من مأزق ، وهناك من يلجأ إلى السخرية للتغلب على وضع نفسي أو حرج اجتماعي . كما يوجد من تكون تجاربهم بين هذا وذاك ، أو لم يفكروا مطلقاً بما يتعرضون له من إعزاز أو ابتزاز بالوسائل اللغوية المشروعة .

فما الذي يجعل اللغة زاخرة بكل هذه الإمكانات ؟ ومن الذي جعلها تتحكم في الناس والمجتمعات بهذه الصورة ؟ وما الذي يجعل رجال السياسة والدين والغوغائيين والمتزلفين يجدون في اللغة ملاذاً لإخفاء رغباتهم الحقيقية ، ولتحقيق مطامحهم الشخصية ؟

للإجابة عن السؤال الأول نحيل القارئ إلى علاقات اللغة بعناصر حياة الإنسان الأخرى التي نجدها في الفصل الثاني من الباب الثاني . وعن التحكم في اللغة أو كونها تتحكم في الإنسان ، يمكن وجود جزء من الإجابة في الباب الأول وجزء آخر في " اللغة والقوة " في الباب الثاني ، وبشكل أكثر تفصيلاً في قضايا الخطاب من الباب الثالث . أما عن أسباب كون رجال السياسة والدين والغوغائيين والمتزلفين يلجأون إلى اللغة لتحقيق مآربهم ، فإن " اللغة والقوة " و " اللغة والقيادة" و " اللغة والدين " و "اللغة والعقل " من الباب الثاني و " مرحلة الأسر والانقياد " و " سلطة النص " و " نسبية الحقيقة في الخطاب " من الباب الثالث كفيلة بالإجابة عن بعض تلك التساؤلات ، بالإضافة إلى تتبع بعض المصطلحات المتعلقة بتلك الاستخدامات مثل : " ميوعة الدلالة " و " التملص " و " الانحياز " . هذا الاضطراب يتعلق بالجانب الأسهل من تلك الوسيلة المعقدة في التواصل ، فماذا عن الجانب الأصعب ؛ أي الحديث عن اللغة بواسطة اللغة ؟

في الواقع لم تكن من مهمات هذه الدراسة تتبع هذا الجانب بشكل أساسي ؛ فهو منحى نظري وواسع جداً ، لكن بعض مظاهره تعرض إليها هذا الكتاب في دراسة " نظام الرموز واللغة " و " اللغة والعقل " و " اللغة والثقافة " من الباب الثاني ، وكذلك لدى استعراض بعض أبعاد الممارسات الخطابية عند استخدام اللغة من الباب الثالث .

ولا يمكننا بأي حال استكمال جميع جوانب توظيف اللغة في الخطاب ، خاصة ما تمت دراسته في اللغات الغربية وبشكل مميز في الخطاب السياسي ؛ مثلما نجد في الوقت الحاضر إعادة تسمية البطاطا المقلية في الولايات المتحدة الأمريكية بإطلاق اسم freedom fries بدلاً من الاسم المنتشر هناك وهو french fries عقاباً لفرنسا ، بسبب تلويحها باستخدام حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن ضد

استخدام القوة في غزو العراق الذي تريده الولايات المتحدة . وفي المقابل نجد توظيف اللغة في الخطاب السياسي المقابل ماثلاً في تغيير اسم البنك السعودي الفرنسي بالحروف اللاتينية من Bank إلى Banque . لكن قدراً من العلاقة نأمل أن يكون قد تبين في هذا الكتاب ، وتطبيقات تخص فقه النصوص نرجو أن تكون قد أصبحت واضحة للمتخصصين أو للمهتمين بشؤون اللغة وقضايا الاتصال بشكل عام . كما يعوّل المؤلف على استنباط المقولات في التداولية أو علم اللغة الاجتماعي من واقع نصوص وأمثال عربية ، مما يشكل خطوة أولى نحو بناء مرجعية عربية في علوم اللغة ودراستها .

١ – سحر الكلمات وكلمات السحر [1]

لا يشك أحد في أهمية اللغة للناس جميعاً أفراداً ومجتمعات ؛ إذ يتواصل الناس بواسطتها ، وتلبي حاجات الفرد الأساسية علاوة على تلبيتها لحاجاته النفسية الفطرية . فهي سلاح يحتاجه المرء ليعيش، وهي مثل الصحة لا يتحدث عنها إلا عند فقدها ، لكنها – مع ذلك – لفرط ضرورتها لا يهتم بها كثير من أفراد المجتمع الذين يستخدمونها بشكل بدهي ، ولفرط بداهة استخدامها قد لا يفهمها كثير من مستخدميها أو لا يُعنون بمعرفتها ، وفهم علاقتهم بها أو علاقتها بهم وتسييرها لحياتهم .

ما دامت اللغة تشبه الصحة في علاقتها بالإنسان ، فلماذا لا نسمع الناس يتساءلون: كيف اللغة ؟ أو: عسى أن تكون اللغة في أتم حال ؟ ولماذا لا تنشأ مستشفيات للعناية باللغة أو مراكز للتحصين من الفشل أو العسر اللغوي ؟

غير أن اللغة سلاح – كما أسلفنا – يحتاجه المرء ، ويستخدمه الناس جميعاً ؛ والسلاح له استخدامات متعددة . وهنا تبتعد اللغة عن الصحة ، وقد تكون أداة ضارة ، أو غير ذات جدوى للفرد والمجتمع في بعض وظائفها . وهذا الجانب بالذات هو ما نعنيه من إمكان عدم فهم مستخدمي اللغة بعض وظائفها المضللة والمدمرة في بعض الأحيان ؛ فإن نصوص اللغة تكاد تكون جذابة في بعض الحالات وغير موافقة لوظائفها المتفقة مع وظائف الصحة العامة ، ويكون لكلماتها في المنحى الآخر سحر يشبه السحر الأسود (وفي الكلمة الأخيرة كزازة آتية من سحر كلمات اللغة وفظاظتها ، وإلا فاللون الأسود جميل وأنيق في كثير من أمور الحياة).

---

[1] سبق نشر هذا الجزء في مجلة قوافل الصادرة عن نادي الرياض الأدبي ، العدد الثامن عشر (ديسمبر ٢٠٠٢) .

لماذا إذن يبتكر الإنسان شيئاً ضاراً أو فيه ضرر ، بل ويصبح محتاجاً إليه ؟ هل اتخذ الإنسان اللغة عادة، فأصبح مدمناً عليها ، كما يدمن المدخن على سيجارته ؟ وهل تشبه أسلحة البشرية الأخرى التي ابتكرها الإنسان ، ثم أصبح يبحث عن وسيلة للتخلص منها؟ وهل الإنسان – كما يقال – حيوان سياسي ؟ وإذا كانت وسيلة السياسة إجادة استخدام اللغة ، فهل الإنسان حيوان لغوي (أو حيوان ناطق) ، أو هل هو الحيوان الناطق الوحيد؟

كلها أسئلة لا يمكن الإجابة عنها بصراحة وموضوعية ، لأن وسيلة الإجابة ستكون اللغة، والمجيب سيكون الإنسان ، ولا يمكن للإنسان أن يدين نفسه ، كما لا يمكن أن تكون اللغة منصفة في وصف نفسها . فربما يكون الموضوع الأسهل والتساؤل الذي يمكن الإجابة عنه : أيهما يظلم الآخر ؟ هل الإنسان ظالم للغة ؟ أم أنه يخضع لاستعبادها ؟

لا بد من أجل الحكم في هذه القضية من تشريح خصائص اللغة أولاً ، لأن الإحاطة بماهية اللغة من أصعب الأمور التي تواجه علماء اللغة والباحثين في الحقول العلمية الأخرى المجاورة كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وغيرها . وإذا قسمت خصائص اللغة – كما جرت العادة تقليدياً – بشكل يجعل الإنسان محور ذلك التشريح ، فإننا سنخلص إلى بعض الصفات الإيجابية والأخرى السلبية للغة .

١ – ١ إيجابيات اللغة

بالإضافة إلى كونها حاجة غريزية يحتاجها المرء من أجل استقراره النفسي وشعوره بالأمان ضمن منظومة اجتماعية معينة ، بدءاً بالأسرة والأصحاب وانتهاء بالمجتمع والأمة والبشرية، فإنها أيضاً وسيلة أساسية لتحقيق التعاون بين الأفراد والجماعات

وإنجاز الأعمال المشتركة التي يحتاج بناؤها إلى جهود تراكمية عبر الأجيال ، بما ترسخه تلك الجهود من خبرات موروثة لا يمكن تناقلها دون استخدام اللغة. وما التقدم الحضاري الذي حققه الإنسان في تاريخه إلا نتيجة لوجود هذه الوسيلة المتقدمة في التفاهم والتواصل ، لأن بناء الحضارات لا يتم في حياة جيل واحد أو عصر أو حقبة واحدة . ولنا في أسطورة بناء برج بابل الذي كان الغرض منه التجسس على الرب في السماء ، وكيف كانت وسيلة رد الرب على ذلك التطاول بسحب وسيلة التعاون منهم وذلك عن طريق بلبلة الألسن (أي جعلهم لا يفهمون بعضهم بعضاً) اعتراف من البشر منذ القرون الوسطى (وقت تأليف الأسطورة) بأهمية اللغة في التعاون البشري وكونها اللبنة الأساسية في أي عمل جماعي ، خاصة إذا كان ذلك العمل يمتد إلى فترات طويلة تتناقل خلالها الأجيال تلك الخبرات بواسطة اللغة .

ويمكن أن تعد اللغة أيضاً أحد مداخل العلاقات الطيبة بين الناس وركيزة أساسية لبناء عرى الصداقة وبقية العلاقات الاجتماعية الأخرى ، التي يلجأ إليها المرء ليس من أجل عيشه وعمله فحسب ، بل من أجل راحته ووجود سند يشكل دافعاً له للاستمرار في العمل والحياة . فالمرضى بأمراض عضوية أو نفسية بحاجة إلى عبارات يسمعونها من أحد يواسيهم بها أو يقوي بها عزيمتهم ويدعم قدرتهم على المقاومة . وإذا كان الناس جميعاً يعرفون مدى حاجة المريض بمرض عضوي إلى اللغة من خلال تبادل الأحاديث الودية معه خلال زيارته وتهوين الوضع بعبارات لغوية منتقاة ، فإن الأمراض النفسية لا تقل حاجة إلى اللغة عن تلك العضوية ، خاصة أمراض الاكتئاب والانطواء . بل وتوجد أمراض نفسية معينة منشؤها الحاجة إلى توجيه الآخرين عنايتهم وعطائهم إلى الشخص المصاب بها ، مثل الهستيريا التي تكون في أغلب حالاتها حيلة لا شعورية من أجل استدرار عطف الناس ، وجعلهم

يتوجهون إلى المصاب بها من أجل التخفيف عنه ومساعدته في حل مشكلته النفسية ومواساته .[2]

كما تلعب اللغة دوراً حاسماً في نشوء الطفل وتطوره العقلي وفي نشوء وظائفه العقلية ، لأن تفاعله مع البيئة المحيطة الطبيعية والاجتماعية يحصل عن طريق اللغة لا عن طريق الاحتكاك المباشر بالأشياء المادية كما هي الحال عند الكائنات الأخرى . فنشأة المراكز الدماغية اللغوية — التي ينفرد بها الإنسان وحده — ترتبط فسيولوجياً بالبصر والسمع ارتباطاً عضوياً ؛ وبما أن وظيفة الاقتران الدماغي ، ووظيفة التحليل والتركيب الدماغيـة تخضعان للتأثير اللفظي ، فإن هذا الأخير يؤدي وظيفة بالغة الأهميـة في منظومة النشاط العصبي الأعلى عند الإنسان أو وظائفه العقلية العليا (الذاكـرة والخيال والانتباه والتفكير) . ومعنى هذا ارتباط الأساس الفسيولوجي لـلحياة العقلية عند الإنسان بنشاط القشرة الدماغية بأسرها ، لأن المراكز الدماغية الكلامية والمراكز الدماغية الحسية تساهم جميعاً فيه وإن كانت تلك المساهمة تحدث بدرجـات مختـلفة . وإن الكلمة من ناحية ارتباطها بالفكر تستند فسيولوجياً إلى قـدرة القشرة الدماغية على تكوين أفكار مجردة عامة أو مفاهيم عقلية من جهة ، وإلى قدرتهـا أيضـاً على التعامل مع البيئة الطبيعية والاجتماعية عن طريق الفكر وتسخيرها لمصلحة الإنسان من جهة أخرى .[3]

ولا يغيب عن البال ما يمكن أن تمثله اللغة أيضاً من عناصر تشويق وترفيه يستخدمه الإنسـان والكائـنات الأخرى التي تتباين في تكوينها اللغوي ودرجة إتقان نظام التواصل . لكن استخدامات اللغة البشرية تفوق إيجابية ما لدى الكائنات الأخرى مـن وسـائل تواصل ؛ ويتضح تميز اللغة في إدخال سعادة وقتية نتيجة استخدام

---

[2] انظر : فوزي عفيفي : السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين . الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٦ .

[3] انظـر : صباح حرمـز ؛ يوسف إبراهيم : علم النفس التكويني (الطفولة والمراهقة) . الموصل (العراق) : مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٨ ، ص ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

الـــرموز اللغوية ، أو سرور بالاجتماع لا تستطيع التعبير عنه عضلات الإنسان أو الكائن الآخر ، أو تحفيز إلى العمل وتقوية همة الفريق الذي يؤديه . ففي كل ذلك يـــلجأ الإنسان إلى اللغة ذات الإمكانات الأكبر للتعبير عن ذلك السرور ، أو عن امـــتعاض من حدث سيء أو مشاركة للآخرين وغيرها من المآرب التي تنجح اللغة في المساعدة على إتمامها .

ومن أمثلة الأصناف اللغوية التي تؤدي تلك الوظائف المتميزة :

- أغـــاني ترقيص الأطفال أو تنويمهم التي تؤديها غالباً الأمهات أو الجدات ؛ وتكون لتلك الأغاني غايات متعددة منها تحقيق الاستقرار النفسي والنمو الحـــركي للطفل وتعليمه اللغة [4] وربطه بالتراث . وتتحقق أهداف تلك الممارســـات اللغوية الاجتماعية بشكل أكبر ، كلما كان المؤدي جاداً في عملـــه مواظـــباً على الاستمرار ومتفرغاً لمبادلة النظرات مع الطفل وأداء الـــتمارين الحركية والصوتية بكل جوارحه ، حتى يتحقق له الإتقان الذي يجعل الطفل متجاوباً ومحباً لتلك الرياضة وذلك التواصل .
- عبارات الترحيب : لا تعبر في أي لغة على الأرض عبارات الترحيب عن معانيهـــا الحـــرفية لكثرة استخدامها ، ولكونها أكثر عناصر اللغة عرضة للـــتطورات الدلاليـــة (حـــسب القاعدة المعروفة في علم اللغة بالتناسب الطـــردي بـــين كـــثرة الاســـتخدام وسرعة التغير ، خاصة عندما يكون اســـتخدامها في إطار المعايير الاجتماعية) . لكن استخدام هذه العبارات يخـــدم بالطـــبع تعهد العلاقات الاجتماعية وإنشاء أخرى جديدة ، مهما تجددت دلالاتها ، أو تجمدت في إطار القالب البروتوكولي .

[4] انظـــر : وحيـــد للصبور : توظيف المأثور القولي في تنمية لغة الطفل . عالم الفكر ٢٨ / ٣ (يناير — مارس ٢٠٠٠) ، ص ص ١٦٨ — ١٦٩ .

- أهـــازيج العمل : تعوّد العمال الذين يؤدون أعمالاً شاقة تحتاج إلى توحيد الجهـــد في وقـــت معـــين على إدراج كلمات محددة ذات إيقاع سريع ، وتتكون غالباً من مقطع واحد أو مقطعين ، ليتناغم بذل أقصى المجهود مع المقطـــع المنبور في تلك الكلمات . وقد تحولت في كثير من نواحي الحياة العمـــلية إلى أراجيز أو أهازيج يرددها فريق العمل ، وربما تصبح موروثاً شعبياً ينتقل من فريق إلى آخر ومن جيل إلى الجيل الذي يليه ، فيغدو من تـــراث تـــلك المهنة التي نشأ لدى بعض ممارسيها . وأكثر أصحاب المهن شـــهرة في هـــذا المجـــال هم البحارة الذين يتميزون بأهازيج خاصة بكل مناسبة يمارسون فيها عملاً مختلفاً .
- كـــلمات التنويم المغناطيسي : ما يقصد هنا من إيجابية اللغة في هذا الإطار هو الاستخدام الطبي أو النفسي للتنويم المغناطيسي الذي أصبح معروفاً في بعـــض مجالات العلاج ؛ حيث يحكي المريض عن تجاربه السابقة في حالة اســـترخاء تامـــة يتخـــلص فيهـــا من القيود والمخاوف وبعض أعراض الاكتـــئاب، ليستطيع بعد ذلك السرد أن يرى حياته ومواضع الخلل فيها بوضـــوح . وبذلـــك يمكنه أن يساعد في علاج نفسه ، وأن يتخلص من الأسباب التي تدعم مواطن الضعف لديه .

١ – ٢ سلبيات اللغة

لا يعـــني عـــندما نتكلم عن تلك المجالات الرحبة لاستخدام اللغة بشكل إيجابي أنها ذات طـــابع إيجابي في تداولها أو مساهمتها في تقدم الكائن البشري ، بل توجد لها آثار سلبية في كل استخداماتها المتقدمة . وربما يُركز هنا على هذه الجوانب ؛ لأنها

متروكة دون العناية التي تستحقها من الباحثين أو الهواة الذين تستهويهم ألعاب اللغة دون إدراك خطورتها ، أو أنها تخدعهم في بعض الأحيان .

أسوأ هذه السلبيات مرتبط بطريقة اكتساب اللغة واستخدامها . ودون الدخول في نظريات تحصيل اللغة وطرق استخدامها ، نشير إلى أن ما نعنيه هنا هو تكوّن الغرف المستقلة بعضها عن البعض الآخر داخل الدماغ لدى كثير من الناس وفي كل المجتمعات ؛ وفي كل غرفة ينشأ منطق واقعي (وبالتالي لغوي) مختلف عن منطق الغرفة الأخرى . وحتى تتضح هذه العملية لا بد من التمثيل ومن ثقافة أخرى لئلا يساء الفهم : تسأل شخصاً بسيطاً غربياً عن جدوى سباق التسلح ، فيجيبك بمنطق معقول بعدم جدواه ، وأن الساسة والمنتفعين هم من يؤجج ذلك السباق ، بل ويضيف بأنه على استعداد لأن يصوّت بتأييد أن يُنقل هؤلاء الساسة (أو الديكة المتصارعون) إلى نقطة نائية في أقصى جزيرة في المحيط ، ليتصارعوا كما يروق لهم . فتسأل الشخص نفسه بعد لحظات عن رأيه في قرارات اتخذت بشأن تصدير السلاح وتزويد المناطق المتوترة بكل ما يطلب من سلاح، فيفاجئك بإجابة تختلف عن منطق الإجابة الأولى ؛ فهو غير معارض لذلك العمل غير الأخلاقي ، لأن توقفه يعني فقدان الناس وظائف عمل . ففي هذه الحال كان استخدام اللغة نابعاً من غرفة خاصة بالمصالح ، وهي غرفة تختلف عن الغرفة الأولى، وما يحكمها من منطق . ولئلا يتصور أحد أن الشخص كان فرداً واحداً متناقضاً أو كان يجامل أو يخدع السائل في جوابه الأول ، فإن هذا المثال كان من تجربة علمية قام بها الكاتب مع عدد مقنع علمياً ، وروعي في اختيارهم أن يكونوا ذوي قناعة بكلا الاتجاهين من خلال وقائع عملية واختبارات نفسية .

أما السلبية الثانية الرئيسة ، فتتمثل في كون تخزين الأفكار اللازمة لاستخدام اللغة يجري وفق طريقة تحكمها غالباً قوالب جاهزة . ولذلك تتصل بعملية تخزين

الأفكـــار الموضـــوعية أفكـــار أخرى متحيزة وعنصرية وذاتية ، وعندما يأتي دور الإفراغ تصبغ تلك الخبرات اللغوية بظلال التحيز أو العنصرية أو الذاتية في كثير من الأحيـــان . ومـــا يجعل هذه القوالب الجاهزة ذات أثر سلبي وخطورة على سلوك الـــناس أنهـــا ترتبط بالتعميم ، الذي هو خاتمة مراحل ثبات دلالة الشيء في ذهن الإنســـان . وقـــد ثبت أن التعميمات غير الدقيقة والمغلوطة أحياناً تنجم بالدرجة الأولى عـــن عمـــلية التحـــليل البدائية أو السطحية، وبفعل ضعف النشاط الذهني التجريدي ؛ وهذا يؤدي إلى نشوء مدركات عقلية غير دقيقة . والحياة اليومية تدل عـــلى أن كـــثيراً مـــن الأطفال يجنحون في مراحل نموهم الأولى نحو التقاط بعض جوانـــب هـــذا المـــدرك العقلي أو ذاك ، ثم عزلها بتجسيم الأمر الذي يؤدي إلى حدوث عملية تركيب ذهني غير دقيق. [٥]

ففـــي هـــذا السياق نجد مثلاً دلالات لغوية معينة قد ارتبطت بالرمز الدال على الكائن الحي الذي نسميه "الحمار"، حيث أصبح في الثقافة العربية يدل على الغباء ، بسبب ارتباط ذلك الرمز عند التخزين الموضوعي بتلك الأفكار المتحيزة التي ربطت — ظـــلماً — بينه وبين الغباء ، أو جعلته رمزاً لتلك الدلالة ، مع أنه حيوان صبور ومطيـــع وأذكـــى من بعض البشر . ومن أمثلة ما يصبغ بصبغة عنصرية ما أصبح مرتبطاً ببعض العبارات ، أو التعابير الاصطلاحية ، التي تعيب في مضمونها فئة معينة مـــثل : " قلـــبه أســـود " (مع أن سواد اللون لا يدل على حالة مرضية مرتبطة بالقـــلب) . ومـــن حالات الصبغة الذاتية ما يقوله بعض المستخدمين من عبارات التعمـــيم لمـــا يراه عن موضوع يتحدث عنه مثل : " كل الناس يريدون ذلك " ، وغيرها من إفرازات الذات المتضخمة التي لا تتيح اختلاف الرأي .

[٥] انظر : صباح حرمز ا يوسف إبراهيم ، ص ٢٥٥ .

ويرتبط بالطبع بهاتين السلبيتين سلبيات فرعية عديدة ؛ بعضها بفعل الفكر البشري وهمّ الصراع بين جماعاته ، وبعضها بفعل الثقافة المحلية لمجتمع معين وكون السيادة فيه لتيار غير متزن فكرياً . ولا تخلو عوامل التكوّن أيضاً من أسباب داخلية في اللغة ذاتها ، بسبب المتعة الفكرية عند بعض فئات مستخدميها في التلذذ بتلك الألعاب التي لا تلبث أن تصبح معياراً اجتماعياً يتسرب إلى قوالب اللغة ، وتتشربه الأجيال التالية بوصفه جزءاً من الموروث .

هذه السمة الأخيرة من سمات اللغة هي ما يجعل المنتفعين — من ساسة يريدون السيطرة على شعوبهم أو شيوخ طريقة يريدون استلاب ألباب مريديهم — يحاولون استغلال ذلك السحر في الكلمات التي تتراقص أمامها الجماهير . والمشكلة أن هذه السمة يرفع شأنها باسم الإله وفي خدمة الدين ؛ حيث تصبح الأديان أو جماعات المؤمنين في صراع يغذي هذه السمة في استخدام اللغة . إذ نجد فولتير مثلاً في القرن الثامن عشر يقول : " المؤمنون هم أكثر الناس قدرة على القسوة وعلى الكراهية وأكثرهم تعصباً ، حتى ليعرف قوة الإيمان بمقدار غضبهم له وحقدهم على البشر ، فالمؤمن قاسٍ بطبعه لأنه يشعر بأن الله معه في فعله وأنه يفعل باسمه " .[٦]

وقد قاد هذا المنحدر شعوباً كثيرة في التاريخ إلى تصديق ما تردده الفئة الأولى أو الثانية ، وأدى إلى إيمان مطلق لدى العامة بعظمة الأفراد الداعين إلى دعوات غوغائية هدفها إيجاد السكرة لدى الجماهير وصناعة القناعة بمثالية واقعها ، ثم وصم المجتمعات الأخرى بما يخالف تلك الطبيعة المثالية . فنشأت في تاريخ البشرية مصطلحات أساسية في معجمات اللغات القومية مثل " البرابرة " و "البربرية " تُحدد على أساسها هوية المجتمع القومية ، ويقابل ذلك هوية المجتمعات الأخرى المختلفة . وهذه المصطلحات منتشرة كما هو معروف في الثقافة اليونانية ثم

---

[٦] حسن حنفي : في الفكر الغربي المعاصر . بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ ، ص ٦١ .

الـــرومانية ، لكـــن انتشـــارها في الثقافة العربية – الإسلامية التي يُدعى أنها ثقافة التســـامح والانفتاح هو ما يدعو إلى العجب ، خاصة إذا وجدناها عند أشخاص ليسوا أقل من الفارابي في كتاب الموسيقى الكبير وابن خلدون في مقدمته الشهيرة . ومـــن أمثـــلة ذلك : " وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسيّ أقرب إلى الحيوان العُجْم من الناطق ، يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غـــير مهيأة ، وربما يأكل بعضهم بعضاً، وليسوا في عداد البشر " ؛ [7] " ولم تقف عـــلى خـــبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية . وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختـــص هـــم أكمـــل النوع في خَلْقهم وأخلاقهم"؛ [8] "ولهذا إنما تذعن للرقّ في الغـــالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم ، وقربهم من عرض الحيوانات العُجْم كما قلناه" [9] .

وفي مـــراحل تاليـــة تبدأ فئات المجتمع الأخرى – واعية أو غير واعية – بسلوك الطريقة نفسها . فكما أن المعرفة من أقوى وسائل الابتزاز لدى الإنسان ، فإن اللغة يمكـــن أن تعـــدّ من أقوى وسائل الافتراء . حيث تصبح " الحقيقة " شبه غائبة ، وتـــتحد المعرفة والسلطة في سبيل حجب الحقيقة عن العقل ؛ فيوضع سياج شائك حـــول الحقيقة ، ويُدّعى بأنها صعبة المنال وعرة المسالك ، لا يمكن الوصول إليها بســـهولة ؛ بيـــنما هـــي في الواقع حبيسة الأسوار مسجونة في كل دار بلون من الألـــوان. أمـــا الفـــئات التي تصنع تلك الأسوار وتحافظ على استمرارها فهي من يتوســـع في تبريرات الفئتين الأوليين ، ويستخدم وسائل اللغة من عبارات جاهزة وأفكار مقولبة وأمثال تخدم دوران البكرة .

---

[7] عـــبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) . بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، د. ت. ، ص ٩٢ .

[8] المرجع نفسه ، ص ١٤١ .

[9] المرجع نفسه ، ص ٢٦١ .

هل اللغة هي مصدر ذلك التلوث ، أم أنها وسيلة محايدة ؟ وفي كلتا الحالتين كيف يمكن غسل اللغة من ملوثاتها ؟

من يرى اللغة بريئة مما تحتويه من عناصر الدمار ، فهو كمن يرى في شاشات البورصة أرقاماً تتصل بالرياضيات ، أكثر من اتصالها بالاقتصاد وحياة الناس . فهي بغض النظر عمن زرع فيها ذلك التلوث لم تعد نقية ، وليست محايدة للتعبير عن الأفكار بموضوعية ونزاهة .

قد يقول قائل : كيف لأمر بدهي فطري غريزي جوهري مثل اللغة أن يكون ماكراً أو حاملاً لخداع وتلوث ؟ فهي في حقيقة الأمر في بداهتها مثل البعوضة في طيرانها الذي لا يلفت نظر المراقب لبداهته، لكنها قد تحمل فيروساً ضاراً جداً أو قاتلاً دون أن تعي أو دون أن يدرك من كان يراقبها ذلك .

أما غسل اللغة من الملوثات ، فهو أمر عسير ، إن لم يكن مستحيلاً في ظل وجود صفات المجتمعات البشرية التقليدية من إرادة قوية لقلب الحقائق وتزييف القيم ، وإصرار شديد على تميز تلك الفصيلة أو البقعة التي يسكنها كل مجتمع بما لا يوجد لدى المجتمعات الأخرى . ففي هذا المجال تقوم النظريات الفلسفية وعقائد الأديان على فقه اللغة وفهم النصوص وما يتبع ذلك من طرق في تفسيرها ؛ ومن هذا المنحى تتكون السلسلة الرئيسة في نشأة الفلسفات والأديان . إذ تنشأ عن الكلمات بشكل لاحق الأفكار ، وهذه تصنع المبادئ . وفي اللغة بشكل عام تتكاثر عوامل التلوث بسبب التأويل الرمزي في عناصرها ، مما يجعل مفاتيح تلك الرموز متعددة المواضع ، وتخضع لإرادات خارجة عن موضوعية اللغة ضمن منظومة التراث اللغوي وثقافة المجتمع . لكن الأمر يزداد سوءاً في النصوص الدينية حيث تكتسب تلك المرجعيات لفك الرموز قوة لا تضاهى ، وتصبح هي المتحكمة في ذلك التأويل ؛ وهنا قد تصبح اللغة – إن أردنا العدل – ضحية لذلك التعسف

مـــن أجـــل خدمة الرموز ، حيث يصبح ذلك هو الأسلوب المتبع في الأديان ذات النصوص المكتوبة أو المنظمات السرية ذات المبادئ المصوغة في نصوص لغوية ثابتة. ووسيلة ذلك كله بالطبع ستكون اللغة التي تشحن بالمؤثرات والسموم التي لا يراها إلا من يراقبها من الخارج .

ومـــن مصـــادر ذلك التلوث التي تتضح للمراقب الخارجي عمليات التوسع في مد دلالات الـــرموز ، لتصـــبح غير محددة أو منسوبة إلى غير ما وضعت له الرموز أو عامـــة بشكل فضفاض يجعل خصوصية الدال غير مفيدة في توصيف المدلول . فمن الـــدوال غير المحددة يمكن إيراد كلمات مثل : " الروح " ، " الإله " ، " الوعي " وغيرهـــا كـــثير . وهـــي الدوال التي تحمل دلالات مختلفة بحسب من يستخدمها والســـياق الـــذي تقال فيه . أما قضايا النسبة فهي أكثر اتساعاً ؛ حيث يربط بين دلالتي رمزين وفقاً لرغبات من ابتكر العبارة أو من استخدمها في ذلك السياق ، ثم تصبح من المسلمات التي لا يناقش الناس مدى توافق دلالاتها مع مرجعيتها . ومن أمثلتها عبارات : " مصلحة المواطن " (أو المصلحة الوطنية) ، " الدين الصحيح"، " التفســـير الحقيقـــي " وغير ذلك مما يتبنى من العبارات دون تمحيص ، ولا تعاد جـــزئياته عند النظر فيه إلى أصولها . وأخيراً تؤدي عملية استخدام العموميات إلى تصـــلب المفاهـــيم التاريخية ، مما يجعل التاريخ يتحول إلى أساطير ، وهو ما يجعل التعـــليلات التاريخية للنصوص القائمة على هذه الطريقة تفترض معاني نصوصها في ضوء واقعها اللاحق ، فلا تكون جهودها التفسيرية موضوعية ، بل مرتبطة بمقاصد عقيدية أو عملية معينة . بهذا المنهج تصبح التنمية الاقتصادية شبه الماركسية ، على يدي جلال أمين ، إسلامية ، ويصبح الطب إسلامياً ، والشورى بين كبار العشائر

ديمقراطية إلى آخر هذه التلفيقات .[١٠] وفي ظل هذا الوضع يصبح التاريخ المستنبط من نصوص اللغة مجرد مراحل إعادة دورية لأسطورة ثبتت في الأذهان .

وكنت في بحث علمي عن آليات المكننة قد حاولت الوصول إلى طريقة نستطيع بها تـــلقين الحاســـوب طريقة اكتساب اللغة (الأسس التركيبية لعناصر اللغة) ، كي يفهم اللغة البشرية بدلاً من أن يحولها إلى لغة رقمية ، مما يجعله يتعامل معها بشكل صوري لا تركيبي. وزعمت أن ذلك قد يشكل نقلة في الاستعانة بسرعة الحاسوب وكفاءتـــه الذهنية في دراسة اللغة ومواكبة أنظمتها . وأجدني الآن أسعى إلى قلب موضوع التعلم ؛ فلو تعلّم البشر ، فيما أظن ، طريقة الحاسوب في التعامل مع اللغة لـــنجوا من متاهات اللغة ، وغربلوها أثناء تحولها إلى لغة رقمية ، فتخلو بالتالي من مـــلوثاتها . لكـــن فيروســـات الحاسوب غير مضمونة ، فربما تغزو اللغة الرقمية ، فتصـــبح مـــلوثة الكترونياً . فيصبح بالتالي مرض اللغة ليس تقليدياً، بل عصرياً ، فتواكب اللغة متحدثها . ألم تنقرض الأمراض التقليدية كالطاعون والسل ، وتنشأ أمراض عصرية كالسكر وارتفاع الضغط والسرطان ؟!

١ — ٣ سحر اللغة

تعـــد الـــلغة من أهم مكتسبات الإنسان ، ولها وظائف عديدة تتراوح بين كونها وســـيلة الاتصـــال الأهم ، وبين كونها محرك التنمية ، ولها الفضل في صنع التراكم المعرفي لدى الإنسان .

---

[10] انظر : عزيز العظمة : النص والأسطورة والتاريخ . طه حسين (العقلانية ، الديمقراطية ، الحداثة) ، قضايا وشهادات / ١ ، ص ٣١٢ .

وفي كثير من تعريفات اللغة تذكر صفة التواصل مع الآخرين بوصفها أهم خصائصها ، لكن المشكلة تكمن في كون العلاقة بين تفكيرنا باللغة وتفكيرنا عن اللغة غير واضحة . كما أن علاقة اللغة بأعمال الذهن البشري معقدة إلى درجة يصعب تصورها ، بسبب عدم انفصال التفكير عن اللغة .

بالرغم من وجود الفرق الواضح بين لغة الإنسان ولغات الكائنات الأخرى في هذه السمة ؛ حيث تندمج أنساق التفكير مع أنساق اللغة لدى الإنسان وتفترق لدى غيره من الحيوانات التي تبتكر لغات أو أنظمة اتصال لا صلة لها بالأجهزة التي يستخدمها الإنسان في لغته ، فإن الجدل كبير في قضايا علاقة اللغة بالتفكير لدى البشر . هناك من يعد أحدهما خاضعاً للآخر أو محفزاً له ، ومن يعدهما مكملين بعضهما لبعض ، كما يوجد من يعتقد بكونهما نظامين مختلفين جمعتهما الصدفة باستخدام القنوات والأجهزة العصبية والفسيولوجية نفسها . وقد طرحت في أدبيات هذا الجدل بعض الأسئلة الجوهرية المتعلقة بطبيعة العلاقة [11] مثل مدى كون اللغة ضرورية للتفكير ومدى تحكمها فيه وأسبقية التفكير على اللغة وكونه ضرورياً لنمو اللغة ومدى وجود أصول مستقلة لكل منهما عن الآخر ومدى قدرة الإنسان على ترجمة التفكير إلى لغة ونقل اللغة إلى عناصر تفكير — وربما نضيف إليه هنا بأمانة .

هذا يقودنا إلى إحدى المشاكل الرئيسة في علم النفس ، إذ يفترض غالباً أن تصور الفكرة واحد من أوضح الأشياء في علم النفس ، غير أن تلك الفرضية ليست صحيحة . وكيفما يبدو ذلك متناقضاً ، فإن الفكرة تبقى غير مدروسة في أغلب نواحيها . فالعديد من العوامل يساهم في ذلك التناقض .

---

[11] يمكن تتبع هذه القضية بالتفصيل في مظانها ؛ منها : جودث جرين : التفكير واللغة . ترجمة : عبد الرحمن العبدان . الرياض : دار عالم الكتب ، ١٩٩٠ ، خاصة ص ١٠٣ وما بعدها .

أولاً تحـــليلات العلاقة بين الفكرة والقول تكون عادة قائمة على إفتراضات خاطئة بـــأن الفكرة نوع من الصنع الجاهز بأي شكل من الأشكال ، وأن الكلام يستعمل بالدرجـــة الأولى في احتوائها . كما أشار فيجوتسكي منذ زمن ، فإن قضية النقل مـــن الفكرة إلى الكلام تكون في الواقع أكثر تعقيداً مما يفترض بشكل عام . وتبعاً لذلك لا يحتوي الكلام الفكرة ببساطة ، بل إن الفكرة تمر بمراحل عدة لكي تصبح ذات شـــكل قائم ، أو كما يقول فيجوتسكي : الفكرة تكتمل في الكلام . وهذه قضيـــية مركبة من تكوين قول الكلام مما لا يزال محتاجاً إلى التقصي . فهي تحتوي قلب الفكرة غير الواضحة إلى سلسلة واضحة وموسعة من الكلام .

العـــامل الـــثاني الذي يجعل الوصف النفساني للفكرة مركباً (معقداً) هو المشكلة المـــنهجية ، والتي تتمثل في صعوبة فصل موضوع الشيء في الفكرة عن فعل مراقبة هـــذه الفكرة . فالأمر ليس سهلاً أن يتفاعل المنتج مع تدفق فكرة وعيه الخاص ، وأن يظل في الوقت نفسه مفكراً . وهذا بالطبع يتداخل مع وصف القضية المتعلقة بالفكـــرة ودورهـــا في إنتاج الكلام ، وهي الصعوبات التي تجعل محاولات وصف الفكرة لم تتقدم كثيراً . [١٢]

لقـــد وضع فيجوتسكي تحديداً مهماً في البحث العلمي للفكرة ، فهو يعترض على المســـلمة بأن الفكرة تكوين كامل التطور ، وأن الكلام يستعمل ليحتويها فقط . بـــدلاً من ذلك يؤكد أن الفكرة تكتمل في الكلمة ، أي أن الفكرة نفسها مكونة بمســـاعدة الكلمة أو الكلام . وهذه الحجة قائمة على حقيقة أن تحويل الفكرة غير الواضـــحة إلى كـــلام واضـــح قضية في غاية التعقيد تمر بمراحل عدة . وتبعاً لهذه المقاربة، تكون إحدى المهام الجوهرية في علم النفس أن يبحث التحويل من الحدس الذاتي الذي لم يتشكل في كلمات بعد ، ومما يكون مفهوماً فقط للفاعل ، إلى نسق

---

[12] أنظر : A. Luria : Language and cognition. Ed. J.V. Wertsch. Washington , D. C. (U.S.A.) : Winston & Sons, 1982 , p. 150 .

مـــن المعاني المشكلة في كلمات مما يكون مفهوماً للآخرين . إذن فقلب الحدس إلى معنى هو المهمة الأساسية في إنتاج الكلام .

ومـمـا يزيد الأمر تعقيداً تعدد انتقالات الكلمات بين المعاني القديمة والجديدة بطرق مختـلفة ؛ فإمـا أن تكون رحلة الكلمة من معنى ميت أو مهجور إلى معنى حي أو مســتعمل حديــث ، أو أن تكون رحلتها بشكل مجازي . وهذه الحيوية والقدرة الفائقة على إعادة التوظيف الدائم تعد من الخصائص الجوهرية للغة البشرية الحية ، لأنهـا تحتاج إلى التعبير عن أشياء جديدة ، ولا توجد لديها سوى الكلمات القديمة المعــروفة . لكـــن إفراط اللغة في التوسع المجازي يؤدي إلى خلق حالات النمطية (prototype) ، وهـــو وضـــع يتعلق بالحدس بشكل أساسي ، لأنه لا يوجد خط فاصل بين الاستخدام الحرفي والاستخدام المجازي للكلمات .

مـا يتمنى المتكلم أن ينقله إلى الآخرين يكون معروفاً له شخصياً بشكل مسبق . الســـؤال هـــو كيف يعطي ذلك ارتقاء بالقول ؟ وكيف نحول هذا الحدس المبدئي الـــذاتي إلى نسق موسع من المعاني اللفظية، والمفهومة للآخرين ؟ إذ من الواضح أن هـــذه القضية في إنتاج الكلام ، أو هذا القلب من الحدس المبدئي الذاتي إلى النسق الموضوعي الموسع يمر بمراحل متعددة .

الصعوبة الإضافية تكمن في حقيقة أننا نحتاج إلى اطلاع على العلاقات المعقدة عند إنـــتاج الفعـــل الكلامي وفهمه بين تحليل السياق وتحليل النص ؛ فنحن لا نزال في الواقـــع في المرحلة الأولى من فهم سيطرة التداخل البحثي بين اللغة والحدث والمعنى والإدراك والأبنية الاجتماعية .

والثابت في واقع الأمر أن اللغة تؤثر في الفكر بطريقة يكون فيها مستخدمو كل لغة خاضعين لصياغة فكر مطبوع بلغتهم الخاصة . وهذا الفكر في نهاية المطاف يجعلهم يفهمون الأشياء بطرق مختلفة عن فهم مستخدمي اللغات الأخرى للأشياء نفسها .

وكما صور فيتجنشتاين اللغة بأنها مفتاح حضارة الإنسان ، وهي ما يميزه عن غيره من الكائنات ، فإنه قد أكد بأنه لا يوجد إدراك أو تصورات عارية عن اللغة ، بل لا يمكـــن للإنسان أن يدرك شيئاً أو يفهمه أو يتصوره إلا في قالب لغوي ، بل إن اســـتخدام الـــلغة بالطريقة التي نشأنا على استخدامها هي التي تحدد الإطار الذي نعـــرف مـــن خلاله أنفسنا ، ونرى الأشياء ونفكر فيها . وقد ذهب إلى أكثر من ذلـــك أنها "لعبة" ، ولتلك اللعبة قواعد لا يجيدها إلا من صنعها ، وهم أبناء اللغة أنفسهم . [١٣]

ومن أجل ذلك ، فإن النظر إلى الأشياء في منظومة فكرية بموضوعية وتجرد لا يمكن تحقيقه غالباً من خلال اللغة التي تنتمي إلى ذلك الفكر ، أو كما يقول المثل الياباني: okame hachimoku (أحيانـــاً يكـــون المراقب أقدر على الحصول على الإطار الكامل للعبة) . أما لماذا لا يحصل المشترك والصانع للفكر نفسه على ذلك الإطار الكـــامل ، فـــإن تمويه اللغة قد يكون السبب ، أو كما يقول المثل العربي : القرب حجاب .

ويكـــاد يكـــون من مسلمات الفلسفة التقليدية أن الإنسان ينظر إلى لغته بوصفها مدخلـــه الرئيس إلى تصور الأشياء والمفاهيم ، ولا ينظر إليها بوصفها وسيلة للتعبير عمـــا يريد التعبير عنه أو وسيلة اتصال ذات وظيفة آلية . ولهذا السبب ارتبط كل إنســـان بلغته ، وأحبها ، وتفاعل معها ، بل وأصبح لا يفهم الأشياء بمعزل عنها . وهذا الارتباط هو أحد الأسباب التي جعلتها جزءاً من هويته .

وإذا انطلقنا من وصف موضوعي وتقويم لتلك الفلسفة ، فإننا نجد أن أنساق اللغة مـــتجذرة في تـــاريخ متكـــلميها ، وتنـــبض بتطوراتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وحتى لو كانت وظائفها الأساسية تتمثل في الإنباء والنقل والتنفيس ،

---

[13] انظر : محمود فهمي زيدان : في فلسفة اللغة . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٥ ، ص ٦٠ .

فإن وظائف أخرى تناط بها من جهة ، وتؤدي وظائف أخرى دون أن تناط بها من جهــة أخرى . ولو قارنا بين منطق الواقع العملي ومنطق الواقع اللغوي ، لوجدنا فــوارق شــتى ، ودلائـــل تؤكد أن للغة منطقها الخاص ، وأن أنساقها لا تخضع لأنساق المنطق العملي .

وهذا التوالد العجيب في قدرات اللغة والارتباط الشديد بنسيج التاريخ هو ما يجعل أبناء اللغة يتماشجون معها ، ويحنون إليها عندما يضطرون إلى هجرها لعدم وجود من يتحدثون بها معهم . وهي الصفات أيضاً التي تجعل للغة سحرها وجاذبيتها التي لا تعتق ؛ فكيف ينشأ هذا السحر ؟ وما وسيلته ؟ وما سر هذا الحب الأفلاطوني بين شخص وبعضه؟

للإجابــة عن السؤال الأول لا بد لنا من معرفة دوافع الإنسان لاستخدام اللغة في تواصـــله مع الآخرين ، وطموحاته التي يريد أن تتحقق من خلال ذلك التواصل . وبالـرغم مـــن كل ما قيل عن وظائف اللغة الرئيسة ، وقيام عملية التواصل عليها بشـــكل حـــتمي ، وارتباط الفكر بها في علاقة عضوية لا انفكاك منها ، وانتماء الإنســـان إلى لغـــته بوصفها جزءاً من هويته وجنسه وتاريخه ، فإن مستخدم اللغة العـــادي يســـعى إلى الـــنظر إلى كل تلك المسلمات على أنها شيء لا يخصه في استخدامه اللغة أو لا ينظر إليها بأي حال . وهو ما يسميه فولتير في تصنيفه فئات البشـــر الـــتي تـــتعامل مع اللغة بالإنسان البسيط dondindac (وهو أحد أسماء الأطفال في القصص المصورة) ، أما الفئة الأخرى فيمثلها اللاهوتي logomachos الذي يغرق في الكلمات ويتصور أن لها سحراً وأثراً .[١٤]

ومـــن هـــنا فإن دوافع الإنسان من ذلك النوع الثاني عندما يتواصل مع الآخرين ترتكـــز عـــلى الرغـــبة في استغلال قوة اللغة وأثرها في الجمهور لصالحه ؛ وكلما

---

[14] انظر : حسن حنفي : في الفكر الغربي المعاصر ، ص ٩٢ .

اكتشـف الإنسان مدى جدوى استخدام بعض العبارات في تجارب معينة يمر بها ، ازداد تمسكه بتلك القوة وحرصه على توظيفها في تجارب جديدة تزيد من حذقه في ذلك الاستغلال وتفننه في اللعب بمفرداتها وبظلال المعاني المختلفة بين مترادفاتها .

وإذا أردنـا البحث عن صفة جوهرية تكون محوراً للإنسان في استغلال قوة اللغة ، فإنها بالتأكيد ما تسميه في علم الأخلاق الأنانية ، من استخدام الشعارات والنكوص عنها ، وهي من أفضل الوسائل لتسويق الأفكار ، وتبرير الجرائم والإهانات ، وطمر الحق وإقصاء العدل ، ونكاد لا نجد حقاً ضائعاً إلا وراءه شعار براق . وبما أنه يمكن التأثير في الناس بقوة من خلال إثارة العواطف بالعبارات المتطرفة، فإن المتحدث الذي يريد استدراج السامع إلى الاقتناع بعباراته ، ثم الرضوخ إلى رغباته والسير في ركابه ، عليه أن يلم ليس باللغة وأبعادها ودلالاتها الموضوعية ، بل بوقع عناصر اللغة على من يتحدث معهم ؛ وبهذا يتمكن من الإمساك بمكامن القوة ، ويفيض بالتالي ذلك السحر من بين شفتيه .

ووسيلة هذا السحر (موضوع السؤال الثاني) هي بالطبع الكلمات ؛ هي الكلمات التي تنبع من الإنسان بوصفه جزءاً من تلك الثقافة التي أنتجت تلك الكلمات ذات الارتباط بأحداث مهمة أو صفات وقيم لها بعد ثقافي في المجتمع . وهي في أغلب الأحيان متصلة بحياة الإنسان بشكل مباشر، تعطيه الأمان والثقة في المستقبل ، وتحفظ أصول اللعبة على مستوى الفرد والجماعة .

فإذا نظرنا إلى كلمة مثل "الإرهاب" وعلاقتها بالإيمان والتعصب ، ومتى يصل الإيمان إلى التعصب ثم الإرهاب ، وما تؤثر به حالياً في المخيلة الشعبية لدى المجتمع الأمريكي ، خاصة مع طريقة العرض التي تقدم بها أحداث سبتمبر ٢٠٠١ ، والاستغلال السياسي لتلك الأحداث ، أدركنا ما يمكن أن تقوم به مثل هذه

الكلمات ، وما لها من مفعول يشبه مفعول السحر في تكثيف مشاعر الجماهير ، مما يولد صوراً مؤثرة وأخاذة تملأ الروح كالهوس .

وما حدث في نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كان مثالياً لمثل ذلك التأثير ، لأن الكارثة كانت كبيرة ، وقد حدثت دفعة واحدة ، وهو ما تجسد في صور مرئية ومكشوفة ، لم تكن لتحدث الأثر نفسه لو وقعت الخسائر نفسها على فترات متقطعة ينسى الناس بعض مصابها بعد مرور كل فترة. وهذا التأثير هو ما يسميه غوستاف لوبون بالوقائع العجيبة الساحرة : كالنصر الكبير ، أو المعجزة الكبيرة ، أو الجريمة الكبيرة ، أو الأمل الكبير ؛ حيث يمكن أن تحدث مائة جريمة صغيرة أو مائة حادث صغير ، ولا تؤثر أبداً في مخيلة الجماهير ، ولا تحركها . ولكن جريمة واحدة كبيرة أو كارثة واحدة كبيرة تؤثران فيها بعمق ، حتى لو كانت نتائجهما أقل بكثير من النتائج القاتلة لمائة حادث مجتمعة .[15]

ويمكن القول هنا إن ارتباط بعض الألفاظ بدلالاتها التي تصبح ساحرة يعود لارتباطها بتلك الوقائع الكبيرة الساحرة أو لارتباطها بدلالات مؤثرة أو مهمة ، ويترسخ أثر سحرها عندما يتواصل تأثير دلالاتها أو أهميتها ، وكذلك عندما تبقى تلك الأحداث الكبيرة حية في ذاكرة الأجيال اللاحقة . عند ذاك تصبح ثقافة لذلك المجتمع ، يصعب عزل دلالاتها عن سياقها التاريخي ، ويصعب — بالمفهوم الفني لعلماء اللغة — ترجمة تلك الكلمات إلى لغات أخرى ترجمة حرفية أمينة .

وفي صدد معرفة كيفية توطين الكلمات في البوتقة الثقافية أصبحت بعض العلوم الحديثة مثل علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع وعلم الأعراق تعنى كثيراً بهذا الجانب ، غير أن دراسة الرموز اللغوية تبقى في إطار الأمور الغائبة عن النص ؛ سواء كان هذا الغياب متعلقاً بعناصر مفردة ، أو كان متعلقاً بسياق غير لغوي

[15] انظر : غوستاف لوبون : سيكولوجية الجماهير ، ترجمة وتقديم : هاشم صالح . لندن : دار الساقي ، ١٩٩١ ، ص ٨٩ .

ضروري لفهم العبارة أو النص بكامله ، أو على الأقل فهمها بالشكل الموافق لفهم منـــتج النص . وفي هذا الإطار يمكن التمثيل ببعض العبارات العربية التي تحتاج إلى ذلك السياق غير اللغوي (من الفصحى) : " قاتلك الله ! " ؛ " يا مكّار ! " (ومـــن عيـــنات الرفاق) : " يا تعبان ! " ؛ " اخس ! " (وهذه تكون عادة في تساوق مختلف باختلاف الدلالة التي تحملها مثل : " اخس يا عفريت ! " أو "اخس يا عكروت!" في الدلالة الإيجابية ، أو " اخس يا الخسيس ! " في الدلالة السلبية) ، باختلاف في العناصر المصاحبة للكلمة وتنغيم الجملة .

وفي حـــالات الســـخرية والتهكم : " هل تريد التقدم إلى الأمام ؟ " (لمن يدخل عرضاً في صف الانتظار " أو : " أرى فيك طولاً وضخامة ! " (تعبيراً عما ينقص النص : " في مقابل ذلك ينقصك عقل وفهامة ") . [١٦]

أمـــا عـــن سر هذا الارتباط بين الإنسان ولغته (موضوع السؤال الثالث) ، فإنه بالإضافة إلى أن جزءاً من ذلك الارتباط فطري لم يختر الإنسان الارتباط به أصلاً ، وبيولوجـــي يحتاجه المرء في تصريف شؤون الفكر ؛ توجد للغة خدمات لا يستغني عـــنها الفـــرد بعضها نفسي يتعلق بخلق الطمأنينة لدى الإنسان ، ونلاحظها لدى الأطفـــال والمرضـــى النفســـين والمغتربين والأشخاص الخائفين ، أو للتنفيس عما بداخل الإنسان ، ونلاحظها لدى أصحاب الفصام والأشخاص الحانقين . ويتضح أثر هذه الحاجة لدى مرضى التوحد الذين يقل لجوؤهم إلى خدماتها لقلة شعورهم بتلك الحاجة البيولوجية .

وبعـــض هذه الخدمات براجماتي ؛ يتجلى في مساعدته على تبرير الأخطاء ، وظلم الآخـــرين، وتجنب تأنيب الضمير . كما تقنعه بصحة نهج الأنانية بإعطائه حقاً ، لا

---

[16] انظر : فالح العجمي : " العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص " . عالم الكتب ٢٨ / ١ (يوليو – سبتمبر ١٩٩٦) ، ص ٣٥١ .

يراه للآخرين ، وأن أولويات الإنسان هي الفرد ، ثم الأسرة ، ثم الوطن ، وربما يرد بعـد ذلك أو بين هذا وذاك أولوية الإيديولوجيات ، وتبعد عنه الإحساس بالروح النقدية التي تجعله يشعر بوجود التناقضات .

ولا يوجد في تاريخ أي جماعة أو مجتمع أسوأ من استمراء الجهل بالتغافل عما يعتقد المـرء يقيناً بوجوده ، لكن الرغبة في الإحساس بنعيم الجهل سواء كانت لدى فرد أو فـئة أو أمـة لا تجعل المرء (أو المجتمع) يستنكف عن إبعاد كل ما ينغص تلك العـزلة عـن الواقع . ولا يمكن أن تتم تلك المحاولات بنجاح إلا بتوظيف اللغة في تـبريرات إيديولوجية تصور الفرد على النهج الصحيح والمجتمع لا تشوبه أي شائبة وإبعاد النقد الذاتي في أي من نواحي السلوك أو الهوية .

١ – ٤ لغة السحر

إذا سـلمنا الآن بأن اللغة بعض الإنسان ، بل وأحد أهم مكوناته ، فهذا يعني أن اللغة انعكاس للإنسان وصفاته الرئيسة . وهو ما يقودنا إلى ضرورة معرفة صفات الإنسـان ، لكـي نعـرف صفات اللغة ؛ فإن كان الإنسان نبع خير ، فإن اللغة سـتكون كذلـك ، وإن كان مخلوقاً شريراً ، فإن اللغة ستكون وسيلة وانعكاساً لممارساته الشريرة .

ويصـعب بالطبع تصنيف الناس جميعاً في أقطار الأرض المختلفة وفي حقب التاريخ الماضـية ، لكـن مؤشرات حياة الإنسان البائسة من فقر وجوع وحروب وجشع وظـلم وحسد وكره وكذب واضطهاد وطغيان في أغلب فترات التاريخ ، بل وفي أكـثر فـتراته تحضراً ، تجعل أكثر المتفائلين لا يستطيع تصنيف هذا الكائن ضمن كائـنات الخير ، إلا إن خضع لابتزاز اللغة التي هي جزء — كما أسلفنا — من هذا

الكائن . ولكي لا نتهم بالتحامل على الإنسان واللغة ، فإن نظرة على رقعة اليابسة مــن الكرة الأرضية ، وبؤر التوتر فيها ، وما تمتلئ به كتب التاريخ وأخبار العالم المقروءة والمسموعة والمرئية من أخبار البؤس — التي يتعرض فيها مجتمع أو فئة لظلم أخرى أو قهرها ، فإن لم تجد من تظلمه ، لجأت إلى ظلم أفرادها — تجعلنا بعيدين عــن قمة التحيز . قد يقول قائل : إن تلك ممارسات يسأل عنها من يقوم بها من أفــراد أقوياء أو جيوش ظالمة ، لكن أولئك إما أن يكونوا قد انُتخبوا ، فاشترك في مسؤولية ما يقومون به جميع من انتخبهم ، أو أن يُسكت عن سلوكهم ، فيشترك الساكت في ذنب من وقع منه الظلم .

وإذا اســتثنينا الأنــبياء وبعض الطاهرين من البشر ، ومعهم بالطبع الأطفال ، فإن الفئــتين الأوليين قليلتا العدد ، والفئة الثالثة سيكثر أفرادها ، ويصبحون مثل بقية أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه .

هــناك ألفاظ في كل لغة وفي كل حقبة تستخدم في ابتزاز الناس — كما أسلفنا — وتساهم في تغييب الحقيقة أو تلوينها . فهل وصف الحقيقة بشكل موضوعي ممكن؟ وهــل يسعى الإنسان فعلاً — لا قولاً بواسطة اللغة — إلى معرفة الحقيقة والتعريف بها ؟ ومما يرتبط بالإجابة عن السؤالين الأولين سؤال ثالث هو : ما العوامل المحددة لاستخدام الكلمات في أي من الوظائف المذكورة أعلاه ؟

يــبدو أن الإجابة عن السؤال الأخير أيسر من الإجابة عن الأولين ، لذا سنبدأ في الإجابــة عــنه . توجــد عوامل تشترك فيها أساليب اللغة المرتجلة وأساليب اللغة المخطــط لهــا ؛ كما تتميز أساليب الأخيرة بعوامل محددة للاستخدام لا توجد في الأولى . فمن العوامل المشتركة الخلفية الثقافية والجنس والموقع الوظيفي . وللعامل الأول عدة أبعاد منها ما هو طبقي (اجتماعي — اقتصادي — سياسي) ، ومنها ما هــو جغرافي ، ومنها ما هو عرقي . أما العاملان الأخيران ، فلهما عادة أثر متفق

عــليه في اللغات البشرية الطبيعية ، لأن دوافع الجنس والمهنة لاستخدام اللغة ذات طبيعة متقاربة . فالفروق الطبقية تؤدي إلى الاختلاف في استخدام الكلمات ، وإذا اســتخدمت الكلمات نفسها تباعدت دلالاتها ، كما هي الحال بالنسبة للحواجز الجغــرافية . وفي إطـــار العوامل السياسية نجد الحاجة إلى استخدام بعض الكلمات ذات الـــبريق المرتبط بحلم سياسي واضحة في مصطلح " الدولة " لدى الفلسطينيين أو مصـــطلح " التطـــبيع " لـــدى الإســـرائيليين . وفيما يخص البعد العرقي يظهر الاستخدام الخاص لكل عرق أو طائفة في حديث الرجل عن زوجته أو الزوجة عن زوجهـــا (إن كان يقول (أو تقول) : زوجتي (زوجي) أو فلانة (فلان) أو الســـيدة فلانة (السيد فلان) أو السيدة (السيد) أو أم العيال (أبو العيال) ، أو هـــي (هـــو) ، وغيرها من المصطلحات الحاملة لأبعاد ثقافية يوصل استخدامها الفكر الذي تحمله .

وفـــيما يتعلق بجنس المستخدم توجد بالتأكيد اختلافات تنبع من الفروق البيولوجية والثقافية للجنسين ؛ كما هو معروف ترتبط ذاكرة المرأة بالأحداث الذاتية والوقائع المرتـــبطة بها أو بأسرتها ، بينما ترتبط ذاكرة الرجل بالأحداث الموضوعية ، لذلك يتباين الاستخدام لدى كل منهما . كما يستخدم النساء الصيغ الدالة على مستوى مـــزموق أكثر من الرجال ، بسبب أن المرأة أكثر وعياً بالوضع الاجتماعي ؛ فهي أقـــل إحساساً بالأمان وأقل تكويناً للعلاقات الاجتماعية . وعادة يرتبط موقعهن الاجـــتماعي بموقع الرجال في محيطهن ، كما أنه يُحكم على الرجال من خلال ما يعملون ، بينما يُحكم على النساء من خلال مظهرهن ؛ وأحد أشكال المظهر الهامة

هـو الكلام . من أجل ذلك تكون المرأة بحاجة إلى استخدام اللغة لإبراز وضعها الاجتماعي أكثر من الرجل . ١٧

وأخيراً لا يمكن إغفال دور الموقع الوظيفي في اختيار الكلمات وفي تحديد استخدامها أو تطويره بشكل يخدم وضع الوظيفة وصاحبها في المجتمع ؛ فمن أجل أن يُقبل المرء في إطاره المهني ، لا بد من معرفة نظرية وتطبيقية لأبعاد استخدام الكلمات ، كما يستخدمها أصحاب المهنة المتقدمين . وفي بعض الحالات يتقمص الوافد إلى مهنة جديدة استخدامات متعددة من زملاء مختلفين ، مما يوجد الاضطراب في دلالات المصطلحات ، خاصة عند استعراضها في إطار تاريخي يشمل فترة زمنية طويلة.

أما العوامل التي تحدد استخدام اللغة المخطط لها – بالإضافة إلى العوامل المشتركة مع اللغة المرتجلة المذكورة من قبل – فتختلف حسب أهداف ذلك التخطيط ؛ ففي نصوصها التي تعد من أجل الحصول على المنافع تستدعي العبارات التي تؤكد الحق في ذلك وتسهّل التنازل عنها للمدعي ، وفي النصوص المعدة للتنافس يلجأ إلى الألفاظ التي تمنح الفرد المتحدث عنه ميزة تفوق الآخرين ، وفي إنشاء العلاقات الاجتماعية وتعهدها تبرز أهمية تلك العلاقات وحرص المتحدث على بقائها وتقويتها، وعندما يكون الهدف السيطرة على الآخرين ، يصبح التركيز منصباً على العبارات التي تبرز نقاط الضعف لدى الأشخاص المراد السيطرة عليهم ، وتبين مدى حاجتهم إلى الشخص المستخدم للغة أو المؤسسة التي يمثلها .

---

[17] انظر : R. Wardhaugh : An Introduction to Sociolinguistics , 2. Edition. Oxford : Blackwell Publishers, 1992 , p. 200.

ومـــن أمثـــلة الـــنوع الأول كثير من نماذج التفويض التي تعدها المؤسسات المالية والقانونيـــة ، ونذكـــر أحدهـــا للتمثيل ، وهو صادر عن بنك ، ويتعلق بتسديد مستحقات البطاقة الائتمانية :

" خطة التسديد المرنة

كما أوضحنا في الخطاب يمكنك اختيار احد [الصحيح : إحدى] الطرق المدونة ادناه [أدناه] :

أ – نعم أنا أرغب في الاستفادة من خطة التسديد المرنة ...

ب – لا أرغب في الاستفادة من مميزات خطة التسديد المرنة ... "

هنا استخدم خطاب التفويض المعاني المتضمنة (الموحية) في العبارات ، ووظفها في إقناع العميل بأن الاختيار الأول هو الأنسب له ، وأنه إذا ما اختار الاختيار الثاني، فإنـــه لا يرغب في الفائدة ، وسيفوتها على نفسه . والاختيار الأول هو بالطبع ما يريده البنك .

ومـــثال الـــنوع الثاني استخدام عبارات مثل : " اذكر الله ! " ، " قل : لا إله إلا الله!"، "صـــلّ على النبي ! " بغرض قطع كلام الخصم ، وإعطاء كلام المستخدم لهذه العبارات التالي لذلك الفاصل المقنع قوة إضافية .

ومـــثال النوع الثالث قول الرجل المتزوج من أخرى لزوجته الأولى : أنتِ الغالية والباقية وأم الأولاد ... إلخ .

أمـــا النوع الرابع فيتعلق بنصوص صادرة عن أفراد أو مؤسسات تنتمي في الغالب إلى هيـــئات استخباراتية ، أو جماعات الدراويش والصوفية والطرق الفلسفية التي يهمهـــا الاستحواذ على فكر الفرد وتسخيره لأهدافها . ومن أمثلته قول المسؤول الاستخباراتي لمن يجنّد أو لموظف يكلف بمهمة : " لا بد من الاعتماد على مثلك ، لـــن نجـــد مـــن هو أكفأ منك " . ومن أمثلته ما يقوله بعض المتصوفة على ألسنة

أوليــاتهم " خضـــت بحراً وقف الأنبياء بساحله " ، لإيهام الأتباع بأنهم أقرب إلى الـــرب من الأنبياء لاتصالهم به مباشرة ، خلافاً للأنبياء الذين يتصلون به من خلال وســيط . ويهدف شيوخ الطريقة من هذا الإيهام إلى السيطرة على المؤمنين بالولي والشيخ من خلال كرامات الولي .

مـــن خلال الإجابة عن السؤال الثالث يتضح لنا جانب مهم من دور اللغة في نقل الواقع في شتى ظروف الاستخدام المتباينة ، وجانب آخر من علاقة اللغة بالحقيقة ، مما يصلح أن يكون إجابة عن السؤال الأول ؛ تتمثل في أن اللغة في أغلب أدوارها لا يمكن أن تكون ناقلاً موضوعياً للحقيقة ، بل تنقل ما نراه من الحقيقة أو ما نريد أن يكون الحقيقة . وإذا لم تكن اللغة قادرة على وصف الحقيقة بشكل موضوعي ، فالأرجح أن وصفها بوسيلة أخرى غير ممكن .

بقيــت الآن الإجابــة عن السؤال الثاني المتعلق بجدية الإنسان في السعي إلى معرفة الحقيقة والتعريف بها . ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى أن كثيراً من مستخدمي اللغة – وللأســف أيضــاً مستهلكيها – يدّعون سعيهم إلى معرفة الحقيقة وإلى قيامهم بنقــلها كمــا عــرفوها ، بــل وفي بعــض الحالات يدعون احتكارهم معرفتها واحـــتكارهم نقلها بمقولات مثل : "والصحيح ما أثبتناه لك " أو : " وإذا أردت الحقيقة فاسمع (أو : فاقرأ) ما أقوله (أو : أكتبه) لك " . لكن ما يقوله أو يدعيه مستخدمو اللغة شيء ، وما يمارسونه شيء آخر .

فـــإذا كان ما أسميناه من قبل " سحر اللغة " يعني أنها وسيلة سحر أو وسيلة خداع في الغالـب ، وقد يتسع هامش الخداع أو يضيق ، وقد يقصد عمداً أو تحمل بذوره الـــلغة أو بعــض عناصر اللغة . وبالتالي فإن الحقيقة ليست هدفاً حقيقياً أو مجرداً لأغـــلب حـــالات استخدام اللغة ، ومن هنا أتت حيرة الفلاسفة في الوصول إلى

الحقيقة ؛ إذ لا وسيلة للوصول إليها (من الناحية الاتصالية) إلا اللغة ، ولا وسيلة لتفسير جوانب الحقيقة (من الناحية الموضوعية) إلا اللغة .

وقد يتحدث المرء في مجلدات عن عوائق تحقيق هذا الهدف ، لكننا نقصر الحديث على سببين نعتقد كونهما رئيسين في إحداث ذلك التحول : الأول هو **أنسنة اللغة**، وكون هذا الإنسان الذي صبغ اللغة بطبيعته وأحواله وصفاته هو القوي ومحتكر المصالح ومستغل اللغة لخدمة تحقيقها – بعيداً بالطبع عن خدمة الحقيقة . أما السبب الثاني ، فهو **الطفرات الدلالية** التي تجري في اللغة بدفع أحياناً من أصحاب الاحتكار ، وبآليات ذاتية داخل اللغة تحكمها تحولات المجتمع في حالات أخرى ، مما يبعد منطقها عن المنطق العملي. وباتفاق علماء اللغة ، فإنه لا يمكن رصد التغيرات في اللغة ، وكل ما يمكن ملاحظته في هذا الشأن هي نتائج تلك التغيرات .[١٨]

ففي مجال أنسنة اللغة نجد كثيراً من الانحرافات السلوكية لدى الإنسان مصدرها توسيع بعض المصطلحات المتعلقة بجوانب من حياة الإنسان وعلاقاته ، لتشمل ما لم تكن تعكسه في عالم الواقع ، أو تفصيل ذلك الواقع ليطابق حالة فردية أو وضعاً خاصاً في المجتمع ؛ ومن أمثلة ذلك في الثقافة العربية ما يستخدم فيه مصطلح مثل "الكرم " ، حيث يحتوي القيمة الإيجابية في اللغة ، حتى وإن وسع ليشمل المباهاة والبذخ ، مما يجعل بعض الناس يتمادون في إلصاق هذه الصفة بهم إلى حد الترق أحياناً ، اعتقاداً منهم بالحصول على هذه القيمة الخلقية في مثل قول العربي : " إني والله لا أطعم ضيفي إلا لحماً عبيطاً " ، أوفي مثل قصة العنز – إن صحت – التي ذبحها صاحبها إكراماً لضيفه ، وهو لا يملك غيرها حارماً أولاده من حليبها الذي كانوا يعيشون عليه .

---

[١٨] انظر : المرجع نفسه ، ص ١٩٢ .

ومن ذلك أيضاً توسيع دائرة " الثأر " الذي أصبح محمدة في الثقافة العربية ، ليدخل فيهـــا جميــــع أنواع الانتقام والمكائد ، حتى أصبح الصفح دليل ضعف ؛ ومضاعفة الإســـاءة دليل قوة لدى قطاع عريض من الناس . وقد أدى هذا التفاخر بمثل تلك القيم إلى جعل ظلم الآخرين من المناقب التي يفتخر بها المجتمع العربي ، ويعيدها إلى القوة التي ارتبطت بضرورة الحصول على الثأر .

قد يقول قائل : كل هذه التحولات التي تذكرها في القيم من صنع المجتمع ، وليس من صنع اللغة ؛ وهو أمر صحيح ، لكن وسيلة المجتمع في صنع تلك التحولات هي الـــلغة ومفرداتها الساحرة . والمعروف أيضاً أن مجالات استخدام اللغة تتفاوت في استخدام هذا السحر ؛ فكلما زادت درجة التفاعل بين منتج النص والمتلقي هبطت ســـلطة الـــنص (ومعها التحديد الموضوعي للدلالات) ، وهو ما يحدث بالدرجة الأولى في مجـــال الـــنكت والغزل والمديح . وذلك لأن المنتج في مثل هذه الحالات محتاج إلى تفاعل الشريك معه بدرجة أكبر مما هي الحال عليه في مجالات أخرى .

وفـــيما يخـــص الطفرات الدلالية يمكن الانطلاق من المسلمة القائمة في علم أصول الكـــلمات (التأثيل) ، أن لكل كلمة تاريخها الخاص . وهي المسلمة التي كانت نتـــيجة لما استقر في الدرس اللغوي الحديث من أن ما يجعل نبض الحياة يسري في الكـــلمات هـــو اســـتخدامها . ولذا قيل إن دلالات الكلمات هي استخداماتها . ولنـــنظر في هـــذا السياق إلى استخدامات ألفاظ متعددة من الكلمات الدالة على النباتات في الإشارة إلى المرأة عند الدينوري في كتاب النبات :

" أراك . والواحدة منه أراكة ، وبها سميت المرأة أراكة " [١٩]

" بسباس . الواحدة بسباسة ، وبها سميت المرأة بسباسة " [٢٠]

---

[19] أبـــو حنيفة أحمد بن داود الدينوري : كتاب النبات ، تحقيق : برنارد لوين ، الجزء الخامس . ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٥٣ ، ص ٢ .

[20] المرجع نفســه ، ص ٥٩ .

" زعم بعض الرواة أن البحنة نخلة معروفة ، وبها سميت المرأة بحنة وبحينة " [21]

" دوم . الدوم واحدته دومة ، وهي شجرة المُقْل ، وبها سميت المرأة دومة " [22]

لنرى طريقة الربط بين الرموز المختلفة ، إذا اتفقت المدلولات في بعض الصفات ، أو وجد شبه في أي من وظائفها ، لينعكس هذا الاتفاق على استخدام أحدها للدلالة على الآخر بشكل مجازي وحقيقي في بعض الأحيان . فالإنسان يصنع بواسطة اللغة عالماً خاصاً قوامه اللغة ؛ حيث نعطي الأشياء من حولنا أسماء ، لكننا أيضاً نوجد أشياء أخرى من خلال التسمية ، ونخلق نسقاً من العلاقات المتطورة والتصور الكوني .

وبسبب تلك الطفرات الدلالية وسيطرة الاستخدام على مسار حياة المفردات في كل عصر ، فشلت كثير من محاولات التحليل العلمي الصارم للدلالة ، مما جعل علم الدلالة من أقل علوم اللغة انضباطاً ومن أكثرها اتساعاً . فقد باءت بالفشل محاولات بلومفيلد وغيره من علماء الحقول العلمية الأخرى الذين حاولوا الإسهام في تكوين أسس علمية للدلالة تجعل استنباط دلالة الكلمة تقوم على مؤشرات موضوعية ؛ بل وكانت بعض المحاولات تسعى إلى جعل أبواب الدلالة ذات أرقام متفرعة من الأصل إلى فروعه الثانوية بشكل يجعل وضع رقم رباعي أو خماسي لكل كلمة في اللغة ممكناً بناءً على معرفة دقيقة لكل مجموعة كبرى ومجموعاتها الصغرى المتفرعة عنها . لكن كل تلك المحاولات فشلت ، لأنها لم تراع طبيعة كلمات اللغة وطفراتها الجينية .

وفي العصر الحديث أصبحت السيطرة على وسائل الإعلام وصناعة توجهات الدلالة أحد عناصر التفوق الفكري والعلمي – التقني . ونظراً إلى كون الرأي العام

---

[21] المرجع نفسه ، ص ٦٣ .

[22] المرجع نفسه ، ص ١٦٧ .

يقوم على الأخذ والعطاء عن طريق المناقشة ، فإنه يتحتم لقيامه وجود لغة مشتركة أو قـــدرة عـــلى الاتفاق على المعاني الرئيسة ، وهو يتضمن المشاركة بين الناس في الخـــبرات والاســـتعداد للـــتوفيق بين الآراء . وتتوقف تلك المشاركات على توفر ومـــرونة أدوات الاتصال الجمعي مثل الصحافة والإذاعة والتلفزيون والاجتماعات العامـــة ؛ وهـــي غير ذات قيمة إلا إذا كفلت لها حرية المناقشة .[٢٣] أما تكوين الاتجاهات العامة فإن مؤسسات المجتمع تقوم بدور جوهري فيه ، لما يوجد فيها من مصـــادر المعلومات وكون اتصال الأفراد بها يكون في مرحلة مبكرة من حياتهم ؛ فللمدرســـة تـــأثير كـــبير في تشكيل الاعتقادات ، كما يكون لوسائل الاتصال الجماهيريـــة مـــن صـــحافة وإذاعة وتلفزيون أثر لا يمكن إغفاله بوصفها مصادر للمعلومات . وفضلاً عن ضخامة المعلومات التي يستقيها الأفراد من هذه الوسائل ، فإنها تقدم بصورة منتقاة مع تعليقات يهدف منها إلى صناعة الاتجاه ؛ ولذلك يزداد احتمال أن تكون الاعتقادات والاتجاهات المتكونة نتيجة لذلك مختلفة عن تلك التي كان يمكن تكوينها نتيجة الخبرة الشخصية المباشرة . كما تقوم عوامل أخرى بدور يقترب من دور مؤسسات المجتمع ؛ أهمها التعرض للشيء الذي ينشأ الاتجاه نحوه ، ومـــن وسائلها الألفة التي ينشأ عنها اتجاه موجب . وتستغل الدعاية التجارية هذه الفرضية بتكرار عرض المنتجات الجديدة بصورة جاذبة للانتباه .[٢٤]

ومـــثل تـــلك المحاولات في تكوين الرأي العام وصناعة الاتجاهات تحدث الآن في صـــياغة دلالات مفردات مسيطرة مثل "العولمة" ، وإخفاء الأصوات المناهضة التي تســـتنهض بعض الدلالات السلبية لمصطلحات سيادة الأقوياء . وربما نصل في سنة ٢٠٥٠ إلى عـــدم وجـــود أشخاص من أمثال ونستون سميث بعد أن كانت هذه

---

[23] انظر : لويس مليكة : سيكولوجية الجماعات والقيادة ، ج ١ ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٤٨ .

[24] انظر : المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

الشخصـــية كما صورها جورج أورويل في ملحق الرواية التي كتبها سنة ١٩٤٩ ضـــحية الـــلغة العقـــلية الجديدة .[٢٥] وهذا يعني أن التلاعب باللغة ، والتشبث بالامـــتيازات التي تمنحها اللغة لأصحاب السلطات المختلفة هما اللذان يجعلان من تأثيرها عوامل اضطهاد وتحييد وتضخيم وتحقير لفئات من البشر ولكثير من أفكار الإنسان التي يعاد تأويلها ، ويجعلها تتحكم في الأفكار ، وتسيّر سلوك الناس . إذن هـــي كلمات السحر التي تصنع المعجزات ، أو كما قال شاعر العربية الحديث : كلمات ليست كالكلمات ، وهذا ليس في الغزل وحده .

[25] انظر : ستيفن بنكر : الغريزة اللغوية : كيف يبدع العقل اللغة . ترجمة : حمزة المزيني . الرياض : دار المريخ ، ٢٠٠٠ ، ص٧٦.

٢ – مملكة اللغة

مـــن وجهة نظر علم اللغة الاجتماعي يسعى الدارسون غالباً إلى التفكير في النص بوصـــفه متضـــمناً في الجمل ، وليس بوصفه مكوناً منها. فأي جوانب التضمين يستطيع السامع أن يفك شفرتها بسبب كونه يشارك المنشئ في مبادئ التكوين التي تقدم مفتاح الشفرة ؟

فالـــنص وحدة دلالية ؛ إذ هي الوحدة الأساسية للإجراءات الدلالية. وفي الوقت نفســـه يمـــثل الـــنص خياراً . النص هو "الشيء المعنى"، وذلك باختياره بين كل الخيارات الموجودة التي تكوّن ما يمكن أن يكون معنياً. بكلمات أخرى : يمكن أن يُعرّف النص بوصفه إمكانات المعنى المتحققة.

هـــذه الإمكانـــات المختلفة في المعنى والتي تمثل شريطاً رأسياً من الخيارات يكون حاضراً في النظام ، ويمكن للأفراد المنتمين إلى ثقافة معينة أن يصلوا إليه في لغة تلك الـــثقافة ، يجري تحديدها بطريقتين — تبعاً للتفريق الذي أحدثه مالينوفسكي بين "ســـياق الموقـــف" و "سياق الثقافة".[٢٦] فالطريقة الأولى تبحث النسق الدلالي أو مجموعـــة الأنساق الفرعية المرتبطة بنوع محدد من المواقف أو السياق الاجتماعي ؛ أما الطريقة الثانية فتعنى بالنسق الدلالي بكامله .

وحيث يكون سياق الموقف مهماً في تبيين درجات التفاوت في المعنى الموجودة بين اســـتخدامات العبارة الواحدة في مواقف مختلفة أو سياقات اجتماعية متباينة ، فإن دور سياق الثقافة مهم جداً في تكوين الشفرة وفكها .

---

[26] انظر: B. Malinowski, The problem of meaning in primitive language. The Meaning of Meaning. Ed. by C. K. Ogden and I. V. Richards. New York & London: Harcourt Brace, Kegan Paul Trench Trubner, 1923, p. 306.

٢ – ١ نظام الرموز واللغة

يوجد في الواقع تضاد بين نظامين يتحكمان في إنتاج اللغة واستخدامها ، ولا يحس بـــه مستخدمو اللغة، كما لا يهتم به كثير من المتخصصين؛ هذان النظامان هما ما يمكن أن نسميهما : " نظام الرموز " و " نظام اللغة " .

حدثنـــي أحد الأصدقاء أن ابنه البالغ من العمر أربع سنوات يطلق على أبيه بعض الأوصاف غير المستحبة كالحيوان والكلب زاعماً أن تلك الحيوانات لطيفة وجميلة ، ويستدرك أنها لا تدل على شيء سيء ؛ فلماذا يغضب أبوه من ذلك ؟

في واقـــع الأمـــر أن استنتاج هذا الطفل سليم من الناحية المنطقية ، ويتبع إلى نظام الرموز . لكنه عند توظيفه في لغة معينة يتحول إلى نظام اللغة؛ فيتطور كلياً إلى آلية معقدة تدخل فيها العوامل المتصلة بنشاطات الإنسان مستخدم تلك اللغة ،[٢٧] مما يجعلـــه نظاماً لا تساوي محصلة عناصره ما يمكنه التوصل إليه في الاستنتاج المنطقي الموجـــود في نظام الرموز ، ولا تبقى المعادلات فيه كما هي في وضعها السابق قبل توظيف تلك العوامل المتعددة في نظام اللغة . فنظام الرموز يجعل اللغة منطقية فيما يـــتوافق مع منطق الواقع العملي ، لكن نظام اللغة يبعدها عن ذلك المنطق ويجعلها تصنع منطقاً خاصاً يسمى " **منطق اللغة** " . وهو ما يظهر جلياً في الأمثال والتعابير الاصطلاحية التي تتبع المنطق الأخير ، ولا تخضع مطلقاً للأول .

وقـــد تقدم الإنسان كثيراً في تطوير ذلك المنطق اللغوي ، حتى أصبح أحد ركائز الابتكار لدى الإنسان في كل ما يتعلق بالآلة والذكاء الصناعي . ويتوقع المنظرون للمســـتقبل أن يصل إلى مرحلة لا يوجد فيها فرق بين الإنسان والآلة؛ إذ يستطيع

---

[27] سيرد تفصيل ذلك لاحقاً في ٢ – ٢ .

الإنسان البيولوجي أن يرتقي بذكائه وطرق تفكيره بواسطة أدوات الذكاء غير البيولوجي ، كما يمكنه أن يرتقي بأساليب الآلة غير البيولوجية للوصول إلى أقرب طرق التعامل مع المنطق اللغوي لدى الإنسان ذي الطابع البيولوجي (الذي لا يخضع للمنطق الرياضي).

وقد بدأت الآلات تدخل فعلاً في دورة النشاط الإنساني بشقيه البيولوجي والاجتماعي؛ فهناك آلات أدخلت في جسم الإنسان للتغلب على بعض جوانب الضعف أو الإعاقة في الجسم ، وتصب التوقعات في مصلحة زيادة ذكاء الإنسان البيولوجي بمساعدة الآلة التي أصبح ذكاؤها الصناعي خلاقاً، بعد أن كان الإنسان هو الذي يعلمه الآلة اعتماداً على المنطق اللغوي . حيث يعتقد أن يتمكن الإنسان في عام ٢٠٣٠ بواسطة النانوبوتر (روبوتر مجهري بالغ الصغر يسير في الدم ويسبح في الدماغ) تنشيط مليارات المواقع في الدماغ؛ وعليه تكون عمليات التفكير في دماغ الإنسان تنشأ عن إجراءات بيولوجية وغير بيولوجية . كما يتوقع أن تكون أغلب عمليات التفكير في عام ٢٠٥٠ على هذا الكوكب ليست بيولوجية ، بل مرتبطة بالتفكير البيولوجي .

فهل سيؤثر هذا العقل المركب على الوعي (ذلك المكون الثقافي) ؟

ربما تكون الإجابة عن هذا السؤال من أصعب التكهنات الخاصة بالمستقبل ، لأن الآلة لا تتعامل مطلقاً مع الوعي ، ولا يمكن أن تحدد درجته، بل ويختلف العلماء حتى عند الحديث عن درجة الوعي لدى الحيوانات المتطورة . بعض العلماء يحدد الوعي بأنه القدرة على استخدام اللغة في التفكير في الذات ، لكنه تعريف عائم ؛ فهو لا يجيب عن السؤال الجوهري فيما إذا كان هذا الكائن يملك وعياً، أم أنه يتصرف فقط كما لو كان يملكه . فالأمر في غاية الصعوبة عند التفكير في الفروق بين الإنسان والحيوان ، لأن مراكزنا العصبية آلات شديدة التعقيد .

ولــو ســئل المرء عن ماهية تكوينه ، لجاءت الإجابة بأنه يتكون أساساً من مواد بيولوجيــة ، لكــن هــذه الإجابة ليست صحيحة ؛ فالمواد التي تدخل في تكوين الإنسان ليست هي نفسها تماماً قبل ما كانت عليه قبل ستة أشهر مثلاً ، فنحن نغير جزءاً كبيراً من تكويننا خلال فترة وجيزة نسبياً . فما ماهية الإنسان إذن ؟ إنه في الواقع لا يتعدى أن يكون نموذجاً من معلومات ، نموذجاً من مادة وطاقة ، تتجدد مكوناتــه الماديــة باستمرار . فهو يشبه النماذج التي تتكون في قاع المحيط ، تتغير مكوناتهــا باستمرار ، لكن الشكل واحد ؛ وهذا يقود إلى التفكير في إمكان نسخ الــنموذج وتحويلــه إلى وســائط أخرى . وعلينا أن نقبل بأن لدى الأشياء غير الــبيولوجية نوعــاً من الوعي الذي يصعب إثباته علمياً، لأننا لم نعد قادرين على الــتفريق بــين الأشــياء التي نعتقد أنها تملك وعياً والأشياء التي نعتقد أنها ليست كذلك.

ويكاد يكون أحد معاني الحياة أن يتطور الإنسان باستمرار ؛ وعملية التطور ليست سوى عمليات عقلية . وإذا راقبنا منتجات التطور خلال آلاف السنوات الماضية ، نلاحــظ أنها أذكى وأجمل وأكثر إبداعاً . فالإنسان كان أول الكائنات تمتعاً بذلك المســتوى وتطويــع التقنية ، ويعود الفضل في ذلك كله إلى اللغة . لكن الخطورة الــتالية هي توسيع قدرات الذكاء عن طريق الاندماج مع ما يصنعه الإنسان ، ومع التقــنيات المــتوفرة . وستجعل تلك الخطوة الحضارة الإنسانية أكثر ذكاء وأبهى وأكثر إبداعاً ، لكن هل يمكن للإنسان السيطرة عليها باستمرار ، خاصة إذا عرفنا أن وسيلته في القيادة هي اللغة ؟

لا أحد يشك في أن خطوات التقدم كانت متسارعة جداً ؛ فقد أصبحت الحضارة الإنســانية تضاعف تقدمها كل عشر سنوات ، وذلك بتحقيق التقدم المحسوب في ١٠٠ عــام خلال ٢٥ عاماً ، والتقدم المحسوب في ٢٠٠٠٠ عام خلال مائة عام .

وفي المقابل لا يمكن لأحد أن ينكر أن الجانب التدميري للتقنية قد تسارع هو الآخر كثيراً ، ليس فقط في موضوعات تصنيع أسلحة الدمار والتنافس في القدرة على إبادة مظاهر الحياة على كوكب الأرض ، بل أيضاً في تطورات قيم الإنتاج التي صاحبها تضخم الأنا المجتمعية والأنا الفردية في مراكز الإنتاج ، مما يوحي بزرع تلك القيم في لغات تلك المجتمعات . وهذه اللغات هي التي ستقوم بتوجيه مكونات التطور مباشرة ؛ سواء ما كان منها بشرياً خالصاً ، أو هجيناً من البشر والآلة .

٢ – ٢ علاقات اللغة بمحيط الإنسان

اللغة هي محور الارتكاز في كثير من النشاطات البشرية ، ولها ارتباط بأغلب الدوافع لدى الإنسان . ولا يمكن بأي حال حصر تلك العلاقات، ولا حصر العناصر التي تتداخل مع اللغة في تكوين الإنسان البيولوجي والنفسي والعصبي والفسيولوجي والاجتماعي والأنثروبولوجي .

ويأتي في مقدمة هذه العلاقات ما ترتبط به بعض مكونات الدماغ البشري من أنساق خاصة باللغة في جانب الإنتاج أو التلقي ؛ حيث توجد مراكز بيولوجية تعنى بهذه العمليات الحيوية ، وهو ما يصنع العلاقة الوثيقة بين اللغة والعقل التي وصفت بالتلازم ، لأن إحدى أهم عمليات العقل – وهي التفكير – لا تنفك عن اللغة ، ولا توجد اللغة دونها . كما أن إحدى مميزات الكائن البشري وهي الذاكرة مرتبطة باللغة ارتباطاً عضوياً ؛ حيث لا يستطيع الإنسان تحويل التصورات إلى أشكال رمزية إلا بواسطة اللغة .

وبعيداً عن ترديد الشعارات التي توردها جميع كتب الأديان من ارتباط الكلمة بالرب واللغة بالعبادة ؛ فإن جانباً لا يستهان به من عناصر اللغة الدلالية يتم تحويرها لخدمة معانٍ دينية ، كما أن كثيراً من الأفكار الدينية تتأثر بقوالبها اللغوية التي تصاغ فيها .

وفي علاقة تبادلية قريبة من طبيعة العلاقة السابقة لا ينكر أحد أن اللغة هي الركيزة الأولى للثقافة البشرية ، كما أن اللغة تشحن بإيحاءات كثيرة من واقع الثقافة المحلية تحملها العناصر اللغوية المفردة ، أو العناصر المساندة من حركات ذات طابع ثقافي أو إيماءات تخص أفراد المجتمع الذي يتحدث اللغة .

وللغة صلة وثيقة بالقوة ؛ تتمثل في إطارين : أحدهما أنها قوة بذاتها ، والآخر أنها وسيلة استجلاب للقوة ؛ يتحكم بواسطتها من يحسن استغلالها في مصائر كثير من أبناء المجتمع الذي يتحدثها . ففي الإطار الأول تتحكم اللغة فينا من حيث لا نعلم، ونحبها دون أن نعي أنها تخدرنا . وأشهر تطبيقات هذا النموذج لغة الشعر والنثر المدبج ؛ بينما تكون اللغة في الإطار الثاني وسيلة تحكم في أيدي البشر، وتكثر تطبيقات النموذج الثاني لكن أشهرها لغة السياسة والإعلام والغوغائيين .

وفي جانب لا يبتعد كثيراً عن القوة توجد للغة علاقة بصفات القيادة في المجتمع وتطبيقاتها ؛ فهي مصدر الإلهام والتحفيز وتأطير سلوك الجماعات وبث الروح والاقتناع بالانقياد . لكن كلمة "القيادة" نفسها أو صفة " القيادي " مشبعة بسحر لم يعد معه سحر اللغة تتضح معالمه لوصف العلاقة وصفاً موضوعياً ، لكنها في جميع الأحوال ليست القيادة السياسية فحسب ، بل كل تجمع يتبعه انجرار تكون للغة فيه نصيب .

وتنشأ علاقة أخرى بين الزمن واللغة مصدرها الأساسي كون الزمن جزءاً من الواقع الفعلي الذي تنقله اللغة . لكن عوامل أخرى من رحم المنطق اللغوي قادت

إلى جعل الزمن المنقول باللغة مختلفاً عن ذلك الزمن الفلكي الموجود في الواقع .[٢٨] وقد اختلفت اللغات البشرية في هذا المنحى ، غير أن مضمون الزمن فيها جميعاً ذو طبيعة خاصة لا يفسره إلا تحول الاستقبال الفيزيائي للزمن إلى ناتج قوامه التفسير البيولوجي لعلاقة الإنسان بمتغيرات الكون من حوله .

ولظاهرة الألوان وقع خاص لدى الإنسان بشكل عام ، وبشكل خاص لدى علماء الفلسفة وعلم النفس الذين درسوا انعكاس هذه الظاهرة في اللغة بوصفها نسقاً ينقل ظواهر الطبيعة ، وانعكاسها أيضاً في عبارات مستخدمي اللغة في المجتمعات المختلفة ، وأحياناً الجماعات المختلفة أو حتى الأفراد في الجماعة اللغوية الواحدة . وهو جانب لا يمكن الإحاطة به في دراسة لعلاقات اللغة بشكل عام ، لكنه تجدر الإشارة إلى ما يبرز من مظاهر تلك العلاقة .

ولأن اللغة وسيلة الاتصال الرئيسة بين أفراد الجماعات (حتى الجماعات غير البشرية) ، فلا بد من أنها ستكون من وظائفها المهمة نقل المشاعر ؛ حيث لا يقتصر الاتصال على نقل الخبر أو إعطاء الأمر أو الاستفهام . لكن العملية المعقدة التي تمر بها إجراءات إنتاج اللغة تجعل الإشارات اللغوية لدى الإنسان متداخلة مع الإشارات العصبية المرتبطة بالمشاعر ، هذا عدا عمليات الاستقبال التي تختلط لدى المتلقي بمكونات من المشاعر الناتجة عن حالة المراكز العصبية وقت التلقي .

وبعدما أصبحت اللغة هي وسيلة حفظ الحضارة البشرية والارتقاء بها ، ازدادت أهمية الاعتناء بافتتاح استخدامها ، وطريقة توجيه الخطاب بها، وتطوير استراتيجيات التفاعل بواسطة اللغة بين أفراد المجتمع الذي يستخدمها ، فركزت

---

[28] انظر في تلك العلاقة في اللغة العربية بشكل موسع انظر : فالح العجمي ، " نظام الصيغة في اللغة العربية " . مجلة جامعة الملك سعود (الآداب) ، المجلد الخامس (١) (١٩٩٣) ، ص ١١٤ .

دراســـات في علم اللغة الاجتماعي وعلم اجتماع اللغة على التوظيف الاجتماعي للغة وجوانب تلك العلاقة .

٢ – ٢ – ١ اللغة والعقل

عـــندما نريد الحديث عن علاقة اللغة بالعقل ، فلا بد من معرفة ماهية العقل الذي يعـــرّف دائماً بالتعريفات المراوغة ، بأنه المكان الذي يختزن قدرات الذكاء والفهم والوعـــي بالأشياء والإحساس بالذات وهو موضع صنع القرار . لكن أين يوجد ؟ وكيـــف يعمـــل ؟ وهـــل يتكون من عمليات فيزيائية خالصة تنتج عن النبضات الكهـــربائية المنطـــلقة مـــن خلية في الدماغ إلى أخرى بمساعدة أعداد كبيرة من الإفرازات الكيميائية ؟ أم هو شيء خارج التكوين الفيزيائي المجرد ؛ بمعنى أنه شيء أثيري يقترب من التصور الذهني للروح ؟

اختـــلف كـــبار المفكـــرين على مر العصور في موضوع العقل ؛ ففي حين كان أفلاطـــون مقتنعاً بأنه موجود في الرأس ، لأن الرأس كروي الشكل تقريباً انطلاقاً مـــن نظريـــته المرتبطة بأرقى الأشكال المساحية ، لم يكن أرسطو يشاطره الرأي ؛ حيث كان يصر على أن مكانه القلب .[٢٩] وكان تعليله أن الدفء يعطي الحياة ، والـــدم هـــو الذي يجلب الدفء ، وبما أن القلب هو الذي يضخ الدم ، فلا بد أن يكون هو مقر العقل .

وبالرغم من أن الاقتناع السائد منذ العصور الوسطى أصبح واضحاً ، و لم يعد أحد يفكر بما قاله أرسطو ، بل أصبحت النظريات كلها تؤكد أن مصدره الدماغ . غير أن كيفية نشأته عن الدماغ لم تتضح بعد . وفي القرن السابع عشر أعلن الفيلسوف

---

[29] وهي الفكرة التي انتشرت في الثقافة العربية .

الفرنسي رينيه ديكارت أن العقل الذي يمكن أن يوجد في الدماغ ليس شيئاً مادياً ينبع بأكمله من الأنسجة الفيزيائية الموجودة في الرأس ، وقال مقولته التي أصبحت إحدى أشهر المقولات في التاريخ " cogito, ergo sum " (ما دمت أفكر ، فأنا موجود) ؛ وفكرته كانت تتمثل في أن الوعي هو الإثبات الوحيد الأكيد على أننا موجودن فعلاً.

يبدو أن ظاهرة العقل والوعي معقدة إلى حد كبير ، وتخضع إلى الآن للدراسة العلمية التجريبية . لكن ديكارت كان محقاً في قضية مهمة ؛ هي أن العقل ليس شيئاً فيزيائياً ، وأنه يوجد ضمن الدماغ ، ولا يوجد له مكان محدد . فقد ثبت أن تدمير خلايا أي من أجزاء الدماغ يمكن أن تؤثر في العقل بطريقة أو بأخرى ، لكن دون أن تدمره .

وللعقل – إذا افترضنا أنه نظام واحد – وظائف أساسية مختلفة ، لكنها تجتمع في نسق واحد يتمثل في الاعتناء بتعامل الجسد مع المحيط الخارجي ؛ وإذا عرفنا أن جميع وظائف الجسد المتعلقة بذلك التعامل تمر دخولاً وخروجاً عبر الدماغ ، فإن العلاقة بين العقل والدماغ هي جوهر ذلك النسق . فللدماغ إشارات كهربائية تعطي إيحاءات ببعض المشاعر أو ردود الفعل وما يقابلها من تشفير في العقل ، مثل ردود الفعل الصادرة عن الدماغ في بعض الحالات الموحية بالألم ؛ وما قد يفسره العقل بأنه نوع من اللذة . وما يوجد في العقل من فهم لقيم اللطف أو المرح أو الحب ، وما يقابلها في الدماغ من إشارات قد لا تكون متطابقة معها ؛ فيكون الصراع الذي قد تنشأ عنه قرارات طائشة أو حالات مرضية . لكن المهم في ذلك كله أن دور العقل في هذا الازدواج الوظيفي هو دور المراقب والمتحكم الذي ينظم ردود فعل الدماغ ويسوّقها في الخارج ، مع أن الدماغ يخرج في بعض الحالات التي تكون ردود الفعل فيها حادة عن طوع العقل .

وإذا انطلقنا من فهم فوكو للعقل بأنه يساوي القمع ، وخاصة في الحالات التي يتجمد فيها العقل أو يتشنج أو يتخلف ، فيصبح قيداً أو سجناً رهيباً ، ومن فهم نيتشه للغة بأنها تساوي السجن ؛ لأنها تسجن المعاني الحرة ضمن نظام ترتيب معين للكلمات ، فإن العقل يقف على قدم المساواة مع اللغة . غير أن هذه المعادلة ليست سليمة دائماً ؛ فالعقل يخدم الإنسان بطريقة مختلفة عن اللغة ، وللغة حظوة متميزة عند الإنسان ، ولكل منهما عمل يتداخل مع عمل الآخر ويثريه .

فما الوظائف الدماغية المرتبطة باللغة ؟

وما حدود عمل اللغة في العقل ؟

وهل يتم الربط بين الصور (على شكل أحاسيس وتصورات) في الدماغ بشكل ميكانيكي أو كهربائي ، أم يفرض ذلك الربط من خارج الإنسان (سطوة قوة أخرى مؤثرة كالدين والثقافة) ؟

ربما يكون من الأسهل البدء بالإجابة عن السؤال الأخير ؛ فما توصل إليه علم الأعصاب الإدراكي يشير إلى وجود بؤر في الدماغ تعنى بالصور وتحليلها ، وربط كل ما له علاقة بغيره بعضها ببعض . لكن آخر الأبحاث التي أجريت في معهد روتمان للأبحاث في تورنتو بكندا [٣٠] تؤكد أن كلاً من التخيل الذهني والنظر الحسي يشتركان في الإجراءات الميكانيكية والكهربائية نفسها ، وأظهرت تجارب الأشعة المقطعية على المتطوعين أن المناطق الدماغية التي تشتغل خلال التخيل الذهني تعتمد على محتوى الصورة البصرية ؛ وهذا يعني أن أجزاء الدماغ التي تعنى بالتفكير في صورة معينة هي نفسها الأجزاء التي تعنى بمعالجة الصورة الحقيقية ، عندما ينظر الشخص نفسه إلى المنظر في الواقع الفعلي ؛ وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأنه بالنسبة إلى الدماغ ليس هناك فرق بين النظر إلى الصورة الحقيقية أو تخيلها .

---

[30] قام بها كل من Kanwisher و O'craven .

مـــا يعنيـــنا هـــنا في العلاقة بين اللغة والعقل أن العمليات التي تجري عند استدعاء الصـــور تـــتعرض لـــتأثيرات العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية والدينية التي تصـــاحب عمليات تصويرها الحسي ، مما يعني بالطبع أن الأحاسيس والتصورات الـــتي تنشـــأ عـــن الربط بين الصور المختلفة في الدماغ لا تتكون بشكل حيادي وموضوعي وطردي .

وثمة أمر لا بد من إيضاحه ، هو أن التجارب لا تنتقل إلى الإدراك بشكل آلي ؛ بل يعـــتمد انـــتقالها إليه على مقدار التمرس على التجربة في ثقافة صاحب التجربة . وعندما لا يُعبر عن تجارب متباينة بكلمات مختلفة ، فإنه يكاد يكون من المستحيل وصـــول تجـــارب المرء إلى مستوى الإدراك ؛ أي أن التجربة لا تصل إلى مستوى الإدراك ، ما لم توجد كلمة تعبر عنها في لغة صاحب التجربة .[٣١]

أمـــا الإجابـــة عن السؤال الأول ، فقد بدأت تتضح أكثر في عقد التسعينات من القـــرن العشرين الذي أطلق عليه " عصر الدماغ " ، نظراً للاهتمام العالمي الكبير بأبحاثـــه والاكتشـــافات المهمة التي عُرفت في ذلك العقد ، بالرغم من أن حلقات الكشـــف الرئيســـة الأولى عن مناطق الاشتغال باللغة في الدماغ كانت في القرن التاســـع عشر ، عندما اكتشف بيير بروكا منطقة إنتاج الكلام (Broca's area) واكتشف كارل فيرنك منطقة فهم الكلام (Wernick's area) . وتنشط منطقة فيرنك (منطقة الفهم) في دماغ الإنسان بعد ثمانية عشر شهراً من الولادة قبل نشاط مـــنطقة بـــروكا (منطقة الإنتاج) . لذلك يكون الرضيع قادراً على الفهم قبل أن يستطيع الكلام .

---

[31] انظر : إريك فروم ، " اللاوعي والمجتمع " ، ترجمة : ثائر ديب . مجلة البيان ٣٤٨ / ٣٤٩ (يوليو – أغسطس ١٩٩٩) ، ص ٢٢ .

وتبدأ وظائف الدماغ المرتبطة باللغة في نصفي الدماغ معاً ، وبدءاً من سن الخامسة تستقر في النصف الأيسر فقط لدى ٩٥ ٪ من الناس ، بينما تبقى في النصف الأيمن وظائف أخرى مرتبطة بالحركات والانفعالات المصاحبة . غير أن اللغة الأجنبية (التي تتعلم في الكبر) تعالج في منطقة مختلفة من الدماغ غير منطقة اللغة ، وهذا ربما يفسر عدم ارتفاع كفاية استقبالها أو استخدامها إلى الدرجة التي تصل إليها في اللغة الأولى .

وقد تعرف العلماء على منطقة في الجزء الأيسر من الدماغ يعتقد أنها ملتقى التحليل اللغوي ؛ إذ تلتقي في الفص المؤقت المعلومات المتعلقة بأسماء الأشياء والحيوانات والناس على سبيل المثال ، بينما تشتغل منطقة أخرى في الغلاف الأمامي بإسناد الأفعال ، وتعنى منطقة ثالثة بمهمة ربط الأسماء مع الأفعال في جمل . وتبعاً لذلك تظهر حالات الخلل الدماغي في هذه المناطق نشوء مشاكل لغوية جذرية ؛ حيث توجد صعوبات لدى بعض المرضى في استخدام الأسماء فقط أو فهمها ، ولدى آخرين تكمن الصعوبة في استيعاب الأفعال ، وفئة أخرى تستطيع إنتاج اللغة ، لكنها لا تستطيع فهمها بشكل كامل ، كما أن بعض المصابين يستطيعون الكلام بشكل طبيعي ، لكنهم غير قادرين على استخلاص دلالات مما يسمعون . [٣٢]

وبمتابعة تطبيق هذه السمات البيولوجية فسيولوجياً نجد أن بعض الأعصاب تنقل الومضات فقط في حالة كون المرء يسمي الشيء بصمت مع نفسه ، وليس في حالة القراءة . كما توجد أعصاب أخرى تنقل ومضات في حالة القراءة فقط ، وليس عند التفكير مع الذات . كما أثبتت التجارب وجود وميض عند استخدام لغة وعدم وجوده عند استخدام لغة أخرى لدى بعض ثنائيي اللغة . وفيما يشبه

---

[32] انظر : R. Carter , Maping the Mind . London : Phoenix, 2000, p. 248 .

اكتمال النسق تكون الأعصاب النشطة في حالة سماع كلمة معينة مختلفة عن الأعصاب التي تنشط عند التعبير بها .

وللإجابة عن السؤال الثاني ، يكاد يكون مستحيلاً في الوقت الحاضر أن تبين حدود عمل اللغة في العقل بشكل واضح ؛ وذلك بسبب الجهل النسبي بالعلاقة بين أطراف ثالوث التحكم في سيرورة الإنسان (الدماغ – العقل – اللغة) . لكن العلاقة بين نصفي دماغ الإنسان تعطينا بعض المؤشرات من مثل القرارات التي يتوصل إليها الإنسان عندما يقول : " أنا أحبه ، لكن لا أعرف لماذا ؟ " أو : "لا أعرف السبب ، غير أني أشعر بالخوف " . فمثل هذه العبارات توحي بأن الأمر قد استقبل في نصف الدماغ الأيمن ، ولم يُحلل في النصف الأيسر ، وكثير من الإعلانات التجارية المعتمدة على هذه الحقيقة تحاول إغواء مستقبلي الإعلان بإيهامهم بالقدرة على فض الصراع بين النصف الأيمن الانطباعي والنصف الأيسر النقدي . فهل الجهة اليمنى من الدماغ (العاطفية – غير المنطقية) هي القلب الذي يذكره العرب ؟

ومن المفارقات أن نجد إيحاءات إيجابية للألفاظ الدالة على اليمين في بعض اللغات، وإيحاءات سلبية للألفاظ الدالة على اليسار ؛ حيث يرتبط باليمين دلالات الفضل والطيبة ، وباليسار دلالات التعنت والعناد والشر . فوجدت في بعض اللغات ألفاظ مستعارة من الكلمات الدالة على اليمين واليسار للدلالة على العدل والاتزان للأولى ، وللدلالة على الفوضى والتمرد وغيرهما من السمات السلبية للثانية . [٣٣] ففي الفرنسية ارتبط لفظ gauche بالحمق ، وفي الإيطالية كانت كلمة amancino مرتبطة بالاحتيال . وفي العربية يوجد دائماً تصنيف إيجابي لأصحاب اليمين ؛ بينما يقل عنهم ، أو يخالفهم في القيمة أصحاب الشمال . كما رسخت

---

[33] وقد ارتبط بذلك أيضاً تساؤل فلسفي هو : هل استخدام اليد اليسرى فطري أم مكتسب ؟

هـــذه الدلالة في العادات الاجتماعية لدى العرب بوصفها قيمة من القيم التي يلزم الاهـــتمام بها في كل شأن من شؤونهم بدءاً بالمجلس والمأكل والمشرب والتعامل مع الآخر والطيرة وغيرها .

وقد سعى الأفلاطونيون الجدد في دراساتهم للنحو الكلي للغات البشرية – اعتماداً عـــلى كـــانط – إلى إيضاح المبادئ العامة للغة ، وهي المبادئ التي تتفق كثيراً مع مبادئ الفكر ، ولذلك كانت اللغة "مرآة العقل" كما تقول العبارة التقليدية .[٣٤]

لكـــن مشـــكلة دراسة اللغة تكمن في كون الدارسين ينطلقون من المنطق لا من العقـــل البشـــري ، مما يعني أن اللغة تبقى أسيرة هذه النظرة غير الصائبة في أغلب دراســـات اللغة . وحتى يتوافق درس اللغة مع واقعها لا بد من استردادها أولاً من ذلك الاختطاف ، وإعادة النظر إليها في إطار ما يجري استخدامها فيه ، لأن العقل معـــني بالدرجـــة الأولى باســـتخدام الـــلغة العمـــلي والمعاني المتمخضة عن ذلك الاستخدام.

٢ – ٢ – ٢ اللغة والدين

لدراســـة العلاقـــة بين اللغة والدين يلزم تحديد كل منهما بدقة ، وهو أمر في غاية الصـــعوبة . فقد عجز علماء اللغة منذ بدايات الدرس اللغوي إلى وقتنا الحاضر عن تحديـــد ماهية اللغة ، وعجز كثير من علماء الحقول العلمية الأخرى الذين اهتموا بالـــلغة لخدمة قضايا تلك العلوم من فلاسفة وعلماء نفس وعلماء اجتماع وغيرهم عن الإتيان بتعريف كاف للغة وحصر تطبيقاتها في تلك الحقول التي يشتغلون بها .

---

[34] انظر : نعام تشومسكي ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة : حمزة المزيني ، الدار البيضاء (المغرب) : دار توبقال للنشر ، ١٩٩٠ ، ص ١٢٤ .

ولا يقل الأمر صعوبة فيما يخص الدين ؛ فما هي الممارسات والعبارات والصيغ الرمزية التي تدخل في إطار الدين ؟ وماذا يحدث في الدماغ عندما نواجه حقيقة مختلفة عن تجاربنا اليومية أو أكثر تحد لنا من المعتاد ؟

نشأ في الآونة الأخيرة حقل علمي جديد هو " علم أعصاب الدين " (neuro - theology) يبحث فيه علماء النفس وعلماء الأعصاب عن الأساس البيولوجي للروحانيات (spirituality) وقد حاولوا تحديد المناطق التي تشتغل والأخرى التي تطفأ خلال تجارب روحانية يعتقد أنها توجد خارج الزمان والمكان ، وأغلب تلك التجارب ثابتة في كل الثقافات ، ويبدو أن هناك نواة مشتركة في الدماغ البشري تعنى بتغذيتها . وقد حُدد الفص الجداري (parietal lobe) بوصفه مركز الاستجابة للكلمات الدينية ، وهو موقع عند تقاطع ثلاثة فصوص ، كما تتحكم هذه المنطقة أيضاً في رد الفعل اللغوي .

وكل ما قيل عن كون الممارسة الدينية تنعكس على نشاط الدماغ ليس جديداً ؛ فكل شيء نتعرض له بدءاً من المناظر البصرية غير المعتادة إلى الأصوات المسموعة المؤثرة (لقوتها أو موسيقيتها أو جاذبيتها) وغيرها من التجارب الذهنية ذات التردد القليل تترك أثراً في الدماغ . لكن هذا لا يعني أن كل تجربة لها روابط عصبية لا توجد سوى في الدماغ ، أو أنها محض خيال في الدماغ دون وجود فعلي.

وما يسمى تجربة سماع صوت الرب له علاقة بالنشاط الكهربائي في الفص الجانبي ؛ فذلك يقوى عندما يفتقد المرء الصوت الداخلي (الصوت الخافت داخل الإنسان الذي يعرف من خلاله تكوينه الذاتي) إلى مكان ما خارج نفسه . وخلال مثل هذه التجارب تشتغل منطقة بروكا في الدماغ (المسؤولة عن إنتاج الكلام) . كثير منا يقول عن ذلك ، بأن الصوت الداخلي لديه يتكلم ، لكن واقع الحال أن المرء

أثـــناء التعـــبد أو الصلاة يخطئ في تحديد ما بداخله من أفكار على أنها من مصدر خارجي .

لكـــن رغم كل هذه الصعوبات في تحديد كل من طرفي العلاقة (ربما لالتصاقهما الشديد بمراكز المعرفة لدينا وعدم القدرة على عزلهما للنظر إليهما بحيادية تامة) ، فـــإن الدلائل الثابتة تشير إلى تنامي القدرة الذهنية لدى الإنسان على تحويل الدوال (الـــرموز اللغوية) إلى صور ترتبط بالمشاعر ، كلما اعتقد المرء بكون مصدر تلك الـــدوال مرتبطاً بالدين . بغض النظر عن كون هذه المشاعر الناتجة ولاء لأشخاص أو لرجال دين أو لوطن أو حق لأفكار مجردة ، أو رضا بواقع معاش أو موعود به أو بحالة نفسية توصل إليها نتيجة رياضة روحية معينة .

كل الدلائل المستنبطة من تجارب عملية تشير إلى أن الكلمات التي تستقبل ، وهي موضـــوعة في قـــالب ديني ، تتجه إلى إثارة المشاعر وتستدعي الصور الثابتة فيها بشكل آلي دون التمحيص في دلالاتها أو التثبت من مصداقيتها أو منطقيتها ؛ حيث لا تعالج مطلقاً في الجزء الأيسر من الدماغ (الجزء الخاص بالمعالجة المنطقية) . [35] وتلك حقيقة عرفها كثير من الساسة ورجال الدين والداعين إلى أفكار أو مذاهب جديـــدة ؛ فألبسوا كثيراً من أفكارهم لباساً دينياً ، لكي تمرق إلى الجماهير داخل هـــذا القـــالب ، وتحركهم بطريقة آلية كما يراد لها أن تفعل دون تمحيص ودون معارضة .

بدأت تلك المحاولات في التاريخ المدون – على أقل تقدير – بما أدرج من عبارات في العهـــد القديم تشير إلى تميز اليهود عن بقية الشعوب بأمر رباني ، وأن الرب هو الذي انتقى هذا الشعب ، وأعطاه خصوصيته ليكون "شعب الله المختار" ، ولتبقى الشـــعوب الأخـــرى في درجات دنيا تتفاوت فيما بينها تبعاً لقربها أو بعدها عن

---

[35] عن الفرق بين وظائف كل من النصف الأيمن والأيسر للدماغ انظر أعلاه في اللغة والعقل (٢ – ٢ – ١) .

الشـعب اليهودي ، لكن أياً منها لا يصل إلى مرتبة ذلك الشعب . فعندما أصبح هـذا التقرير ضمن رزمة ما لا يفكر فيه أصبح قبوله أمراً مفروغاً منه ، ولا يحتاج إلى إعادة نظر. وكانت دوافع إضافة مثل هذه النصوص تكوين رابطة دينية وعرقية (بسبب ارتباط الديانة اليهودية بالعرق) ينتمي إليها اليهود المشتتون آنذاك (بعد الغـزو البابـلي) بين الرافدين (لمن كان ضمن السبي البابلي) وبين بقاياهم في منطقة الغرب الفلسطيني في ذل وخضوع ؛ وليعتز اليهود بذلك الانتماء ، كان لا بد من التركيز على أنهم أفضل ممن يفوقونهم عدداً وقوة ، ويتحكمون في مصيرهم. وحـتى لا تبقى هذه الأفكار عائمة تتوسع ، وتحور فتفقد قيمتها والوظيفة المنوطة بهـا، أوجـدت كلمات محددة تشير إلى تداخل العرق مع ديانة الشعب ؛ فأصبح مصـطلح "العـبرانيين" يدل على الشعب والديانة واللغة ، بينما تدل مصطلحات أخـرى مثل "بني يسرائيل" على الوطن والمكانة الخاصة لذلك الشعب التي منحها نفسـه عـند الرب ، ومصطلح "اليهود" على وحدة الدين والثقافة . أما الشعوب الأخرى فأوجدت لهم مصطلحات متعددة أهمها "جوييم" (غير اليهودي) .

وعـندما أصـبح العهد القديم أساساً للعهد الجديد في أوربا المسيحية ، لم يستطع المسيحيون الفكاك من قوة أسر تلك الكلمات ، فقبلوها وقبلوا قصص التلمود عن نشـأة اللغات ، وكون العبرية هي لغة البشر الموحدة إلى أن حدثت كارثة بابل ، وتفـرقت الألسن ، وبقيت مع ذلك عبرية ما بعد حادثة بابل هي اللغة الأقرب إلى القداسة ، لكنها لم تعد الوحيدة . وهنا يبدأ صناع المذاهب الفكرية والدينية بنسج المخيـال الشعبي بواسطة كلمات الدين التي لا تضاهيها قوة ؛ ففي كل بلد أوربي أصـبحت لغة ذلك البلد هي اللغة الثانية في القداسة بعد العبرية ، وتوالت الوعود بـأن لغة أهل الجنة ستكون هي اللغة الشعبية في ذلك البلد ، بغرض تكوين الحس الشعبي والولاء للوطن واللغة القومية .

وفي الـــتاريخ الإســـلامي المعاصر وجدت بعض الجماعات فكرة الحقب الإسلامية الأولى مجالاً لبناء مقولات يعتقدون أنها تستمد قوتها من إيمان من يسمعها بالحقب الأولى نفســـها ؛ فأسســـوا لمقولة : "إننا نعيش الآن في العصر المكي" (وهو عصر ضـــعف المســـلمين في فترة الإسلام الأولى) ، "وسيبزغ فجر العصر المدني" إيحاءً بقـــدوم فترة اعتزاز المسلمين بأنفسهم وهويتهم ودولتهم الفتية في المدينة ، ولكن تـــلك الجماعـــات تـــريد الخلوص من هذا أيضاً إلى القناعة الضمنية بما في العبارة الأولى؛ وهـــو أن المجـــتمع الإسلامي المعاصر في غالبيته مجتمع جاهلي كافر يجب تغيـــيره، ولا حرج على أي فرد من هذه الجماعات في الخروج على قوانينه ، وقتل من يمنعهم من ذلك .

كما لم يجد أسامة بن لادن في حربه المعلنة على الولايات المتحدة الأمريكية أفضل من فكرة تقسيم العالم إلى فسطاطين ، لأن ذلك يجر من لا يمحص مقولة قيلت في قالب ديني على الانضمام إلى معسكره (فسطاطه) ، ما دام المعسكر الغربي (وهو مسيحي في مجمله) يشكل الفسطاط الآخر ، فلا مجال لغير المواجهة معه ، خاصة مع استغلاله لعبارة الرئيس الأمريكي التي ترجمت فيها الحملة الشاملة على الإرهاب "بالحملة الصليبية" على الإرهاب ، مع كل ما تعنيه تلك الكلمة من أبعاد المواجهة التاريخية بين المسيحية والإسلام . ولا يشك المحللون السياسيون لسير الأحداث في الصراع بين القاعدة والولايات المتحدة في أن مصدر قوة القاعدة هو ذلك التوظيف الـــبارع لـــلمقولات الدينية التي تدخل في مسار لا يعترضها فيه إلا الابتهاج بها ، والتـــلذذ بـــترديدها ، مما يجعلها تستولي على مجمل الدماغ ، وتجعله بكامله أيمن ، ومـــن ثم تســـيِّر تـــلك الكلمات العقل في مسار معكوس لطبيعة العلاقة بين اللغة والعقل .

ونتيجة لهذه العلاقة الخاصة بين اللغة والدين يستقبل الإنسان المتدين العبارات الدينية ، أو ما يعتقد أنه في إطار الدين – سواء في ذلك ما صدر عنه أو عن سواه – على أنه **حقيقة مطلقة** . ومن هنا تنشأ مشاكل اللغة ، لأن دلالاتها لا تفيد في تحديد المضامين ، كما أن استخدام المجتمع اللغوي الذي يحدد عادة المعنى لا يقرب شيئاً من حقيقة تلك العبارات ؛ فألفاظ تلك العبارات مقدسة لا تمس ، ومعانيها ثابتة تحفظ دون أن تناقش ، بالرغم من أن معانيها تحدد بألفاظ أخرى غير دينية من عناصر اللغة .

مثل هذا الوضع قد يكون هو الأساس في تحويل أي حوار بين الأديان إلى ما يشبه حوار الطرشان ؛ لأن كلاً من المتحاورين يريد التبشير بما عنده ، دون أن يناقش قناعاته ، ويلائم بعضها مع ما لدى الآخرين من قناعات . حتى وإن قيل بأن أصل الأديان واحد ، ومُثُلها متقاربة مع اختلاف في الكلمات والأوليات ؛ فإن **الفكر الديني** ، وهو ما تراكم على نصوص الدين (أي دين) من تفسيرات وتبريرات وإضافات ، يصبح بمثابة الدين نفسه ، ويعامله المتدينون بقدسية كبيرة دون غربلة أو إعادة نظر فيما قد يكون أضيف في مرحلة ، ولا يصلح لمرحلة أخرى ، أو فيما لم تعد تؤكده المعطيات العلمية المتوافرة .

فاللغة المستخدمة في الفكر الديني أحد مكونات الحياة الاجتماعية ؛ فهي تحمل أيضاً في طياتها موضوعات وعوالم وأذهان وعلاقات اجتماعية . والمشكلة القائمة هنا التي تشكل مصدر الخطورة أن اللغة لا تعكس الواقع ، بل تصنع عالماً وأشياء ؛ فالكلمات عن العالم ، لكنها جزء من هذا العالم . فهي تمثل وتحكي عن تصورات متراكمة نشأت خلال تاريخ الإنسان . كل هذه التداخلات تجعل من الصعب على متلقي الفكر الديني الفصل بين الدين الذي لا وجود له بمعزل عن الكلمات

وبـــين مضـــامين الكـــلمات والعبارات التي يتناقل بواسطتها الناس نصوص الدين ويفسرونه ويعيدون صياغته ، ليتلاءم مع الحياة المتغيرة .

٢ – ٢ – ٣ اللغة والثقافة

تـــتفاوت الدراســـات في وصف العلاقة بين اللغة والثقافة بين التشدد في وصفها بالعلاقـــة العضوية وبين وصفها بالعلاقة القوية ؛ ويرى المتشددون في ذلك — مثل وورف — [٣٦] أن خـــلفية النظام اللغوي في أي لغة بشرية لا تعتمد على آلية إعادة إنتاج الأفكار منطوقة ، بل هي التي تكوّن الأفكار . فتشكيل الأفكار ليست عملية مســتقلة ، بل جزء من القواعد الخاصة باللغة ، والتي تختلف بها قليلاً أو كثيراً عن قواعد لغة أخرى .

نحـــن ننظر إلى العالم ونراقبه ، لنشكل انطباعات تترتب في أذهاننا ؛ وهذا يعني أن الـــدور الأساســـي في ترتيب هذه الانطباعات يكون للأنظمة اللغوية المستقرة في أذهانـــنا . ففـــي المقـــام الأول نقوم بقطع ما نراقبه في الواقع ، ونرتبه في شكل تصـــورات ودوال تعتمد على كوننا جزءاً من اتفاق لترتيبها بتلك الطريقة ؛ وهو الاتفاق الذي ارتضته الجماعة اللغوية ، وأدرج بوصفه جزءاً من عبارات اللغة .

ومـــن تـــلك الاتجاهات ما يقول بأنه إذا كان المتكلمون بأي لغة لديهم كلمات لوصف الأشياء ؛ بينما لا توجد لدى متكلمين بلغة أخرى الكلمات نفسها ، فإن متكلمي اللغة الأولى يجدون الأمر أسهل للحديث عن تلك الأشياء . ويتضح هذا الأمـــر حـــتى في الاختصاصات المختلفة ضمن إطار اللغة الواحدة ؛ حيث يكون

---

[36] انظر : J. B. Carroll , Language , thought and reality. Selected Writings of Benjamin Lee Whorf. Cambridge , Mass. : MIT Press , 1956 , pp. 212 - 214.

التاجر (الذي يملك مفردات أكثر في هذا المجال) والطبيب (الذي يملك مفردات طبية) أقدر على الحديث عن الأمور التجارية للأول والظواهر الطبية للثاني بسهولة من غيرهما . الأمر الآخر في هذا الاتجاه ؛ أنه إذا كانت لغة ما تضع فروقاً لا تضعها لغـــة أخرى ، فإن مستخدمي اللغة الأولى يكونون أقدر على استقبال تلك الفروق في بيئتهم التي تلفت نظرهم إليه تلك الفروق اللغوية .

وبتوســيع هذه الظواهر لتشمل الأمور النحوية ، يمكن القول إن التصنيف النسقي فيما يخص النوع والعدد والزمن وغيرها دقيق ومنتشر ، وأثر هذا التصنيف أقوى في مســتخدمي الـــلغة مــن أثر الفروق في المفردات وحدها . بل إن هذه الأصناف النحوية الموجودة في لغة بعينها لا تساعد أصحاب اللغة فقط على استقبال العالم أو تصـــوره بطريقة معينة ، بل تساهم أيضاً في **تقليص دوائر الاستقبال** . فهي تعمل بوصفها غمامة على العين : فالمرء يستقبل ما تسمح به لغته ، أو ما ربّته عليه تلك الـــلغة ، أو هيأته لاستقباله ؛ فلغة المرء تتحكم في نظرته إلى العالم . لذلك يكون المتكـــلمون بـــلغات مختلفة لهم نظرات مختلفة إلى العالم . وهذا يعني أن اللغة تقدم شاشـــة أو قمعـــاً للحقيقة (لفلترة الحقيقة) ؛ فهي تحدد كيف يستقبل المتكلم ، وكيـــف ينظم العالم من حوله ، كلاً من العالم الحقيقي والعالم الاجتماعي. وتبعاً لذلـــك فهـــي ليست محايدة ، بل تذهب في طريق فرض العادات لكل من المظهر والتفكير .

ولا بد من الاعتراف أن مصطلح الثقافة الذي ندرس الآن علاقته باللغة واسع المعنى في العصـــر الحديث، وقد يكون منشأ هذه السعة بأثر من تعدد العوامل التي تشترك في تحديـــده بعـــد انتقال هذا الرمز إلى نظام اللغة . ومن أمثلة اختلاف فهم الثقافة عمـــا هـــو موجود هنا ما ورد في مقابلة تلفزيونية مع رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريـــري ؛ إذ سأله المحاور قائلاً : " بوصفي مثقفاً ... " ، فاعترض الحريري على

استبعاده من المثقفين – كما فهم من صيغة السؤال – وقال الحريري : " مرت فترة وأنــا أقــرأ كــتاباً أو كــتابين كل أسبوع " (إذاً كثرة القراءة هي الثقافة عند الحريري). واستطرد قائلاً: " كأنك تدعي أني جاهل وصاحب مال ؛ وأنت مثقف وعلى باب الله " (إذاً المثقف – عند الحريري يساوي القارئ أو العالم أو من لديه معرفة على الأقل) .

وإذا استعرضنا النص التالي الذي يدرس تحول اللغة العربية وعلاقتها بالثقافة : "ومن هــنا بــدأ التحول التدريجي لشعر الجاهلية وصدر الإسلام من كونه مادة الثقافة القوميــة (Bildungsgut) الرئيسة لشعب معين – أي العرب – الذين تعلقوا به هــذا المعيــار حين بسطوا سلطانهم على أرجاء العالم الإسلامي ، وفي كل مكان حققــوا فيه ذلك النفوذ ، ليصبح لغة الثقافة (Sprachgut) لمجتمع لم تعد السيطرة فيــه لــلعرب ، وإنمــا للغة العربية – وأعني بذلك المجتمع الإسلامي ، لذلك فقد أصبحت الدراسة اللغوية ، في هذا المجتمع ، واحدة من أشرف النشاطات الفكرية وأكثرها موضوعاً للدرس الجاد ، كما أصبح اكتساب إجادة العربية شرطاً ضرورياً لأي نشــاط فكــري " ، [٣٧] نجد أن المعنى الأول (كون اللغة ونصوصها تشكل عصــب الــثقافة) هو الذي يوافق فهمنا هنا للثقافة ؛ أما المعنى الثاني المأخوذ من مصــطلح لغة الثقافة ، فغريب جداً أن يكون للثقافة لغة ، هي بالطبع تصبغ اللغة صبغة خاصة – كما أسلفنا – في كل مجتمع وفي كل بيئة من بيئات المجتمع تكون الــلغة متأثرة بثقافة تلك البيئة ، لكن دون أن تكون صنفاً من اللغات يضاف إلى كل ثقافة .

ومما لا شك فيه أن للثقافة دوراً في ما يمكن أن نطلق عليه أنثروبولوجية الحركات المصــاحبة لــلغة . ففي الحديث النبوي : " خلقت أنا والساعة كهاتين " (وأشار

[37] دراسات في تاريخ اللغة العربية . ترجمة : حمزة المزيني . الرياض : دار الفيصل الثقافية ، ٢٠٠٠ ، ص ٣٩٢ .

بإصبعيه السبابة والوسطى) حركة مستوحاة من الثقافة المحلية للإشارة إلى الاثنين (أو الاثنتين) ، بينما يشار إلى العدد نفسه في مجتمعات أخرى بالسبابة والإبهام . وقد أصبحت الإشارة نفسها في بعض بيئات الثقافة العربية ذات دلالة أخرى توحي بالنصر ، وهي مستعارة من الثقافة الأوربية ؛ حيث ترمز إلى "V" الحرف الأول من كلمة victorie اللاتينية .

وفي التعبير عن الحركات الدالة على مبلغ الطرب نورد النص التالي : " ذكر أن رجلاً دعا المبرد بالبصرة مع جماعة ، فغنت جارية وراء ستار ، وأنشأت تقول :

وقالوا لها هذا حبيبك معرضاً　　فقالت : ألا إعراضه أيسر الخطب

فما هي إلا نظرة بتبسم　　فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فطرب من حضر إلا المبرد ، فقال له صاحب المجلس : كنت أحق الناس بالطرب ، فقالت : الجارية: دعه يامولاي ، فإنه سمعني أقول : هذا حبيبك معرضاً ، فظنني لحنت ، ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ : وهذا بعلي شيخاً ، قال : فطرب المبرد إلى أن شق ثوبه " . [٣٨] ومثلها : فضحك الوالي حتى استلقى على قفاه .

ومما يعبر عن ثقافة خاصة جداً في شبه الجزيرة الهندية تدوير الرأس عند النطق بما يفيد الموافقة خلافاً لما تعارفت عليه أغلب الثقافات ، بكون هذه الحركة مصاحبة للرفض والنفي . وفي رواية لأحد رجال الأعمال البريطانيين ذكر لي أنه اتفق مع زميل له على صفقة ، وعندما أراد منه تأكيد الاتفاق قال له: نعم ، وأخذ يدور رأسه يمنة ويسرة . فوقع البريطاني في اضطراب ، لأنه لا يعرف معنى هذه الحركة في الثقافة الهندية ؛ يقول : فقلت له : ? Is it yes or no ، فأخذ يكرر : yes ، ويعيد الحركة .

---

[38] ابن الجوزي ، الأذكياء ، بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٨ ، ص ٢٢٤ .

وفي بعض الحالات يكون لتلك الإشارات المصاحبة تأثير على دلالة الرمز في نظام اللغة . فلو نظرنا إلى عبارات المشاعر ، لوجدنا أن بعضها لا يدل على معنى محدد إلا بالنظر إلى الإشارات المصاحبة لها، وبعضها أيضاً يكون مشتركاً لفظياً أو ما يدخل تحت مفهوم الأضداد في الدراسات العربية القديمة. فمن أوصاف الإعجاب المستخدمة في اللهجات العربية المعاصرة نجد كلمات مثل "فظيع" بنغمة صوت معينة أو حركات مصاحبة ، لكن اللفظ نفسه يدل على ضد ذلك إذا صاحبته إشارات أخرى أو نغمة صوت مختلفة .

كما نجد الإشارة أثناء القراءة أو الكلام المنطوق بإصبعي السبابة والوسطى من اليدين المرفوعتين معاً تشير إلى الشكل الكتابي لعلامتي التنصيص المحيطتين ببعض الكلمات للدلالة على شك في استخدامها في هذا السياق أو ابتعاد عن تبني استخدامها ، حتى وإن لم تدل علامة التنصيص في لغة الكتابة لدى المتكلم على الشك أو البعد عن تبني دلالتها ؛ فالحركة قد استعيرت من ثقافات أوربية توجد تلك الدلالة في لغة الكتابة فيها . وذلك وضع نادر تكون اللغة المكتوبة فيه أغنى من اللغة المنطوقة .

كما أن للمصطلحات اللغوية دوراً في صنع المواقف والسلوك التي تتحول بعد فترة من الزمن إلى ثقافة. فلو نظرنا إلى مصطلحات عربية مثل : الكرم والتعايش لدى العرب قديماً ، لوجدنا أن للمصطلح الأول بريقاً لا يضاهيه فيه أي مصطلح يدل على أي من القيم العربية ، وهو ما أصبح يدفع الناس إلى التحلي بهذه الصفة أو ادعاء التحلي بها ، حتى وإن كان ذلك يتطلب الوقوع في مثالب كبيرة كالنهب والسلب من أجل الكرم ، أو التقصير في حقوق الأهل والأقربين في سبيل الاتصاف بتلك الصفة . وقد بلغ دورها حداً إيجابياً يجعل العرب يتغاضون عن تلك السيئات، إذا كان المرء كريماً — كما يقولون — وظهرت أسطورة حاتم الطائي الذي جُعل

غايـــة في الإيجابيـــة ، مع أنه – من وجهة نظر موضوعية – غاية في السلبية . أما التعايش ، وإن كان أقل بريقاً من الكرم ، إلا أنه مطلب في منطقة شحيحة الموارد وقاســـية الظـــروف مثل منطقة شبه الجزيرة العربية . وفي إطار هذه القيمة تندرج صـــفات إيجابيـــة أخرى كالتسامح والاهتمام بالآخرين وغيرهما مما يتطلبه جوار المكـــان، أو كمـــا قيل : " جميع التعايش والتناصف والتعاشر في ملء مكيال ثلثاه فطنة وثلث تغافل " .[39]

وقد استمرت هذه الثقافة ، و لم يتغير فيها بريق تلك القيمة الأولى في أغلب المناطق العـــربية إلى العصـــر الحاضـــر ؛ إذ بقي اهتمام العربي محصوراً في كيفية ملء بطن الآخـــر ، إذا أراد أن يظهر احترامه له ، أو بالأحرى إذا أراد أن يوصف بهذه الصفة المـــرتفعة القيمة . تغيرت الحاجة إلى تلك الظاهرة بعد انتهاء زمن السفر الطويل في الصحراء والبحث عمن يؤوي المسافر ويقدم له الطعام والشراب ، لكن المبالغة في تقـــديم الأكل والمشرب لم تنته بعد . أما القيمة الثانية فقد تغيرت كثيراً ، بل تكاد تكـــون قـــد اندثرت ، و لم يعد موجوداً هذه الأيام سوى التعايش مع العولمة وبين العرب وإسرائيل تعايشاً سلمياً ، وهي مفاهيم لا تمت إلى جذور المصطلح بصلة .

وعـــندما تـــتعدد المصطلحات الدالة على مفهوم واحد ، فلا يعني ذلك أنها جميعاً مـــترادفات ذات معنى واحد . فبالرغم من أن هناك رموزاً لها دلالات أكثر حيادية في نظـــام الـــلغة ، إلا أن الحيادية غير موجودة . ففي التاريخ العربي الحديث نجد مصطلحات عديدة تطلق على حروب العرب مع إسرائيل، مثل : النكسة أو حرب النكـــبة (نكـــبة حزيران) أو حرب الأيام الستة أو حرب ٦٧ ، وحرب ٧٣ أو حـــرب ٦ أكـــتوبر أو حرب الغفران ؛ ولكل منها دلالة ثقافية ترتبط بالتسمية ،

---

[39] أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب . بيروت : مؤسسة المعارف ، د. ت. ، ١ /٤٧ .

وتعبر عن أبعاد الحدث . كما يساهم البعد الاجتماعي أحياناً في اختيار أحد الأساليب دون غيره ، وهو بعد يعكس أيضاً بيئة ثقافية محددة . [٤٠]

ولا تخلو اللغة في الواقع من تدوين تاريخ متكلميها ، حتى وإن لم يكن ذلك في كتب التاريخ ؛ فثقافة الاستعلاء والمصطلحات التي يطلقها أصحاب اللغة على أنفسهم أو على الآخرين تدون تاريخاً يكون في كثير من الحالات أصدق مما يكتبه التاريخ . ففي اللغات الأوربية القديمة (خاصة اليونانية واللاتينية) نجد مصطلح "البرابرة " للدلالة على كل من سوى الأوربيين من الشعوب التي يعتقدون أنها أقل منهم حضارة ، وتتصف بالهمجية والوحشية ، وربما يكونون من أكلة لحوم البشر. وفي بعض كتب التاريخ العربي نجد الشيء نفسه — خاصة في تاريخ المسعودي — لكن هذه المرة تكون الهمجية والوحشية واستحقاق العبودية من نصيب غير العرب. وذلك كله يحدث بسبب الصورة المشوشة التي يملكها كل مجتمع عن المجتمعات المنتمية إلى ثقافات أخرى ، وكثرة الأساطير والقصص الخرافية التي تنتشر عن المجتمعات البعيدة ، خاصة إذا كانت تتمتع بحياة غريبة عن نمط المجتمعات التي تنتشر فيها تلك القصص . ومن ذلك ما يحكيه بولوم عن انتشار قصص المفردات الإسكيمية الكثيرة ذات الجذور اللغوية المختلفة للدلالة على الثلج ، وما يوازي تلك المبالغات اللغوية من إظهار لانحرافات الإسكيمو السلوكية مثل "حك الأنوف في التحية ، وإعارة الزوجات للأجانب وأكلهم لحم عجل البحر نيئاً ، ورمي الجدات لتأكلهن الدببة القطبية" . [٤١] ولا يوجد فرق بين هذه الأساطير، وما يمتلئ به تاريخ المسعودي أو غيره من المحدثين من قصص أقرب إلى الخيال منها إلى

---

[40] كما في اختيار أساليب الإتباع والتصميم والتضاد والنفي وغيرها من الأساليب ذات الخلفيات المتجذرة في ثقافة الأمة .

[41] انظر : ستيفن بنكر ، الغريزة اللغوية ، كيف يبدع العقل اللغة ، ترجمة : حمزة المزيني . الرياض : دار المريخ للنشر ، ٢٠٠٠ ؛ ص ص ٨٢ — ٨٣ .

وصف مجتمعات أخرى ومحاولة نقل ثقافاتها نقلاً أميناً ، إذا أراد المرء التصدي للتاريخ .

وفي حالات ليست قليلة يطلق المصطلح على فئة أو شعب أو أشياء عينية أخرى دون أن يكون دالاً على تلك المسميات ، لأن الكلمة سمعت في سياق حوار غير مفهوم بين الطرفين ، كما حدث مع الفئة التي أطلق عليها "اللاأدريين" بسبب إجاباتهم بكلمة "لا أدري" على بعض الأسئلة . وفي أريزونا يطلق على الهنود الحمر مصطلح "بيما" (pima) ، وهي كلمة بمعنى "لا أفهم " ، عندما وجهت إليهم بعض الأسئلة ، بينما هم يطلقون على أنفسهم "شعب النهر " . ولمثل تلك التسميات آثار سلبية على مجموعات لا تريد أن تسمى بغير اسمها ، خاصة إذا تضمن الاسم الشائع معاني سلبية . والطريف أن أشياء أخرى سارت تسميتها بالطريقة نفسها ، كما هي الحال في إطلاق اسم "كانغرو" على الحيوان الذي يعيش بكثرة في أستراليا ، وهي كلمة تعني في اللغة المحلية لأبناء البلد الأصليين "لاأفهم" ، وقد أجابوا بها عندما سألهم المستعمرون البريطانيون الأوائل عن اسم هذا الحيوان . ومن الاكتشافات الحديثة وضع رونتجن رمز إكس (X) للإشارة إلى ذلك النوع من الأشعة الذي اكتشفه ريثما تتم تسميته ، فشاع ذلك الاسم ، وأصبحت تعرف بأشعة – X ، وأحياناً تعرّب إلى الأشعة السينية (على أساس أن حرف السين في العربية يقابل حرف x في المعادلات الرياضية للتعبير عن المجهول) .

ومن الأوضاع الاجتماعية التي تؤدي إلى آثار ثقافية ذات علاقة باللغة العزلة أو الاندماج ؛ فكلما كانت المجموعة أكثر عزلة زادت استقلاليتها الثقافية ، وتميزت بالتالي لغتها عن المجموعات الأخرى . وربما تكون أكثر الظواهر وضوحاً في الثقافة العربية بهذا الشأن بيئات الرجال والنساء في المجتمع العربي ؛ إذ تتميز كل من هاتين

الفئتين بخصوصية غير موجودة في الفئة الأخرى . وكلما كان المجتمع ريفياً ، كلما ازدادت هذه الظاهرة وضوحاً ، وأصبحت الفروق أكبر بينهما .
كما تهتم اللغة بالتنظيمات الاجتماعية التي يكون التدرج فيها ذا أهمية في ثقافة المجتمع ؛ فالألفاظ الدالة على القرابة مثلاً نسق عالمي موجود في جميع اللغات ، لكن بعض كلمات القرابة والتفريعات فيها تكون مهمة في لغة دون أن تعنى بها لغة أخرى ، كما هي الحال في التفريق بين العم والخال وابن العم وابن الخال في اللغة العربية لأهمية النسب في الثقافة العربية ، بينما لا توجد في اللغات الأوربية سوى كلمة واحدة للعم والخال ، وأخرى لابن العم وابن الخال لعدم أهمية تلك الفروق في ثقافاتهم .

٢ – ٢ – ٤ اللغة والقوة

للغة قوة لا يستهان بها ، ولها سلطان على أصحابها . وهذه القوة تأتي من مصدرين؛ أحدهما التكوين النسقي للغة في نظامها الدلالي ، والآخر كونها أداة سهلة التطويع لجذب الآخرين إلى بعض الأفكار ، وجعلهم ينقادون إلى ما يريده أولئك الذين يستغلون قوتها . فهي في المجال الأول قوة بحد ذاتها ، وفي الثاني وسيلة وصول إلى القوة .
ومصدر قوة اللغة الذاتية كونها تحتوي طبقات من المعنى في كل عنصر من عناصرها؛ الطبقة الأولى ما تشير إليه الكلمات مباشرة ، أو ما يسمى الدلالة الذاتية (denotation) ، والثانية ما تتضمنه أو توحي به ، أو ما يسمى الإيحاء (connotation) . فما تدل عليه الكلمات هو المعنى المباشر ، في مثل كلمة "بيت": تكوين عازل عن البيئة الخارجية يصنعه الكائن من أجل حماية نفسه . أما ما

تتضـــمنه الكلمة أو توحي به ، فتعود إلى الظلال المرتبطة بذلك المعنى في كل من العبارات التالية : بيت الراحة، بيت الداء ، بيت الله ، بيتوتي ... وغيرها . فصفات البيت التي نعرفها من المعنى المباشر هي التي خلقت تلك المعاني المتضمنة .

والشـــعراء يعـــتمدون عـــلى المعاني المتضمنة في شعرهم ؛ فهم يستخدمون عمداً الكلمات التي تحمل طبقات من المعنى ، والقراء الواعون ينظرون تحت المعنى المباشر لتـــلك الكـــلمات ، ليصـــلوا إلى المعنى المتضمن . وهذا يساعدهم في فهم الشعر والاستمتاع به أكثر .

كمـــا يســـتخدم المعلـــنون الحاذقون وصناع الألغاز والنكت والساسة المتمكنون الطبقات نفسها في الوصول إلى مبتغاهم من إعلان ناجح ، أو لغز وأحجية مقبولة ونكـــتة مضـــحكة ، أو خطاب سياسي يتغلغل إلى نفوس الجماهير . في كل تلك السياقات تختار العبارات التي تكون معانيها المتضمنة إيجابية وسائغة لدى المستهلك في حالـــة الإعلان ، وذات حضور اجتماعي أو دلالة محظورة في العموم (كالجنس والعنصـــرية الفاضـــحة) في الألغاز والنكت ، وذات قبول لدى الجمهور ورصيد تاريخي نظيف (سواء في دلالاتها السابقة في اللغة أو استخدام ساسة آخرين لها من قبل) في الخطاب السياسي .

وفي تحليل هذه القوة الذاتية لا بد من العودة إلى أسباب وجودها في تفاعل الأفراد بواســـطة اللغة وإلى العوامل الاجتماعية في تكوين هذه القوة . بلا شك أن العامل الاجـــتماعي ليس هو المنشئ لهذه القوة، لكنه العنصر الرئيس في اختيار الشفرات المختـــلفة دون أن يتغـــلغل في تكويـــن الشفرة : اللغة تبقى نظاماً مستقلاً محاطاً بالســـرية. وهـــذا يعني أن اللغة تؤدي وظيفتها الاجتماعية ، بكون الفرد يختار من الإمكانـــات المـــتاحة في النظام . وهي تصبح بهذا الشكل مصدر قوة في المسرح

الاجتماعي ؛ تضفي بريقاً على بعض الأشياء وبعض الناس ، وتمنح قوة لبعض المواقع والأفراد .

وللكلمات أو العبارات في اللغة رحلات قد تطول أو تقصر حسب تاريخ الكلمة أو العبارة ضمن محتويات اللغة ، وتبعاً لذلك التاريخ تزداد قوتها في التأثير أو تنقص. وتتبوأ قمة القوة في التأثير والتحول الألفاظ المحظورة التي تتبع عادة أحد الأصناف التالية : ١ — الألفاظ المحرمة دينياً (حسب الدين السائد في المجتمع) ٢ — ألفاظ الجنس (أيضاً تتفاوت من مجتمع منفتح إلى محافظ ، ومن طبقة إلى أخرى داخل المجتمع الواحد) ٣ — الألفاظ غير اللائقة لأسباب سياسية أو عرقية في المجتمع . وكل الألفاظ داخل هذه الفئات قد تتضاءل قيمتها التعبيرية في فترة من تاريخها تحل مكانها ألفاظ أخرى ، أو يتسامح المجتمع في ذلك الحظر .

وهذه القيم التعبيرية هي التي تشكل البعد التاريخي لقوة اللغة ؛ فكلمات مثل "الاستعمار " أو "الرق" لاتملك في أي لغة أوربية القوة نفسها التي تملكها في لغات أفريقيا ، على سبيل المثال . وكلمات مثل " الثأر " أو " الجهاد " في الثقافة العربية والإسلامية لا يمكن ترجمتها إلى أي لغة أخرى مع قيمتها التعبيرية التي تراكمت خلال تاريخ تلك الكلمات في حياة العرب من مثل الأولى أو المسلمين من مثل الثانية . ويستفسر أنيس فريحة في سياق دراسته أثر اللغة في سلوك الناس عن أسباب كثرة الجرائم في الشرق العربي دفاعاً عن العرض والشرف كقتل الأخت والأم والزوجة ، ثم يجيب عن ذلك التساؤل بأن منشأ ذلك ناجم "عن أثر كلمات لها فعل السحر : ثأر ، شرف ، عرض مثلوم ، غسل العار بالدم ، نخوة ، وغيرها من الكلمات التي تتضمن صوراً ذهنية ومُثُلاً أخلاقية أو روحية تفرض على الناس سلوكاً معيناً . والغريب في الأمر أحياناً أن هذا الذي يقتل أخته أو زوجته أو أمه

قد يكون سيء الأخلاق ، من رواد الحشيشة ، ولكنه يفعل ما يفعله متأثراً بسحر هذه الكلمات ، ويشعر بدافع يدفعه أن يتصرف كما تملي عليه عبارات اللغة " .[٤٢]
ومن أجل تلك القيم ثارت ثائرة المسلمين عندما تحدث الرئيس الأمريكي قبيل غزو أفغانستان عن الحملة الصليبية التي ينوي القيام بها "ضد الإرهاب" بسبب كل ما تحمله تلك العبارة في الثقافة الإسلامية ، بينما لا تحمل التاريخ نفسه في الثقافة الأمريكية . عندها لم يتردد عدوه اللدود أسامة بن لادن في استغلال هذا التباين من أجل تجييش مشاعر المسلمين ضد الحملة الأمريكية .
وفي الواقع أن مجموع هذه القيم التعبيرية التي تشكل قوة اللغة تمثل في الوقت نفسه جزءاً كبيراً من ثقافة المجتمع ؛ وهو ما يسميه فوكو " منظومة الحقيقة " ، حيث يرى أن الحقيقة ليست خارج القوة، بل إنها جزء من هذا العالم ينتج بواسطة صيغ متعددة من الإكراه ، يؤدي إلى تحولات منتظمة من القوة ؛ فكل مجتمع لديه منظومة للحقيقة ، ما يشكل سياسته العامة إزاء الحقيقة . تتضمن هذه المنظومة أنواع الكلام المقبول ، والذي يصلح أن يصبح حقيقة ، كما تشتمل على الآليات التي تمكن المرء من اختيار المقولات الصائبة وتستبعد الخاطئة ، والأدوات التي يعاقب بها كل من يخالف تلك المعايير ؛ بمعنى أن مهمة هذه المنظومة إبراز ما يصلح أن يعد حقيقة إلى الوجود .[٤٣]
ولقوة اللغة علاقة بالسلوك الاستهلاكي للمجتمع المستخدم . إذ نعرف أن المجتمعات تقسم إلى مجتمعات استهلاكية وأخرى إنتاجية ؛ وهي مصطلحات فيها تعميم ، لكن المفهوم من المصطلح الأول أن المجتمع يستهلك من إنتاج غيره أكثر مما يستهلك الآخرون من إنتاجه ، وقد تتفاوت مجتمعات هذا النوع بين مجتمع لا

---

[42] أنيس فريحة ، في اللغة العربية وبعض مشكلاتها . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠ .
[43] انظر : M. Foucault , Power / Knowledge . Brighton : Harvester , 1980 , p. 131

ينتج مطلقاً ومجتمع تزداد وارداته بشكل عام عن صادراته . كما يوجد ضمن النوع الثاني ، والذي يقصد به إجمالاً الدول الصناعية ، مجتمعات تستهلك من إنتاجها وإنتاج غيرها – على مستوى الفرد – أكثر من دول صناعية أخرى . غير أن هذه الفكرة اقتصادية بحتة ؛ ما يهمنا هنا في التقسيمات داخل المجتمع الاستهلاكي نفسه ، حيث يمكن أن تكون المجتمعات استهلاكية إيجابية ؛ وهي التي تستفيد من قوة اللغة في دفع الاستهلاك من المنتجات الوطنية إلى الأعلى، وأخرى استهلاكية سلبية ؛ وهي التي تكرس قوة اللغة في دفع الاستهلاك من منتجات الآخرين إلى الأعلى . والفئة الأولى هي التي تكون ثقافتها ذات طابع قومي ، حيث تعطى الرموز المحلية معاني متضمنة عالية القيمة . ثم تستخدم تلك الرموز في مقاومة الثقافة الاستهلاكية للسلع الأجنبية ، ويتمثل هذا الجانب بشكل جلي في كل من اليابان والصين . كما تظهر أحياناً على شكل رفض لهيمنة منتجات معينة ، ويبدو هذا الجانب واضحاً في مقاومة رموز المستعمر مثل : ماكدونالدز وكوكاكولا ؛ وتوجد أشكال من هذا الرفض في الثقافة الإسلامية والعربية بإيجاد رموز تحملها منتجات يُرغب في أن تكون منافسة مثل : زمزم – كولا و مكة – كولا .

أما ثقافة الفئة الثانية فتستشعر اللذة أينما كانت ، ولا تسبغ على الرموز ذات الطابع المحلي قيمة خاصة. وأفراد هذه الفئة يحرصون على اقتناء ما يدل على مركز اجتماعي أعلى مما يشغلونه فعلاً ، وقد أصبحت مرجعية هؤلاء هي الفئة التي تستحق أن تقلَّد والتي "يطلق عليها في وسائل الإعلام الناس الحلوين (beautiful people) والشلة النفاثة (jet set) من فنانين وممثلين ومرموقين (celebrity) ورياضيين وساسة والأغنياء الحديثي النعمة من السماسرة وقابضي العمولات ...

فملابـــس كـــاردان وسيارات مرسيدس وفيديو سوني تتعدى القيمة الاستعمالية الفعلية إلى قيمة استعمالية ثانوية (cult) " .[٤٤]

أما المصدر الثاني فهو استغلال محترف استخدامها من أجل السيطرة على الآخرين كمـــا يفعـــل الأطـــباء والأخصـــائيون النفسيون والمحامون والمرشدون والمعلمون والواعظـــون وضباط الشرطة . والمبدأ نفسه يطبقه الوالدان في التعامل مع الأولاد والـــرجال في تعامـــلهم مع النساء وأفراد الطبقة العليا في تعاملهم مع أفراد الطبقة الدنيا .[٤٥]

ولـــو نظـــرنا إلى بعض العبارات التي تستخدم في سياقات مختلفة ، بل وفي بعض الأحيـــان متناقضة مثل شعار : " ارفع رأسك يا أخي العربي فقد مضى عهد الذل وانقضـــى " ، لوجدنـــا أنه قد استخدمه مؤيدو الناصرية بوصفه دليلاً على سعي الناصـــرية إلى تحريـــر المواطن العربي ؛ واستخدمه في الوقت نفسه مناوئو الناصرية بتأويل آخر : أنه يلزمك أن ترفع رأسك ليوضع حوله حبل المشنقة .

وفي مـــثل عبارات الوالدين للأولاد : " نحن أعرف بمصلحتك " تختلط قضية حب الوالديـــن لأولادهما التي لا يشك غالباً فيها أحد مع قضية المعرفة بأي أمور الأولاد أصلح ، التي تبقى موضع نظر ، تبعاً للأمور نفسها ، ومعرفة الوالدين بتلك الأمور، وخيـــارات الأولاد وقدراتهـــم ، خاصـــة إذا كان الأمر يتعلق باختيار الوظيفة أو المستقبل . لكن الوالدين في تلك الحالات يستغلون مثل هذه العبارات ذات القبول الواســـع والاســـتخدام الآلي – وعوا ذلك أم لم يعوا – لتمرير رغباتهم ، وجعل الأولاد يرضخون لذلك تحت شعار أنهم أجهل من الوالدين بالمصلحة .

---

44 خلدون النقيب ، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر : دراسة بنائية مقارنة . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩١ ، ص ٢٨٧ .

45 انظر : R. Wardhaugh , An Introduction to Sociolinguistics. Oxford : Blackwell Publishers , 1992, p. 13.

ولبعض المفاهيم سحر أخاذ ومعنى مطاط يمكن استخدامها في الشيء وضده ، وهنا تأتي براعة المستخدم في استغلال مثل هذه المرونة السلبية في اللغة . منها : "الشرق" و " الغـــرب " و "المؤامرة" و " الغزو الثقافي " ... وغيرها . ففي رأي محجوب بن ميلاد : " الشرق يعني الثقة العمياء في السلطة والخوف من مواجهة الواقع وانعدام المســـؤولية وفقدان الأمانة في الحياة الفكرية ".[٤٦] وفي آراء الغربيين يعني الشرق بلاد الأحلام وقصص ألف ليلة وليلة أو الجمود في التفكير ورفض العقلانية وإعمال الذهـــن والمكـــان الذي لا تزعجه المفاجآت ، لأنه يعيش حياة رتيبة ويتوقع قدراً محـــتوماً . لكن قد توجد بعض المفاهيم المناقضة تماماً لذلك التي تعد الشرق مكاناً تتوالد فيه السلطات بشتى أنواعها، وترتفع فيه قيم العبادة ، ويعيش فيه الناس حياة مـــنظمة (حيـــث يشكل الإبداع جزءاً من الفوضى والخروج عن التقاليد وعدم الرضوخ للقدر) .

وفي حين يسخر بعض الناس من مفاهيم مثل " الغزو الثقافي " و " المؤامرة " ، وإذا أوردها كان ذلك من أجل التندر بها ، لأنه يراها عبارات فارغة لا مضمون لها إلا في أذهان مستخدميها ؛ نجدها تحتل حيزاً كبيراً في أذهان الآخرين ، وتعني مضامين عميقة ومتعددة ، ويمكن أن تفسر كثير من مجريات الحياة والتاريخ على أساس من ذينك المفهومين ، خاصة فيما يتعلق بأهداف الغرب والتاريخ الحديث.

وبطبيعة الحال تستغل كل فئة أبعاد تلك الكلمات أو استخداماتها في زيادة الإبهام والتضليل ؛ ففي الحوارات السياسية نجد كيل الاتهامات لمن يؤمن بوجود مؤامرات أو غـــزو ثقـــافي (خاصة الثقافة الغربية) بكونه من اليساريين أو المنغلقين في فكر

---

[٤٦] انظر : يونس الخوري : التراث والحداثة ، مراجع لدراسة الفكر العربي الحاضر . بيروت : معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٤.

التطرف ، كما نجد الاتهامات المضادة لمن لا يفسر جميع الأمور بأنها مؤامرة أو غزو ثقافي بكونه ساذجاً أو متآمراً مع المتآمرين .

قد يقول قائل : هذه مواقف أخلاقية تصدر عن البشر ، ولا تخص اللغة . غير أن المتمعن في وسائل مثل تلك الهجمات والمصادرة يعرف أن قوة المصطلحات المستخدمة هي التي تمكن المتلاعب بتلك الألفاظ من السيطرة على الموقف ولفت نظر الجمهور إليه ، وهي التي تجعل الناس تتخوف من الدخول ضمن إطار تلك الاتهامات ، فيحجمون عما لا يريد من أخافهم أن يفعلوه . فتتحقق رغبات ذلك المسيطر بفعل الهالة المحيطة بعبارات اللغة .

وكما هي طبيعة البشر المتمثلة في وجود الصراع الدائم على الأشياء ، فإن صراعاً دائماً يجري أيضاً بشأن كيفية فهم الأشياء ضمن ما يمكن أن نسميه " سياسة التمثيل " . فالقوة هي أساس اللعبة هنا ؛ على أساسها يهتم الناس والجماعات والمؤسسات بتجنيد المعاني في خدمة الجانب الذي يريدون أن تفهم الأشياء في إطاره . لذا يتساءل المرء : كيف تسود بعض التفسيرات ؟ ولمصلحة من تكون تلك السيادة ؟ فقد ثبت أن التحكم في اللغة جزء مهم جداً من مصادر القوة بالرغم من وجود بعض الحدود في قدرة الناس على استغلال اللغة ، وخطورة ذلك في بعض الأحيان نظراً لميوعة المعنى وانزلاقه من قبضة مستخدم اللغة ، وإمكان استخدامه في اتجاه معاكس للحد من سيطرة صاحب القوة على اللغة .

وبسبب شدة التداخل بين القوة واللغة وكون العلاقة شديدة التعقيد ، فإن الدراسة النظرية والتحليلية تقف عاجزة عن وصف مكونات تلك العلاقة ، وهوية كل من أطرافها . بمعنى آخر : هل أصحاب القوة الذين يستغلون اللغة هم السادة ؟ أم أن لغة خاصة تفرض عليهم هي التي تتحكم في تفكيرهم وتجعلهم أسرى لها ، وتكون لها بالتالي السيادة ؟

وحيث يصعب التحكم الدقيق في اللغة وتطويعها للمصلحة ، فإن فئة قليلة هي التي تستطيع ذلك ، وتملك الدوافع والآليات التي تساعدها وتهيء لها الظروف المناسبة . فإمكانات الاختيار بين الكلمات أو العبارات المتوافرة في موقف معين هي التي تقحم جانب القوة في تحديد أي الكلمات أو العبارات يتم اختيارها ؛ حيث تعطى الحظوة في أي مجتمع للقوي ، وكذلك تسود الكلمات أو العبارات نفسها التي يختارها القوي . واللغة – أو مستخدموها – تبتكر أشكالاً تعبيرية مختلفة لوصف الأقوياء؛ فإذا بدرت منهم علامات تأدب وصفت بالتواضع ، وإذا عملوا إلى شراء الناس وصف صنيعهم بالكرم ، وإذا حضروا مناسبة فقد شرّفوا تلك المناسبة ، والآخرون تشرفوا بحضور أولئك المميزين ومقابلتهم . وفي مجال السيطرة على المواطنين يسلك السياسيون مصطلحات تصنف الناس أو الأشياء في درجات من الإيجابية أو السلبية ؛ فمصطلحات مثل " المواطن الصالح " أو " المصلحة العامة " تشكل المفاتيح السحرية لإخضاع الناس والأشياء لسيطرة من يقوم بتصنيف الأفراد والحالات ، وأخرى مثل " الخونة " أو " المخربون " أو " زعزعة الأمن " تستخدم لما تحتويه تلك الألفاظ من مضامين سلبية في وصف من يريد المصنفون التخلص منه أو ما يريدون أن ينظر إليه بصفة سلبية .

وعلى صعيد آخر ينشئ الأقوياء مجموعات ضغط تكون أفعال أفرادها وأقوالهم مجال اقتداء لدى الآخرين ، لكي يفرضوا إرادتهم على الجميع عبر عبارات ينشرها أفراد تلك الجماعات ، وتصبح بمثابة المسلمات التي تشكل ثقافة العصر لجيل ينظر إلى تلك المقولات بوصفها حقائق ، وينقلها إلى الجيل الذي يليه . وقد أثبتت هذه القوة مفعولها أيضاً في مجال الدعاية التجارية لدى تلاميذ المدارس الذين يرون في بضعة تلاميذ قدوة فيما يقولون ويفعلون .

ومما يساعد أصحاب القوة على الاستمرار في استغلال اللغة والحصول بواسطتها على مزيد من القوة أن الناس – واعين أو غير واعين – يلجأون إلى تعريف المصطلحات التي يستخدمها القوي (جعلها معرفة) ، وفي بعض الأحيان يتحدثون عن تلك الكلمات أو العبارات بوصفها من لغتهم (بإضافة ضمير المتكلم – خاصة الجمع – إلى كلمات القوي التي عرّفها بأنها من اختياره) . هل يهدف هؤلاء المستخدمون إلى وضع أنفسهم في صف القوي ، أم إلى تقليده ، أم هي العدوى في ترديد ما يسود ؟

وفي الواقع أن أكثر ضحايا ذلك الاستغلال هم المستشارون المحيطون بدائرة القوة ؛ حيث توهمهم هالة الضوء المسلطة على المركز أن عين الحقيقة تقع في ذلك المركز ، فيبدأ التماهي بين أنا المستشار وجناب المستشير إلى درجة يفقد فيها المستشارون حدود ماهيتهم ويبدأون في صياغة آرائهم انطلاقاً من الآراء التي سمعوها في الدائرة. وتزداد حدة الاختلاط كلما كان الوهج أقوى ، وكثر الأفراد المتنافسون حول دائرة القوة .

وفي حالات أقل حدة نجد تأثير عوامل القوة موجوداً في تكوين الآراء المطلوبة في مقابلات تجرى مع أناس معروفين أو غير معروفين ؛ حيث تتبنى في الغالب وجهة نظر الجهة التي تطلب المقابلة أو تجامل في أحيان أخرى . وتوجد بالطبع استثناءات تتمثل في كون المطلوب للمقابلة ذا مركز قوي يمكنه من قول رأيه دون خوف من هيمنة وسيلة الإعلام ، أو كونه صاحب قضية لا يبالي بهيمنة أي من مراكز القوة ، ويفضل أن يقول رأيه حتى لو لم ينشر . ومن أمثلة ما تتحقق به السيادة في وسائل الإعلام مقولات منها : " وجرت مناقشات بين الحكومة والعقلاء من المتظاهرين (أو من المواطنين) " .

٢ – ٢ – ٥ اللغة والقيادة

ما القيادة ؟ أو مم تتكون القيادة ؟

الإجابة المعتادة هي أن القادة لديهم مركز اهتمام ونظرة شاملة ، فلا بد أن تصبح القيادة مكونة من هذين الجانبين . وبشيء من التفصيل يمكن أن نستعرض صفات القيادة التي تتمثل في :

١ – الموهبة والمهارة في توظيف أذكى الناس ، واستشارة أصحاب أفضل العقول النيرة

٢ – تحدي الأوضاع الراهنة ، مع الدراية التامة بوقت ظهور المخاطرة ، وكيفية تفاديها

٣ – هي بناء مختلط من الذكاء والإبداع والثقة

٤ – معرفة زمن ادعاء الفضل ، وزمن تقاسم النتائج الإيجابية مع الآخرين .

وخلف كل هذه المهارات الفطرية والمكتسبة تقبع القدرة على استخدام اللغة بوصفها أداة يمكن أن تشكل سلوك الآخرين ، أو تتحكم فيه .

قال مارك توين مرة : " يا إلهي ! أي عضو هو الكلام البشري ، إذا وُظف لدى خبير به " ، بعد أن سمع تقديماً من خطيب في عصره . وهذا التوظيف يعتمد على عاملين ؛ أحدهما له ثلاثة جوانب ترتبط بقضية التواصل هي اختيار العناصر (الكلمات) ، وتركيب بعضها مع بعض ، ونطقها . فحسب هذه العمليات الثلاث يكون لتلك الكلمات القدرة على التوضيح والتأثير والإقناع والتحفيز والإلهام . والعامل الآخر هو الطريقة التي يعبر بها المتحدث عن نفسه ، حيث يكون لها تأثير في صورته ونجاحه على المدى الطويل . بكلمات أخرى : إذا لم تستطع سماع صوت القيادة فيك ، فإن إمكان القيادة لديك سيكون محدوداً .

ولتحقيق أعلى درجات الاستفادة من إمكانات توظيف اللغة في القيادة ، لا بد من التنقل بين طريقتين من طرق الكلام في لغة القيادة ؛ الأولى الكلام من المركز – وهو أسلوب تقليدي في الغالب – عندما يحتاج الناس إلى أن يكونوا في مركز الأشياء ، حيث يميل القياديون إلى إدارة النقاش ، وصنع الأقوال الإخبارية ، والكلام بادعاء السلطة ، لأنهم حينذاك يجادلون بادعاء السعي إلى راحة الآخرين الذين يعتنقون الآراء المعارضة . والثانية الكلام من الطرف – وهو أسلوب براجماتي – عندما تتضح الأمور في مساراتها الرئيسة ، فيسعى القيادي إلى جني الأرباح ، أو تقليص الخسائر . وأفضل القياديين في التواصل هو من يستطيع الاستعارة من المركز ومن الطرف .

سواء كان الجمهور واحداً أو مائة ، فإن لغة القادة الناجحين تحتوي خمس خصال تجعلها مؤثرة ، وتبلغ مداها في تسهيل القيادة كلما تكاملت في لغة الشخص القيادي . وتلك السمات هي :

١ – بداية قوية : جملة الافتتاح تكون قوية ودقيقة يوجه فيها المتكلم اهتمام الفئة المعنية بالخطاب إلى الموضوع الذي يريد أن يوليه أفراد هذه الفئة عنايتهم دون الدخول في تفصيلاته ؛ إذ لا بد أن يكون الافتتاح قصيراً ومركزاً على مجمل القضية حتى لا تتشتت أذهان متابعيه .

وبالطبع لا بد من أن يصاحب تلك البداية مؤثرات جانبية خارجة عن الموضوع ، كأن يسبق بإرهاصات تجعل تقبل الموضوع والحديث عنه مرغوباً فيه ، أو أن ترافق عمليات التلفظ حركات جسمانية وإيماءات لفظية تجعل تفكير أفراد تلك الفئة في موضوع آخر أو طريقة أخرى لاستعراض الموضوع أمراً مستبعداً . وجميع تلك المهارات يستطيع الشخص القيادي القيام بها بسهولة .

٢ – رسالة واضحة : يخبرك القادة بالنقطة الأساسية ، ويعطونك اتجاهاً ، ويطلبون فعلاً معيناً . فجوهر الرسالة المؤثرة يتطلب ألا تكون هناك خيارات أخرى ، أو على الأقل لا تكون تلك الخيارات بمستوى ما يطرح في صلب هذه الرسالة المدعمة بالإثباتات والوقائع ، ثم تستعرض فيها الأدلة الموصلة إلى براهين قاطعة حسب متوسط مستوى التفكير بين أفراد المجموعة المستهدفة .

وفي الغالب يستشعر الشخص القيادي العبارات المرغوب استخدامها سواء في تقديم الرسالة أو في استعراض الأدلة ، لذا فهو يتجنب بعض الألفاظ التي تؤدي إلى نفور لدى بعض أفراد مجموعة التلقي، أو تستشعر من خلالها تلك المجموعة أن ذلك الشخص يسعى لمصلحته الشخصية . ففي كثير من الحالات يلجأ القياديون إلى استخدام ضمائر جمع المتكلمين في الحديث عما يقومون به ، وينطلقون من مقولات شائعة يعرفون مدى انتشارها لدى المتلقين ، حتى يخلقوا أرضية لتقبل مضمون الرسالة .

٣ – عدم التجريد : فالرسالة القوية دون عناصر محددة تدعمها تعد رسالة مفلسة؛ فالقادة مثل المحامين في المحكمة يقدمون قضية ويلزمهم الإثبات ، وعليهم أن يقدموا الأمثلة لتدعم الفعل . ولا يخفى دور البساطة واستخدام الألفاظ الدالة على أشياء ملموسة في إثراء عناصر الإثبات . وعادة يؤدي التوغل في استخدام الألفاظ الدالة على أشياء مجردة أو على أشياء يكتنفها الغموض بسبب تعدد المعنى أو ضبابيته إلى توقف أغلب المتلقين عن متابعة الحديث ، مما يسبب فجوات في التلقي قد يلجأ الجمهور فيها إلى ملئها بعناصر أخرى لا يرغب الشخص القيادي في وجودها في أذهان جمهوره، مع أنها في بعض الحالات تعطي صورة مثالية عن قدرة ذلك الشخص على ما لا يستطيعون هم إدراكه .

٤ – لغــة عاديــة : يتكــلم القادة لغة عادية في خطاهم ، وإذا استخدم المدراء المتوسطون لغة الصفوة فهم يريدون لفت الانتباه إلى أنهم متعلمون ، وممن يستحق مكانة أعلى . ودون أن ندخل في تفصيلات المواقف والآراء في قضية اللغة العادية عــند أصحاب مدرسة أكسفورد والمناوئين لها ، نعرّف اللغة العادية بأنها لغة الحياة اليوميــة التي يشترك في استخدامها أغلب الناس المنتمين إلى ثقافة تلك اللغة. وهي أيضــاً مستوى يخلو من المصطلحات المتخصصة التي تستخدمها فئة طبقية أو مهنية معينة .

ويــزعم مــناوئو استخدام اللغة العادية أن الحجج التي يلجأ فيها إلى اللغة العادية تــنطوي في الغــالب على لبس وغموض [47] خلافاً للمستويات الأعلى من اللغة العاديــة ، لكن تلك المزاعم تتعلق بحالات فردية تعود إلى ضعف المستخدم وعدم قدرته على تحاشي مواضع الغموض . وفي أغلب الحالات لا يقع الشخص القيادي في تــلك المــزالق بحكــم معرفته للفئة التي يتعامل معها وطريقة تفكير أفرادها ؛ فمعرفــته للجمهور المتلقي تساهم كثيراً في تمكنه من عدم الوقوع فيما قد يشكل اضطراباً في المعنى أو تشتتاً في اتجاه التفكير .

وفي اختــبار لمــدى قدرة القيادي على الإمساك بزمام اللغة العادية يبرز التحدي الأكــبر في العبارات التي تتضمن مستوى المعرفة والتقدير وتوقع الأحداث والتعبير عن المشاعر والآراء ؛ حيث تتطلب مثل تلك العبارات مهارة كبيرة في الانطلاق مما يعــرفه الآخرون وتكون لديهم القدرة على فهمه ، وليس مما يعرفه هو ويتبناه من تلك الأنماط في آرائه الخاصة .

٥ – الــنهاية القويــة : للنقطة النهائية دور مهم في لغة القادة . والقادة في العادة معــلمون كــبار ؛ فالدرس يأتي دائماً في بداية ما يريدون قوله ، ثم تعود خلاصة

---

[47] انظر : محمد مهران رشوان : دراسات في فلسفة اللغة . القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٣ .

الـــدرس في الـــنهاية . فهم يعطونك شيئاً تذهب به . وغالباً يحثون عن الشيء الإيجابي ، ليذكروه لك في النهاية ، ويبقى عالقاً في الذهن .
وليـــس الأمر سهلاً في الفصل بين ما يفترض أن يكون في بداية الحديث وما يكون في نهايته ، لأنه في كلتا الحالتين إيجاز لما يستعرض في جوهر الخطاب . لكنه في هذا الجزء يكون مشحوناً بعناصر الإحالة لما استقر في الذهن من الطرح السابق للنهاية وتأكيداً على ما أثبت صحته وصلاحيته ليكون اتجاهاً لأفراد تلك المجموعة وتذكيراً بمـــا يـــلزمهم أن يفعلوه للإبقاء على تلك الأهداف المستخلصة من الرسالة نصب أعينهم ، وذلك من أجل أن يبقى عملهم في الإطار الذي يرغب فيه .

التأطير في لغة القادة

مصـــطلح "الإطار" في علم النفس الإدراكي يعني الأبنية الشمولية المرتبطة بموضوع معـــين ، ويقابلها "القالب" في علم اللغة الإدراكي ، ووظيفة القوالب ترتكز على تخصيص إضافي في ترتيب العناصر التي تتبع بعضها بعضاً . وكل قالب يشكل نسقاً جـــزئياً في الشبكة الدلالية لدى مستخدم اللغة عندما يكون في موقف من مواقف الحيـــاة الـــتي تتطلب التعامل باللغة ، ويتحدد هذا النسق بناء على معرفة الشخص بالـــلغة وخبراته السابقة . وتوجد بين عناصر كل قالب روابط توحدها تتمثل في تصورات عن الأشياء والحالات والوقائع والأحداث المتعلقة بسياق هذا القالب .
ويكـــون للقوالب دور حاسم في توزيع المعلومات المفردة إلى مجموعات ودمجها إلى وحدات ذاكرة شاملة تخزن في الدماغ بوصفها أساس تلك الأشياء الحقيقية المرتبطة بالقـــالب المعني ؛ لذلك يكون القالب أساساً لفهم نصوص اللغة وترتبط بالقوالب المشكلة لدى كل شخص مواقف توقعية يستدعيها المرء كلما استعد لتلقي نصوص مرتـــبطة بموضـــوعات هـــذه القوالب . والمعروف أن السامع (أو القارئ في حالة النصـــوص المكـــتوبة) يتلقى المعلومات التي تشكل أهمية للقوالب المخزنة لديه من

قبل. وهذه المعلومات تدمج بعدئذ في قالب معين ، وتستمر معالجة معنى المعلومة فقط دون شكلها الصوتي أو الكتابي ."[48]

ومهمة الشخص القيادي فيما نسميه هنا بالتأطير هي صنع الأطر المناسبة لقوالب الفهم ، لكي يتم تخزين القوالب التي تناسب توجيه القيادي في أذهان الفئة التي يريد التحكم في أفكارها وطريقة فهمها للمعلومات التي تتلقاها . ومن أجل ذلك يكون التحكم والتأثير داخل أدمغة الأشخاص المسيطر عليهم ، دون أن يعوا أنهم واقعون تحت سيطرة صانع الأطر .

وللتأطير هنا دلالة محددة هي كونه "طريقة إدارة المعنى" . فالقادة لا يستطيعون التحكم في الأحداث، لكنهم يستطيعون التأثير في كيفية النظر إلى الأحداث وكيفية فهمها ؛ فتأطير موضوع معين يعني أن يختار معنى محدداً أو مجموعة من المعاني دون الأخرى . وفي التأطير – عندما نصنع ميلاً نحو تفسير معين لموضوعنا – نستبعد الجوانب الأخرى ، بما فيها تلك التي يمكن أن تنتج تفسيرات معارضة أو مغايرة لما أردناه . وقد أظهرت التجارب كيف أن طريقة التأطير تساعد في الوصول إلى الهدف ، عندما توضع الأطر الصحيحة في مكانها ؛ فيكون السلوك الصحيح هو الذي يتبع بشكل طبيعي .

والقادة يجيبون في العادة عن التساؤلات السببية أو الأسئلة الافتراضية التي تحتوي "لماذا" ، ويقدمونها للناس ، لأن الناس يرغبون في معرفة سبب فعل القادة تلك الأشياء . وهم غالباً يجيبون عن تلك التساؤلات قبل أن يسألهم الناس عنها ؛ لذلك يأخذ الناس هذه التعليلات بوصفها إطاراً للأسباب الموضوعية ، وتشكل فيما بعد اتجاهاً لفهم الأشياء والتعامل مع الأحداث .

---

[48] انظر : فولفجانج هاينه من & ديتر فيهفيجر : مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة : فالح العجمي . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٩٩٩ ؛ ص ص ٨٥ – ٨٦ .

٢ – ٢ – ٦ اللغة والزمن

نتـــيجة لكون اللغة حقيقة اجتماعية ، والزمن قضية اجتماعية ، فإن العلاقة بينهما وثيقة ، لكنها معقدة جداً . فمفهوم الزمن فلسفي ، وله أبعاد فكرية يختلف الأفراد في تلقيها وتصنيفها ؛ ومن جانب آخر يوجد في اللغة نفسها أنساق داخلية ترتبط بالزمن الذي وضعه الإنسان في الواقع الفعلي بمساعدة اللغة (دون اللغة لا يمكن أن يوجد تفكير) ، ولكن تلك الأنساق تختلف – للمفارقة – عن الدوال اللغوية التي تشير إلى مفهوم الزمن في الواقع الفعلي .

والمعـــروف أن الأنساق الاجتماعية جميعها معقدة التركيب ، واللغة ليست استثناء مـــن ذلـــك ، بـــل الأسوأ من ذلك أن تلك الأنساق في تغير مستمر وتطور دائم يلاحقان تحدي جوانب الحياة الأخرى. ومن أجل فهم التعقيد في أي نسق ، لا بد من التجريد لاستنباط بعض الأحكام العامة التي تقود إلى الإحاطة الشاملة بجوانب النظام اللغوي خارج الزمن وخارج السياق .

وهنا لا بد من طرح سؤالين هامين جداً هما :

هل للغة نظام ثابت خارج الزمن ؟

وماذا تعني عبارة " أن اللغة باستمرار في إطار التغير " ؟

هذان السؤالان هما تقريباً جوهر نسقي اللغة اللذين تحدث عنهما كتاب "محاضرات في الألســـنية " لفرديناند دي سوسير . وفيما يخص الإجابة عن السؤال الثاني ، لم تكـــن هـــناك مشكلة في استخلاص دي سوسير دراسات النصف الثاني من القرن التاسع عشر فيما سماه " النسق التاريخي " ، وهو النظام الذي يدرس في إطار الزمن ومـــن خلاله ، ويمكن تعريف اللغة في ظل هذا النظام بأنها ظاهرة محددة اجتماعياً وتاريخيـــاً . غير أن إجابة كتاب دي سوسير على السؤال الأول هي المشكلة ؛ إذ

أجاب عنه دي سوسير بالإيجاب ، وهو ما يعني أن اللغة نظام مستقل خارج الزمن وخـــارج سياقها الاجتماعي التاريخي .[٤٩] وهذا المفهوم عن اللغة هو الذي ساد الـــدرس الـــلغوي وانتشر منذ صدور كتاب دي سوسير، الذي يبدو أنه قد فُهم خطـــأ، أو على الأقل لم توضح هذه النقاط المتناقضة فيه بشكل جيد ، خاصة أن دي سوســـير لم يراجع محاضراته بنفسه ، بل طبعت ونشرت بتوليفة من مذكرات تلاميذه .

هـــذا لا يعـــني بالطبع رفض مثل هذا الإجراء ، فهو مقبول من حيث المبدأ ، لكن النتيجة هي الخطأ ؛ فاللغة يجب أن ينظر إليها بوصفها نسقاً اجتماعياً في تفاعل مع أنساق اجتماعية أخرى في تطور دائم في إطار الزمن . وذلك يجعل التناقض النظري في ذلك الطرح يختفي : نستطيع أن نقول بأن اللغة في نقطة معينة ذات استقلالية ، لكـــنها فـــيما يخـــص الزمن والاستخدام تتداخل بشكل كامل مع كل الأنساق الاجتماعية الأخرى التي تؤثر في اللغة .

وعـــند التفكير في اللغة توجد أنواع مختلفة من الأزمنة تكون تطبيقاتها أيضاً بطرق مختلفة ؛ ففي لغة مثل العربية حدثت تطورات كثيرة ، حيث لا يمكن أن تكون لغة امـــرئ القيـــس هي لغة البحتري ، ولا يمكن أن تكون لغة أحد إصدارات الأزهر مقاربـــة لـــلغة إحدى المجلات أو الجرائد السيارة ، لكن الأزمنة المختلفة تؤدي إلى تغيرات مختلفة المقدار من زمن إلى آخر حسب تواتر العوامل الأخرى التي تؤدي إلى تسارع التطور أو تأخيره .

وقـــد أصـــبح مصطلح الزمن يدل على أشياء مختلفة تماماً : الزمن الفلكي والزمن الـــتذكري وزمـــن الـــتلفظ لدى شخص آخر . ونجد اللغات البشرية جميعها قد

---

[49] انظر : فرديناند دي سوسير : محاضرات في الألسنية العامة . ترجمة : يوسف غازي و مجيد النصر . جونية (لبنان) : دار نعمان للثقافة ، ١٩٨٤ ، ص ص ١١٧ – ١١٨ .

استغلت النوعين الأخيرين لبناء النظام الزمني الداخلي لكل منها مع تفاوت بينها في ذلك ، تبعاً للحاجة إلى بعض الأصناف ، أو مدى تلاؤم بعض عناصر الزمن دون بعضها الآخر مع نظام اللغة الكلي .

ولـــو نظـــرنا إلى ذلك البناء في اللغة العربية ، لوجدنا أن عناصر تحديد الزمن فيها تنقســـم إلى فـــئات ثلاث أحس متكلمو هذه اللغة فطرياً بحاجة البناء إليها . الفئة الأولى هي ألفاظ الزمن الفلكي التي أطلقت اللغة فيها دوال على مفاهيم للمتغيرات التي لاحظها الإنسان في الكون من حوله ؛ وبإدخال أي لفظ من هذه الألفاظ إلى عـــبارة مســـتخدمة تضاف إلى تلك العبارة القيمة الزمنية التي يحويها مدلول هذا العنصر الزمني المستخدم ، أو يضاف إليها تحديد نقطة زمنية مرجعية ثابتة في أذهان الناس . وبالطبع لا يمكن أن تكون جميع هذه الألفاظ على درجة واحدة من الدقة سواء في تحديد القيمة الزمنية التي تحتويها ، أو الإحالة المرجعية التي تشير إليها ؛ إذ إن لفظاً مثل " دوماً " أو " أبداً " لا يمكن أن يتساوى في تحديده مع " ذات مساء" أو " يومـــاً " ، لكـــنها في أغلب الأحيان محددة بدلالاتها المعجمية وما يستقر في الأذهان . والفئة الثانية هي ألفاظ الزمن السياقي ، وتختلف عن الفئة الأولى بكون دلالاتها الزمنية غير مستقاة من المعجم ، وليست واضحة الدلالة في بعض الأحيان، عـــندما تكون الظروف المتصلة بنشأة النص غير معروفة . فألفاظ هذه الفئة تعتمد على سياق سابق في استنتاج الزمن الذي تدل عليه . لكنها ترد أصلاً في تراكيب ، قـــد لا يكون الهدف من التعبير بها الإتيان بزمن محدد ، بل التعبير عن توافق أزمنة الأحداث في عبارات نص متتالية . وربما يكون أحد أهداف هذا الاستخدام الربط بـــين عبارات النص ؛ فيستخدم الزمن ، وهو من عوامل الربط ، وسيلة لتماسك الـــنص ، دون أن يكـــون الـــتزامن نفسه هدفاً . ولهذه الفئة في العربية شكلان ؛ أحدهمـــا الإتيـــان برابط مثل " قبل " أو " بعد " قبل اللفظ المراد إدخاله في الزمن

السياقي ، والشكل الآخر بناء مستقل يتضمن دلالته الزمنية في بنائه الصرفي . وهو أقــل وروداً مــن الشكل الأول ، خاصة في العربية الحديثة، أما الفئة الثالثة فهي الألفــاظ التوزيعية التي تقوم بدور وظيفي مختلف كلياً عن دور الفئتين الأوليين ، وإن كـــانت أقل وروداً . وربما تكون وظيفة الألفاظ الزمنية هذه قد انتقلت إليها مــن تراكيب العدد التي تستخدم فيها بكثرة في العربية وغيرها من اللغات السامية القديمــة . وتــتكون تــراكيب هذه الفئة في العربية القديمة من بعض ألفاظ الزمن الفلكي متوالية (غالباً لفظين فقط) ومنتهية بالفتحة أو ما يقابلها (صباحَ مساءَ – ليــلَ نهــارَ ... إلخ) . وتــتوزع الدلالة الزمنية للألفاظ المتوالية على مضمون العبارة، مما يعني تكرار الحدث أو وجود الحالة في كل من الأزمنة المذكورة ، دون وجــود أداة تقوم بذلك الدور المتمثل في اختصار تكرار العبارة كل مرة مع أحد ألفــاظ الــزمن الفلكي بواسطة ذكرها متتابعة . أما في العربية الحديثة ، فقد غلب استخدام الأداة ، وهي في الغالب " كل " قبل ألفاظ الزمن .[٥٠]

وبالــنظر إلى اللغة العربية فيما يخص السؤال الثاني الذي سبقت الإجابة عنه نجدها كغيرهــا مــن اللغات تعرضت لتغيرات كثيرة بوصفها لغة طبيعية ، لكن المشكلة تكمــن في تدوين تاريخها ؛ إذ أغفل مؤرخوها في الغالب عامل الزمن تماماً ، ولم يراعوا علاقة اللغة بالمجتمع ، وأنها ظاهرة اجتماعية تتغير بتغير الزمان ، بل خضعوا لســلطان النحاة الذين قرروا حصر العربية فيما قبل منتصف القرن الثاني الهجري ، وهــي الفــترة التي يعتقدون أنها قد حدثت بعدها تحولات كبيرة تسببت في فساد الألسن (أو اللحن) . وتلك الفترة التاريخية بالذات هي الفترة التي تعرض المجتمع المســتخدم لــلغة العربية فيها إلى تحولات اجتماعية كبيرة نتج عنها نشاط العامل الحضــاري المــؤدي إلى تطــورات كبيرة أيضاً بحجم التحولات وبحجم حاجات

---

[٥٠] انظر : فالح العجمي : أسس اللغة العربية الفصحى . الرياض : مطابع الحميضي ، ٢٠٠١ ، ص ص ١١٣ – ١١٦ .

الاتصال الناشئة عنها . و لم تتوقف جهود النحاة العرب السلبية عند هذا الحد فيما يخــص علاقـــة الـــلغة بالزمن ؛ بل سعوا في محاولاتهم لتصوير اللغة بوصفها كائناً مـــتكاملاً بديع الصنعة إلى خلق التماثل بين كثير من ظواهر اللغة ، لكي يثبتوا أنها ليســت عبـــثية ، بـــل موضوعة بعناية وبالتالي ليست قابلة للتخريب أو التشويه (بالـــلحن أو أي تغيـــير عما هو مقبول لديهم) ، كما سعوا إلى ربط أنظمتها — نظـــرياً — بأنظمة الكون من حولهم ، لاعتقادهم بأن منشئها ومنشئ تلك الأنظمة واحد ، فلا بد أن يخلق في كل تلك المكونات تناغم نسقي . ومن هنا وجدنا فيما يخص هذه العلاقة (بين اللغة والزمن) أنهم قد ساووا بين ما يجري في الكون وبين واقـــع المتكـــلم في البيئة اللغوية . لذا أجروا كل تقسيمات الزمن الفلكي على ما تتضمنه اللغة من مفاهيم تتعلق بالزمن ، وتتأثر بالمنطق اللغوي ، الذي لا يمكن أن يكون متطابقاً مع المنطق الفلسفي ، ولا مع المنطق اللغوي في لغة أخرى . فوجدنا استخدام مصطلحات مثل " الماضي " و " المضارع " للدلالة على ألفاظ الأحداث في اللغة ، وهي مستقاة من الواقع العملي ذي الآليات المختلفة عن آليات اللغة .[51]

ومن نتائج تلك المقولات التي أصبحت قرآناً للدرس اللغوي لدى العرب أن حكم عـــلى اللغة بالموت ، لأن أي لغة حية لا بد أن تخضع لقوانين التطور التي تتضمن تغـــيراً مع الزمن ومع تغير المجتمع الذي يتبعه تغير في حاجاته يتطلب تغيراً في أدواته الـــلغوية . هذا لا يعني بأن اللغة العربية قد خضعت لهذا الحكم تماماً ، بل تمردت بعـــض أشكالها المنطوقة والمكتوبة على ذلك الحجر ، مما أبقاها قابلة للحياة . ومن نـــتائج التصـــور المثالي للغة الذي لم تنقضه سوى آراء هنا وهناك أن استمر ذلك التقســـيم الرياضي للغة إلى عبارة زمانها كذا ، وأخرى زمانها ذاك ، دون النظر إلى

[51] انظر : فايع الصعصي : أبعاد العربية : دراسة في فقه اللغة العربية وتاريخ تطورها وعلاقاتها ببقية اللغات السامية . الرياض : مطابع الناشر العربي ، ١٩٩٤ ، ص ص ١٠٩ — ١١٠ .

عوامـــل الزمن اللغوي التي يمكن العودة إليها في بعض مظانها من الدراسات الخاصة بذلك الشأن .

وقـــد تداخـــلت مفاهيم الزمن في المنطق اللغوي مع بعض الأنساق في اللغة ، حتى أصـــبحت تجـــسد بعض الأصناف اللغوية من خلال فروق دقيقة تفصل بين تلك الأصـــناف في كل نسق . بل وبلغ هذا التداخل حداً في بعض اللغات أنشأت فيه الـــلغة أنســـاقاً مشتركة بين الزمن وكل من تلك الأنساق ، وأصبحت مثل تلك الأنساق المشتركة موطرة معجمياً ، كما هي الحال في أنماط طبيعة المعنى في اللغات الاسكندنافية ، أو نظام الصيغة في اللغة اللاتينية ، أو الصيغ المركبة والمحولة في كل اللغات السامية .

كمـــا أصـــبح الزمن عاملاً مهماً في بناء الجمل المركبة في جميع اللغات ؛ فإذا كان وجـــود عناصر الزمن مهماً في العبارات البسيطة بوصفها نقلاً لما يوجد في الواقع ، فـــإن وجود التناسب بين العبارات المختلفة التي تشكل الجمل المركبة أساس لفهم العلاقـــات بـــين تـــلك العبارات كالتوافق والتعاقب والتوالي وغيرها من المفاهيم الفلسفية التي أصبحت تفرق بين ما يعرف بأساليب الطلب أو الشرط أو الأساليب الزمـــنية الخالصة التي يكون للزمن وعبارات التناسب بين جزئياتها الدور الرئيس في فهم عباراتها .

٢ – ٢ – ٧ اللغة واللون

قـــد يظـــن المرء لأول وهلة أن قضية الألوان من القضايا الفيزيائية الصرفة ، وأن ميـــتافيزيقيا الـــلغة فيها من الأمور السطحية السهلة ، التي تخلو من التجريد ، وأن

فـــرص الـــتفاوت فيها قليلة بين بيئة وأخرى أو بين فرد وآخر أو بين حالة نفسية وأخرى .

معـــرفة الألوان في الطبيعة من الأشياء البدهية التي واجهت الإنسان منذ وجوده ، وتكونـــت لديه ثقافات متوارثة في التمييز بين الأشياء التي ينعكس منها الضوء إلى عيـــنيه ، ثم تفسرها مراكز الإبصار بتلك المفاهيم التي حاول أن يصنفها ويوجد لها مصـــطلحات في الـــلغة ، حسب الحاجة إليها . فمن المؤكد أن لون السماء وهي صـــافية يختلف عن لونها وهي ملبدة بالغيوم ، ولون البحر يختلف عن لون الجبل ، وغير ذلك من مكونات الطبيعة . كما وجدت ألوان مركبة في الطبيعة لدى بعض الكائنات الصغيرة والبحرية ، لكن أشهر تلك الألوان المدمجة في الطبيعة ما يوجد في " قوس قزح " الذي تتحلل فيه حزمة الضوء المنبثق من الشمس إلى مكوناتها الأولية بعد اختراقها أثير الماء في الفضاء . وقد لاحظت المجتمعات البشرية تلك الظاهرة ، وأوجـــدت غالباً لها مصطلحات تدل على الألوان التي تظهر في تلك الحالة . وهي حســـب طول الموجات (من الأقصر إلى الأطول) : البنفسجي والنيلي والأزرق والفيروزي والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر . لكن هل أوجدت اللغة العربية هـــذه المصـــطلحات جميعها للدلالة على هذه الألوان التي يراها المرء كل مرة عند تكـــوّن تـــلك الظاهرة ؟ أو هل وجدت جميعها في فترات اللغة العربية المختلفة ؟ والســـؤالان نفســـاهما يمكن أن يطرحا فيما يخص وجود تلك المصطلحات في كل ثقافة أو بيئة لغوية خاصة مكانياً أو زمانياً .

يستطيع الإنسان بيولوجياً أن يميز ما يقارب ٥٠٠٠٠٠ لون فقط ؛ وأغلبها ألوان لا توجد كلمات تدل عليها في أي لغة بشرية . وقد يميل المرء مع الاتجاه القائل إن الإنســـان يرى من الألوان ما تعلمه فقط ؛ فالرؤى عن الألوان تكون دائماً مرتبطة

بالـثقافة المحلية . ومن أجل ذلك تصعب ترجمة المصطلحات الدالة على الألوان من لغة إلى أخرى دون تقديم الفروق المتغيرة في المعنى .

وقد أصبحنا نعرف اليوم أن الألوان لم تعد فقط وسيلة لصنع البهجة في عالمنا ، بل أصبحت مجالاً لسلسلة من العلوم الدقيقة العملية مثل الفيزياء وعلم الأنسجة وعلم النفس والكيمياء والأحياء ، و لم تعد قاصرة على دراسة الفن . ومما يجدر ذكره أن تصور اللون له التعقيد نفسه الذي يوجد في تحديد الألوان ومصطلحاتها .

فاللون ليس من القضايا السهلة ؛ فمعنى مصطلح اللون يعد واحداً من أسوأ مواضع الاضطراب في تاريخ العلوم . فإذا استخدم المرء مصطلحاً من مصطلحات الألوان لـلدلالة على نسيج المادة في البيئة ، فهو لم يقل شيئاً عن سلم استقبال الألوان في أذهانـنا . لـذا يفرق العلماء في هذا المجال بين حقيقة النسيج وحقيقة السلم المعني باسـتقبال ذلك وصنع الأثر المطلوب ؛ يعتمد ذلك السلم على عوامل متعددة منها طبيعة سطح المادة والإضاءة وتقابل الأشياء والمعرفة المسبقة وغيرها . [٥٢]

وتوجـد في جميع اللغات مصطلحات للدلالة على الألوان الأساسية والتي يشترط فيها غالباً أن تتكون من كلمة واحدة (باستبعاد الأزرق الفاتح أو الأخضر الداكن عـلى سبيل المثال) ، وألا تكون خاصة بفئة معينة من الأشياء ، مثل كلمة blond في الإنجـليزية الـتي تـدل بشكل حصري على لون الشعر أو الخشب ، أو كلمة "حـنطي " في العربية للدلالة على لون البشرة فقط ، وكلمتي "مغاتير" و "مجاهيم" للدلالة على ألوان الإبل ، وكلمات مثل " فيراني " و " حليبي " و " رملي " للدلالة عـلى ألـوان السيارات . ومن الابتكار في وصف ألوان السيارات ما لاحظته في إعلان لبيع إحدى السيارات يقول: " لكزس للبيع – اللون عظمي ... " (جريدة

---

[52] انظر : U. Eco , How culture conditions the colours we see . The Communication Theory Reader . Ed. by Paul Cobley . London & New York : Routledge , 1996 , p. 148.

الرياض ٢٠٠١/١١/١٦ ، ص ١٨) ؛ لا أدري في الواقع إن كان يعني أبيض ، أم أن للعظم لوناً آخر .

وقد حصرت تلك الألوان الرئيسة في سبعة في بعض الأدبيات هي : الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والبني . الغريب في الأمر أن هذا الرقم السحري (السبعة) قد وضع أيضاً أساساً لألوان أعلام الدول ، وهي الألوان الستة الأولى مع إضافة اللون البرتقالي بدلاً من البني . وتتسع دائرة هذه المصطلحات الأساسية ، لتضاف إليها أربعة ألوان أخرى تعد فرعية هي : الرمادي والوردي والبرتقالي والأرجواني . وتوجد مصطلحات لهذه الألوان الأحد عشر في المجتمعات المتقدمة تقنياً ، بينما تقل المصطلحات الدالة على الألوان عن ذلك لدى جماعات أقل تطوراً ؛ فيقال إن الرومان لم يكونوا يميزون بين الأزرق والأخضر . كما استخدم المصريون القدماء الأزرق في رسوماتهم ، لكنه لم يوجد مصطلح يدل عليه في لغتهم .[53] وهو ما تؤكده الحكاية التي تقول : إن العامل يعرف مائة كلمة ، ورئيسه يعرف ألف كلمة – هذا هو سبب كونه الرئيس ؛ فإذا عرفنا كلمات أكثر ، نكون أقدر على تصور تنظيمات أكثر دقة في المحتوى .

كما تنشط خلايا هذا الحقل بواسطة تركيب أكثر من كلمة في وصف لون معين بشكل أكثر دقة (وهي المصطلحات التي استبعدت من الألوان الأساسية) ، مثل greyish brown في اللغة الإنجليزية . أما العربية فلا تعرف هذه الأبنية المركبة ، وإذا أراد المستخدم العربي وصف شيء لا يعرف لفظاً يدل على لونه أنشأ مصطلحاً جديداً بصياغة بناء النسبة إلى لفظ يدل على شيء له اللون نفسه أو يقاربه مثل : زيتوني (برتقالي + أخضر) أو خمري (قرمزي + برتقالي) .

---

[53] انظر : المرجع نفسه ، ص ١٤٩ ؛

كما تنشط تلك الخلايا أيضاً بواسطة الوصف الذي يسبق لفظ اللون مثل : fire engine red ، وهذه الأبنية من خصائص اللغات التي تسمح بالكلمات المركبة .
كمـــا توجد تصنيفات يفضلها مصنعو الطلاء ومواد التجميل ؛ ويعود مصدر هذه التصـــنيفات إلى كـــون قـــدرة العين على تمييز الألوان أكبر مما تصنفه الكلمات ، فدرجة حمرة الدم تختلف عن درجة حمرة الوردة وزرقة السماء غير زرقة البحر ... الخ .
إذا كانت الألوان في الطبيعة واحدة ، ومصادر الضوء في الكون واحدة ، فما الذي يجعـــل مصطلحات الألوان تتفاوت كثيراً في الثقافات المختلفة ؟ في حقيقة الأمر أن الألـــوان تتـــبع نسق للعلامات ، أما الكلمات فتتبع أنساق اللغة ؛ فإذا كان نسق علامـــات الألـــوان معقداً بسبب تضاد حقيقة النسيج مع حقيقة سلم الاستقبال ، وهـــو ما يشكل معضلة اجتماعية ، فإن فلترة هذه المعضلة تكون بواسطة اللغة التي لا تقل إشكالاً وخصوصية .
ففي اللغة وهي القمع الذي تمر منه تلك المفاهيم المضطربة أصلاً يوجد تحيز وأفكار مسبقة ، لذلك أصبحت هناك دوائر في كل لغة للمصطلحات التي تدل على نسق العلامـــات ، وأخـــرى للمصـــطلحات الـــتي تدل عليها بعد الأدلجة (نسبة إلى إيديولوجية اللغة) . وبنظرة إلى مصادر تسمية الألوان نجد أن بعضها قد اشتق من المصطلحات الدالة على الأحجار الثمينة ، دون أن تكون تلك الدلالات قد نقلت مـــن حقيقة إلى مجاز ، لأنها لا تطلق على تلك الأحجار نفسها (فلا أحد يقول : لـــدي زمـــردة زمردية) . ومثل هذه المصطلحات لا تطلق إلا على أشياء يعدها الإنسان إيجابية ، حيث أدلجت تلك المصطلحات في دائرة اللغة . كما نجد الأدلجة نفسها عند مصممي الموضة أو مهندسي الديكور . حيث يطلقون " ألوان ربيعية " على ملابس الموضة الصيفية للدلالة على التفتح والجاذبية ، ومصطلحات " الألوان

المعتقة " و " الألوان الكلاسيكية " على التنظيم المنزلي بألوان أساسية داكنة من أجل إدخال الأبهة والقيمة العالية إلى ذلك التنظيم ، وهو نوع من الأدلجة .

والمتتبع لحياة المجتمعات البشرية يلاحظ أن البشر لا يتكلمون عن الألوان فقط ، بل يتحدثون بالألوان أيضاً ؛ أي أنهم يستخدمون الألوان بوصفها وسائل في نظام سيميائي موازٍ لنظام اللغة الذي تكون قوامه الكلمات : في كثير من المهن والطبقات الاجتماعية وحتى في بعض دوائر الفئات العلمية يربط بين الألوان بوصفها ألواناً وبين دلالات خاصة أصبحت في بعض البيئات بمثابة الثقافة الاجتماعية . فهناك علاقة بين اللون والمهنة أو الشخصية : الرياضي يفضل اللون الأحمر والمثقف الأزرق والمغرور الأصفر والمرح البرتقالي والفنان الأرجواني ورجال المرور الأخضر المزرق وأوساط الناس الألوان البسيطة .[٥٤] كما أن اللون الأصفر (رمز الطاقة وضوء الشمس) كان للطبقة العليا والأذكياء ، ثم تحول إلى رمز للاحتقار والسخرية وبنات الليل في العصور الوسطى ولليهود . أما العرب فقد ارتبطوا باللون الأسود مقابل اللون الأحمر للرومان واللون الأصفر للصينيين .[٥٥]

وقد ربط العلماء أيضاً بين الألوان ومزاج الإنسان ؛ فأشاروا إلى أن الأحمر يكون مصدراً للطاقة والعاطفة ، والأصفر للنشاط والإبداع والأزرق للهدوء والاسترخاء. وقد انطبعت كل تلك الدلالات المختلفة في اللغة على شكل ظلال تحملها الكلمات الدالة على الألوان .

أما فيما يخص توزيع الألوان في فئات المجتمع وإعطائها دلالات تخص النوازع النفسية والانطباع والدين ، فقد وجدت باستمرار محاولات واعية أو غير واعية لجعل بعض الألوان تخص الذكور ، وأخرى تخص الإناث ، وفي الفن التشكيلي

---

[54] انظر : أحمد مختار عمر : اللغة واللون ، ط ٢ ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٧ ، ص ١٣٤ .

[55] وفي بعض الحالات يستخدم " الأسود " للدلالة على العربي و "الأحمر " للدلالة على غير العربي . وفي التراث العربي القديم تستخدم عبارة " الأسود والأحمر " للدلالة على جميع البشر .

وجـــدت في كل حقبة ألوان معينة تفرض على الأعمال الفنية في تلك الحقبة ، ثم ينطـــلق الجمهور المتلقي من وجود تلك الألوان في الحكم على العمل الفني . وفي الجاذبيـــة الجنسية – وربما يكون أساس بعضها من تجارب غرام أو تجارب جنسية محـــددة – ينطـــلق كثير من الناس من قناعة ذاتية بأن ألواناً معينة في الجنس الآخر (الشـــعر والبشـــرة والعينين) هي مصدر الجاذبية ، وترتبط في وقت لاحق تلك القناعات بدلالات تلك الكلمات في اللغة إذا وصف بها شخص معين . وفي بعض الحـــالات تكون تلك الصفات معايير ثقافية – اجتماعية تنتشر بين أفراد المجتمع ، ويعـــتقد بعض الأفراد أنه قد اختار تلك المعايير بنفسه . كما تستخدم الألوان في كثير من الأديان في الإشارة إلى دلالات طبقية ، وفي الوقت نفسه تستخدم الألوان في الإشارة إلى أديان أو مذاهب محددة أو إلى طقوس دينية بعينها .

ويمكـــن أن تعد المجالات التالية هي أكثر الحقول استخداماً للألوان بوصفها نظاماً ســـيميائياً مســـتقلاً : إشـــارات الطرق وإشارات المرور وأعلام الدول . وبما أن المجموعتين الأوليين تدخلان في إطار بصري تنظيمي عالمي يندر فيه التفاوت الثقافي والـــلغوي ، فإن المجموعة الأخيرة ، الرايات الوطنية ، هي التي سنركز عليها لما لها مـــن خصوصية ثقافية في كل لغة وارتباط بلغة الألوان . وفي جميع الرايات الوطنية تغـــلب عمـــلية التصـــنيف على التمييز ، ويكون للألوان فيها قيمة رمزية عالية ، وتختـــلف دلالة اللون الواحد في كل بلد عنها في بلد آخر ؛ فنجد اللون الأحمر ، على سبيل المثال ، يرمز إلى الإقدام والدم والشجاعة في بعض البلدان (أفغانستان ، النمســـا ، إيطاليا ، بلغاريا ، بوروندي ، تشيلي ، الإكوادور ... إلخ) ، لكنه يمثل الحيوانات في بوليفيا ، والإيمان في إثيوبيا ، والتراب في داهومي . والأبيض ، بشـــكل عـــام تقريباً ، يشير إلى السلام والأمل والنقاء ، غير أن الأمل في الكونغو يرمز إليه باللون الأزرق الذي يشير في أغلب البلدان إلى السماء أو البحر أو الأنهار . فألوان

الـــرايات الوطنية ليست ألواناً بمعنى النسيج الفيزيائي ؛ بل تعبيرات ترتبط بالوحدة الثقافية ، وهذا ما يجعلها تصنيفية بدرجة كبيرة . [٥٦]

قـــد تكون المشكلة ناشئة من أن نظام الألوان ليس نسقياً من الداخل ، بمعنى أنه لا يـــتعرف بحـــدود مـــن داخله باستخدام صفات محددة ، بل من خلال نفي الآخر والتضـــاد معـــه . وهذا يشكك في وجود وحدات الألوان ؛ إذ لا توجد وحدات دون نظام ، وهو — بالمناسبة — واحد من مجالات استخدام اللغة الاستفزازية .

٢ – ٢ – ٨ اللغة والمشاعر

حصـــول المشاعر عند الإنسان عملية بيولوجية تتم في إطار تفاعل الإنسان مع بيئته والظروف المحيطة به. واللغة في أحد أدوارها تشكل جزءاً من بيئة الإنسان التي تؤثر فيـــه وتكـــون سبباً في نشوء بعض المشاعر لديه ، وتعد في هذا الجانب من أفضل الوســـائل للتعبير عن المشاعر . وحيث إن اللغة اللفظية لا تنفك عما يصاحبها من حركات وتعبيرات يصدرها الإنسان بواسطة أعضاء جسمه الأخرى ، فإنه سينظر إلى التعبير عن المشاعر في إطار هذين المنحيين .

التعبير اللفظي والمشاعر

كمـــا يقـــال في أبجديـــات الدرس اللغوي وفي كثير من تعريفات اللغة بأنها أهم الوســـائل عـــلى الإطـــلاق في نقل المشاعر ، بل وفي تعريف الإنسان بأنه كائن اجـــتماعي لا يقتصر تعريف تلك الكينونة على الحاجة إلى التعاون في أمور الحياة

---

[56] انظر : U. Eco , How culture conditions , p. 168 .

الأساسية ، لكن أيضاً في شعوره بالحاجة إلى الانتماء والحماية والرعاية في كل حالة ؛ وكل تلك مشاعر تستهلك كثيراً من عبارات أي لغة بشرية .

وعبارات الإنسان المختصة بالمشاعر ليست من الأقوال المرجعية (التي تفهم في إطار فهم الوظائف الاتصالية الضيق) ، لكن التعبير اللفظي عن الجوع مثلاً أو الحب أو الرغبة الجنسية هو تعبير عن حاجة ، ونستطيع التأكيد على أنها بأجمعها موطرة اجتماعياً . فالتعبير عن أي من هذه المشاعر ينطلق فيه المتكلم من وضع يجد نفسه فيه بمفرده (مثل الجوع) أو مع غيره (مثل الحب أو الرغبة الجنسية) مضطراً للإفصاح عن تلك المشاعر من جهة ، لكنها تخرج بطريقة أو بأخرى (طلب أو سؤال أو إلحاح أو إخبار) حسب ما تمليه المعايير الاجتماعية ، أو ما يمكن أن يبقى في إطار المقبول من جهة أخرى . فالظرف الطارئ نفسه والفرقاء المشتركون في ذلك الاتصال هي عوامل شكل القول وأسلوبه ؛ لكن الطبقات العميقة في بنائه تنشأ عن علاقاته القائمة مع المحيط الاجتماعي الذي يتواصل معه باستمرار .

بطبيعة الحال تختلف وسائل التعبير من شخص إلى آخر في الحدة والصراحة والأدب وغيرها من السلالم التي يضعها المجتمع ، كما تختلف حسب الرسائل اللغوية الإخبارية الأخرى التي يريد من يعبر عن مشاعره أن يضمنها في تلك العبارة . غير أن تعبيرات اللغة المرتبطة بالمشاعر يمكن أن تدرج في أربعة أصناف هي :

١ — عبارات الإحساس بالذات

هي العبارات التي لا تصدر عن منشئها نتيجة مهارات اكتسبها أو معرفة طارئة ، بل يكون مصدرها شعور بأنه ينبغي عليه أن يتحدث بهذه الطريقة ؛ وأحد هذه المشاعر هو الإحساس بالخصوصية الجنسية (ما يدرسه علم اللغة الاجتماعي تحت مصطلح genderlect) . وتوجد أشكال متعددة لطرق الحديث واختيار الصيغ التي تعد حاسمة في تحقيق مستوى مرغوب من التفاعل ؛ حيث يتحدث الرجل في

كـــثير مـــن الحالات من واقع إحساسه برجولته ، وتتحدث المرأة انطلاقاً من واقع إحساسها بأنوثتها أو لأن المجتمع يرغب في ذلك منها ، وتوصى تبعاً لذلك باختيار نـــوع من العبارات وطريقة في الحديث . وقد ثبت أن المرأة تستخدم في الحالات الطبيعية الظروف النمطية (مثل : جداً و كثيراً) أكثر من الرجل . كما يهتم علم اللغة الاجتماعي بظواهر أخرى في هذا المجال مثل التحول في النبر أثناء سير المحادثة وعمـــليات التنغـــيم المختلفة والرسائل الاجتماعية المتباينة عند اختلاف الجمهور المتـــلقي للرســـالة . [٣٧] غـــير أن الإحساس بالخصوصية الجنسية ليس هو المصدر الوحيـــد، فقـــد تنشأ العبارة من إحساس بالخصوصية العرقية أو المهنية أو الصحية وغيرها .

٢ – عبارات الإحساس بالموقع

يعتقد بعض الدارسين أن أي حديث يتكلم به قائله من موقع معين ، وبالتالي يتولد عند المتحدث هذا الإحساس في كل موقف . لكن الظواهر الأكثر وضوحاً في هذا الشأن أنه توجد مواقع تفرض على المتكلم اتباع طريقة في الكلام محددة سلفاً ثقافياً أو اجتماعياً ، أو استخدام قوالب ذات طابع نمطي لمن هو في ذلك الموقع أو تعرض لموقف مشابه . وتنشأ بهذه الحال مع الزمن في كل لغة عبارات مليئة بالعواطف أو تثير العواطف ، وتستخدم كلما أراد المتحدث تقمص دور الرئيس أو الضعيف أو المضطهد أو المريض أو المظلوم وغيرها من الأدوار .

والســـؤال المرتبط بهذه الظاهرة : من الذي يتكلم عندما نتحدث ؟ هل المجتمع هو الـــذي يصـــدر هـــذه العبارات جاهزة عندما تخرج من أفواهنا ؟ (أي أنه يتكلم بواسطة كل فرد منها) بكلام آخر : يصعب وضع الحدود بين ما هو شخصي وما

---

[37] انظر : M. Wetherell , Themes in discourse research: The case of Diana. Discourse Theory and Practice. Ed. M. Wetherell, S. Taylor and S. Yates. London : Sage , 2001 , p. 20 .

هـــو جمـــاعي أو ثقافي . ^٥٨^ لماذا يصعب رد المتسول في المجتمعات المحافظة حينما يقـــول: " أعطوني ! الله يعطيكم ! " أو : " حسنة لله ! " ، فيصبح معها أقوى ممن يطـــلب منه ؟ هل المجتمع هو الذي فرض هذه العبارات وفرض احترامها ؟ أم أن المواقـــع والمواقف المرتبطة بهذه المقولات هي التي توحي بتلك الهيبة ؟ لا شك أن جـــزءاً مـــن مهارة استخدام هذه المقولات فردي ، ولهذا ينجح متسول أكثر من آخـــر، لكن الثابت أنها عبارات موطرة ثقافياً (أو اجتماعياً) بالدرجة الأولى ، ثم فردياً بالدرجة الثانية .

٣ – عبارات المبادرة

قد تكون هذه الفئة أقل وروداً من النوعين السابقين ، لكنها ترد في مواقف يكون صاحب العبارة راغباً في إنشاء شعور الرضا لدى الآخرين . وتتفاوت بين مقولات عامة ترضي كل أحد وعبارات أو إيماءات مصاحبة للعبارات يقصد بها أحد بعينه . وفي حـــين لا يحـــتاج النوع الأول إلى تمثيل ، فإن من أمثلة النوع الثاني ما لاحظته عند ابني نزار من إصدار أصوات مصاحبة للتعبير عن لذة الطعام بغرض إسعاد أمه أحياناً ، أو إيجاد جو من المرح يتغلب فيه على صعوبات بعض المواقف التي يتعرض فيها إلى تأنيب .

٤ – عبارات ردود الأفعال

هي العبارات التي تصدر عن متحدث يعبر بها عن الشعور المتولد لديه نتيجة سماعه بعض العبارات في أثناء الحديث ؛ ويكون بعضها ذا طابع بنيوي كامل ، ويعبر عن مشاعر الإنسان المختلفة من سرور وغضب وامتعاض وتقزز ودهشة وغيرها . أما بعضـــها الآخر فيحتوي كليشات جاهزة لا دور للفرد المستخدم في صياغتها ، بل تكـــون في كل من ألفاظها ونبرها وحركاتها المصاحبة من صناعة المجتمع أو الطبقة

---

^٥٨^ انظر : المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

التي ينتمي إليها مستخدم تلك العبارة أو يريد الانتماء إليها . ومن تلك العبارات ما يقال عند الرغبة في إظهار الاستهتار والاستهانة بما يقال : " إيه هيّن ! " ، وفي لغة الشباب والمراهقين : "مسوّي فيها ... ! " .

لغة الجسم والمشاعر

كما أن للتعبير اللفظي دلالات ، فإن التعبير بأحد أعضاء الجسم الأخرى (غير اللسان) له دلالات أيضاً محددة اجتماعياً ، وتصنعها الظروف التي تجعل الإنسان يعبر عن مشاعره بتلك الطريقة . ويُعتقد أن ما يقارب ٥٠ ٪ من المعلومات عن المتكلم (شخصيته ومصداقيته وغيرهما) يمكن أخذها – غالباً دون وعي – من لغة الجسم ؛ ويتبع هذه اللغة كل من حركات الأطراف وتعبيرات الوجه والمشي وهيئة الجسم والمسافة (بين المتكلم والسامع) وحركات الأرجل . ويدخل في إطار لغة الجسم هنا كل من التعبير بها أو تفسيرها لدى المتلقي ، إذا كانت تعبيراً عن مشاعر أو إثارة لمشاعر .

ومن الأمثلة الكلاسيكية في لغة الجسم احمرار بشرة الوجه عند الشعور بالخجل واتساع أو ضيق حدقة العينين عند الشعور بالاضطراب نتيجة الإدلاء بمعلومات كاذبة ، مما يجعل المرء غير مستقر ، وتتغير طريقة الكلام (إطالة الجمل والتفصيل في الإيضاح والتعليل) من أجل سد ما يشعر به من خلل لعدم قول الحقيقة .

ويمكن أن نستعرض جانبين تناولهما دراسات البلاغة الحركية بكثرة ؛ هما : حركات الثقة وحركات المسافة (بين طرفي الاتصال) . فالثقة تتمثل في حركات يمكن أن نترجمها إلى تعابير لفظية :

استرخاء الساقين أحدهما على الآخر = أنا راضٍ

فتح الفم قليلاً = أنا جاهز للإجابة حالاً

وقوف حر باسترخاء = متأكد من سلامة وضعي

ثني القدم أحياناً = أشعر بالتفوق
حركة الذراعين إلى الخارج = أشعر بالتفوق (في حالة الجلوس) ، وأعلم أني في وضع مريح ، أو سأدافع عن نفسي بأي ثمن
يد مفتوحة فارغة = أنا جاهز للإنجاز ، وأشعر بالثقة .
وعدم الثقة تتمثل في حركات منها :
التصاق الذراعين بالصدر = أشعر بالتهديد ، وأجمع نفسي (أريد أن أحافظ على نفسي)
التصاق الساقين = لا أشعر بالثقة ، وأجمع نفسي (لئلا أتعثر)
سحب الملابس = أحس بعدم الثقة (أو الإحراج)
الإصبع على الفم = غير راض عن نفسي
نظرة غير ثابتة (غالباً إلى الأسفل) = حائر فيما يجب علي أن أفعله الآن
قفل الفم مع رفع زواياه إلى الأعلى = أشعر بالهزيمة ، فأنا أتجرعها
الكلام بصوت حاد نصف مرتفع = لا أحس بالحاجة إلى الكلام ، فقولي سيُفهم خطأ .

أمـــا حركات المسافة فينشأ تفسيرها من شعور الإنسان بأن له حيزاً يجب أن يبقى مـــلكاً له ؛ فـــيحس بمشاعر التعدي عليه ، إذا تجاوز أحد المسافة التي يقدرها هو لازمة للفصل بينه وبين الآخرين ، مع اختلاف في طول تلك المسافة حسب العلاقة الـــتي تربطه بكل طرف . وقد وضع سلم يحدد الدرجات الدنيا والعليا لمسافة كل علاقة بشكل عام في المجتمعات الحديثة كما في الجدول التالي : [٥٩]

---

[59] انظر : G. I. Nierenberg , Wer sieht , kann erkennen . Bern & Muenchen : Scherz Verlag , 1972 , p. 25

نوع العلاقة	المسافة	
	قريب	بعيد
حميمة	الملامسة	٢٠ — ٦٠ سم
شخصية	٦٠ — ٩٠ سم	٩٠ — ١٥٠ سم
اجتماعية	١,٥ — ٢,٥ م	٢,٥ — ٤ م
عامة	٤ — ٨ م	فوق ٨ م

ويمكن وضع بعض حركات الجسم ودلالاتها في غير حركات الثقة والمسافة ضمن تقابلات كالتالي :

تداخل اليدين = في وضع دفاعي ؛ في غاية التوتر ؛ يائس

تجميع قبضة اليدين = عازم ؛ غاضب ، مستثار (غالباً في الجيب أو خلف الظهر) (وهو نادر لدى النساء)

حك راحة اليدين = توقع شيء إيجابي ؛ رضا عن النفس ؛ اهتمام بالمشاركة

تشبيك اليدين خلف الرأس (مع الاستناد إلى الخلف) = ثقة بالنفس (سيد الموقف) (غالباً يصاحبها وضع الساقين أحدهما فوق الآخر) ؛ شديد التركيز

راحتا اليدين مثبتتان على الظهر (مترافقة مع انحناء الذقن) = استلام السلطة (لدى النساء : بضمهما إلى أعلى وانخفاض العينين = مترددة ، خجولة ، مداعبة)

اليد في الجيب = ثقة بالنفس

اللعب بالعملة = منشغل بالمال (أو نقص في المال)

اللعب بالمفاتيح = شعور بالغلبة (غرور)

اليـــد أمـــام الفم = مندهش ؛ مفاجأ ؛ كاذب ؛ غير واثق ؛ محرج (غالباً تكون حركة اليد قصيرة وتنقطع قبل الوصول إلى الفم)

مسـك المـرفق باليد = غاضب ؛ عدائي ؛ خائب الظن (غالباً تمسك اليد أيضاً بأسفل الذراع ، ويتلو هذه الحركة عادة تحسب لبداية هجوم)

وضع السبابة على الشفاه = عدم ثقة ؛ رغبة في التوقف ؛ إحراج

رفع السبابة = تعليم ، لوم ، تحذير

وضـع اليديـن إحداهمـا فوق الأخرى مع استناد أسفل الذراعين على الرجلين المتـباعدتين = مطمـئن (يمكن أن يعطي تصوراً بأنه متوهم ، مغرور ، فخور ، أنـاني) (إعطاء المظهر الخارجي صفة الاطمئنان لإخفاء حقيقة عدم الأمان) ؛ في حالة دفاع ضد الاعتراضات

النـقر بالأصـابع = الاضـطراب ؛ عدم الصبر (ومثلها النقر بكعب الحذاء أو مقدمته أو الضرب بالقدم على الأرض أو بالقلم على المكتب أو فتح القلم وإقفاله باستمرار)

تشبيك الذراعين لدى الرجال = دفاعي (غير موافق ، حماية النفس ، التراجع ، عدم الارتياح)؛

لدى النساء = الخوف

١ - مع تجميع قبضة اليدين = في حالة دفاع كاملة

٢ - مع يدين مفتوحتين = مدافع ← منتظر

تحريك الذراعين بقوة عند المشي = رضا عن النفس ؛ متغطرس (غالباً يصاحبها رفع الذقن وحركات متصلبة من الساقين)

فتح الذراعين وتثبيتهما على حافة الطاولة = في لهفة مع الثقة بالنفس

خفض الرأس = محرج ؛ مهزوم ؛ معتذر ؛ غير واثق

تجنب التقاء النظرات = مذنب ؛ خجل ؛ رد فعل كذبة

إطالة النظرات = عدوانية ؛ ريبة (النظر إلى مسافة بعيدة دون أن ترف العين = ملل)

وضع الساقين إحداهما على الأخرى = الرغبة في الصراع ؛ استرخاء ، أمان

+ استناد أعلى الجسم إلى الوراء = مستريب ؛ راغب في التصعيد

+ تأرجح القدم بين حين وآخر = واثق

+ تأرجح القدم باستمرار = غير مهتم ، مصاب بالملل

وضع الرجل فوق مسند المقعد = ادعاء التملك بعدوانية

وضع القدمين باتجاه الباب = الرغبة في الانتهاء ، الرغبة في الانقطاع

وضع القدمين فوق الطاولة = حق التملك في المكان

التفاف القدمين على قوائم الكرسي = عدم الأمان

إرجاع القدمين تحت الكرسي = الرفض

فك أزرار السترة = توجيه العناية ؛ التعاطف ؛ الاسترخاء (وكذلك في نزع السترة)

الجلوس على حافة الكرسي = قبول الحل الوسط ؛ مهيأ للاتفاق ؛ جاهز للعمل (إلى نهاية المحادثة)

الاقتراب + الكلام دون كلفة = استعداد للهجوم ؛ حركة هيمنة

الاقتراب = الفهم ؛ توجيه العناية (الابتعاد = نفور ، اضطراب)

التنحنح = مقيد ؛ خائف (خاصة عندما يتغير الصوت بعد التنحنحة)

التصفير = قلق ← خائف ؛ مضيق عليه ؛ حريص على التركيز

بعض الأوضاع العامة والحركات المصاحبة لها :

الـــتراع : إنزال أجزاء الحاجبين الداخلية إلى الأسفل ، ضغط الشفتين والتقدم قليلاً إلى الأمام ، توجيه نظرات محلقة

الفزع : فتح الفم ، واتساع العينين

التشنج : الدخول السريع ، عدم الجلوس إلا بعد الطلب وفي مكان بعيد ، تشبيك الذراعين ، النظر من الشباك أو بشكل غير ثابت

الاســـتعداد لـــلغزل : عضـــلات الجسم مشدودة (يرتفع المنكبان ، وتشد منطقة العينين، وينتصب الجسم)

١ – لـــدى النساء : إصلاح الشعر ، شد الملابس ، التمنظر في الشـــباك ، تدويـــر خفيف لمنطقة الحوض ، وضع الرجلين إحداهما فوق الأخـــرى ببطء ، تدليك الركبة أو بطن الساق أو الفخذ ، إرخاء الحذاء وضبطها على القدم ، إلقاء نظرة قصيرة ثم قطعها وإلقاء نظرة أخرى

٢ – لدى الرجال : ضبط الملابس العليا ، إقفال السترة وتهذيبها، رفـــع الحواجب عند الجلوس ، إلقاء نظرة فاحصة على الأظافر ، جذب البطن إلى الداخل .

٢ – ٢ – ٩ اللغة والتواصل

هنا يكون للحس الجمعي الدور الأكبر في صنع هذه العلاقة ؛ وكما كانت المعايير الاجتماعية تتحكم في إطار صنع عبارات المشاعر ، فإن تلك المعايير هي التي تصنع القالب وحشوه في حالة التواصل .

واللغة بوصفها الركيزة الأساس في بنية المجتمع الثقافية توظف في كثير من خدمات المـــتمع المهمـــة ، ولهـــذا تكـــون لها علاقات في هذا الشأن بكثير من مستويات

التواصـــل. وفي الوقت نفسه تحمل عبارات اللغة في تلك السياقات مضامين تؤديها في كـــل مناســـبة بشكل مختلف في كل سياق بمساعدة بعض العوامل المصاحبة أو الكامنة في إرثها ، مما يدل على غنى اللغة وغموضها الشديد .

وتفســـير هـــاتين الصـــفتين (الغـــنى والغمـــوض) لا يمكن دون معرفة الخلفية الأنثروبولوجية للغة ؛ فالثقافة تعتمد في إعطاء الأشياء معاني على وضعها في مواقع مختـــلفة في نسق طبقي . وتحديد الاختلاف هو قاعدة النظام الرمزي الذي نسميه ثقافة .[٦٠] وتقوم الفئات الاجتماعية بإدخال المعنى إلى عالمهم بالطريقة نفسها التي تعطـــي فيها الثقافة المعاني إلى الأشياء بواسطة ترتيبها وتنظيمها في تراتبية نسقية.[٦١] وأهـــم عوامـــل التراتبية في صنع المعاني هي الضدية الثنائية التي تعد حاسمة في كل تصـــنيف ، لأن المـــرء مضـــطر أن يضـــع فرقاً واضحاً بين الأشياء لكي يستطيع تصـــنيفها. فعند النظر إلى أنواع الطعام المختلفة تكون إحدى طرق إعطائها المعاني الـــبدء بتقســـيمها إلى مجموعـــتين ؛ تـــلك التي تؤكل نيئة والأخرى التي تؤكل مطـــبوخة.[٦٢] وبالطبع نستطيع أن نقسم الطعام إلى خضار وفواكه ، أو إلى تلك الـــتي تؤكل بوصفها مقبلات والأخرى التي تؤكل بوصفها أطباق الحلو ، أو تلك الـــتي تقدم في وجبة عشاء والأخرى التي تقدم على مائدة الاحتفالات . فكل هذه الفروق جوهرية في صنع المعنى الثقافي .

وتتطـــلب الثقافات المستقرة أن تبقى الأشياء في مواقعها المحددة لها ؛ فبقاء الحدود الرمـــزية يعـــزز من قيمة الأصناف ، ويعطي الثقافات معناها المميز وهويتها . وما

---

[60] انظر : S. Hall : The spectacle of the other . Discourse Theory and Practice . Ed by M. Wetherell , S. Taylor and S. Yates . London : Sage , 2001 , p. 330 .

[61] انظر عن التراتبية النسقية بحثي للراسم للمصنفة مثل : M. Douglas , Purity and Danger . London : Routledge and Kegan Paul , 1966 .

[62] للتوسع في هذه الضدية الثنائية انظر : C. Le'vi Strauss , The Raw and the Cooked. London : Cape , 1970

يزعـــزع الثقافة هو أن تكون الأشياء في غير محلها ؛ أي كسر القواعد والشفرات غـــير المكتوبة . فالوسخ في الحديقة مقبول ؛ لكنه في غير محله في غرفة النوم . وما نعملــه هنا هو إخراج هذا الشيء إلى حدوده ، تماماً كما تعامل عدد من الثقافات الأجانب أو الدخلاء أو الغرباء أو الآخرين في عمليات تنقية مماثلة .[٦٣] وتبعاً لهذا المنطق تكون الحدود الرمزية جوهرية للثقافة برمتها ؛ فوضع الفرق يقودنا رمزياً إلى وضـــع المـــراتب ودعم الثقافة ، وبالتالي إبعاد أي شيء يكون غير خالص أو غير طـــبيعي في محله . ومن التناقضات في هذا الشأن أن ما يجعل الفرق ذا قوة وجاذبية هـــو في الوقت نفسه الذي يجعله محظوراً ومهدداً للنظام الثقافي . بكلمات أخرى : ما يكون هامشياً في العرف الاجتماعي يكون غالباً جوهرياً في النظام الرمزي .[٦٤]

وفي **مســـتويات التواصل** تختلف اللغات بطبيعتها في تصنيف كل مستوى تبعاً لما ورثـــته كـــل لغـــة في تاريخها من تقسيمات تتحول إلى ثقافة عامة لأبناء اللغة ، ويضـــاف إلى ذلـــك اختلاف المجتمعات المتزامنة في تقسيم تلك المستويات ووضع الحدود بشكل تحدده رغبات كل مجتمع وظروف أفراده (من وضع معيشي وتكوين طـــبقي وعـــرقي وديـــني) . ونتيجة لهذا الاختلاف بسبب طبائع اللغات من جهة وحاجات المجتمعات المستخدمة لكل لغة (أو ما تعتقد أنها حاجاتها) ، تتباين أيضاً أولويـــات تـــلك المستويات والحاجة أحياناً إلى وجود بعضها . وبالرغم من كل أسباب التباين تكاد توجد مراحل فاصلة بين كل مستوى وآخر تتفق عليه أغلب اللغات ، أو يوجد في أكثر المجتمعات . كما يمكن تقسيم تلك المستويات إلى فئتين كبيرتين حسب وسيلة تحقيق التواصل ؛ إذ يمكن أن يكون **التواصل وجهاً لوجه** ،

---

[63] عن عمليات التصفية الأخرى انظر : J. Kristeva , Powers of Horror . New York : Columbia University Press , 1982 .

[64] انظر : B. Babcock , The Reversible World, Symbolic Inversion in Art and Society . Ithaca, NY : Cornell University Press , 1978 , p. 32 .

وتكون له ظروفه الاجتماعية وأدواته اللغوية التي تحتمها تلك الظروف ، وقد يكون **التواصل غير مباشر** ، فتكون شروطه مختلفة عن النوع الأول ، حتى وإن كان التواصل بين الأشخاص أنفسهم ، وتصبح له أيضاً أدوات لغوية أخرى .

ومن أنواع التواصل الأول :

لغة شارع الحي : وهي ما يجري بين قاطني الحي الواحد من تواصل لغوي في الشارع أو من شرفة المنزل ؛ وهي في أغلبها ذات طابع شخصي ، تخص المتواصلين أنفسهم أو بعض أمور الحي . وتكون في العادة ذات جمل بسيطة تتصدرها أسئلة تقريرية عن الذهاب إلى مكان معين أو الاشتراك في شيء عام أو القيام بإصلاحات أو تعديلات ؛ وهي أسئلة معروفة الإجابة ، لكن الجار الفضولي ، وهو غالباً من يبدأ الحديث ، يريد معرفة المزيد من التفصيلات ، أو أن يُدعى للاطلاع على ما يقوم به الجار عن كثب .

لغة العمل : وهي ما يجري بين الأفراد في موقع العمل من تواصل ؛ سواء كان رسمياً أو شخصياً . ولهذا يكون لذلك المستوى فئتان مختلفتان كلياً في اللغة : إحداهما لغة التواصل بين زملاء العمل ، والأخرى لغة التواصل بين العاملين في المؤسسة والمراجعين . لكنه يوجد أيضاً تداخل بين طبيعة التواصل في كل من تلك الفئتين ؛ فما يجري بين زملاء العمل يمكن أن يكون ذا طابع رسمي أو شخصي ، وما يجري بين العاملين في المؤسسة والمراجعين يكون أغلبه رسمي ، لكن قد توجد بعض المعرفة أو الأحاديث الشخصية ، فيكون تواصلاً شخصياً . لذا يمكن تصنيف لغة هذا المستوى إلى أربع فئات مختلفة فعلياً في شروطها الاجتماعية وأدواتها اللغوية.

لغة مراكز الترويح : بطبيعة الحال تختلف مراكز الترويح في وظائفها وتعددها من مجتمع إلى آخر ، ومن طبيعة مدنية إلى ريفية . ومن نافلة القول أن الاختلاف وارد

بين لغات متعددة في مراكز الترويح في المجتمع الواحد ، تبعاً لكونه مركزاً خاصاً بحي محدود جغرافياً أو قرية صغيرة ، أو لكونه مركزاً يشترك فيه من أراد بشكل ليس فئوياً في الغالب (في مدينة كبيرة ، أو من قرى أخرى ، أو لكونه يخص العاملين في مؤسسة كبيرة) . من أجل ذلك كله يصعب تقسيمها الفئوي ، كما كانت الحال في لغة العمل ، غير أنه توجد خصائص مشتركة لتلك اللغة بغض النظر عن طبيعة المركز .

لغة الأقارب : قد يعترض البعض على وجود لغة خاصة يستخدمها الأقارب ، عندما يتواصل بعضهم مع بعض ، لكن واقع الاستخدام يؤكد وجود قوالب لغوية وأساليب مختلفة يتحول إليها المرء عند حديثه مع الأقارب . بل وتختلف تلك اللغة في حديث المرء مع قريب من الدرجة الأولى عنها في حديثه مع قريب آخر من الدرجة الثانية أو الثالثة ، كما تختلف اللغة أيضاً تبعاً لتواجد القريب الجغرافي (مما يعني تواتر لقاء المتحدث به أو عدمه) . وهذا يعني وجود متغيرين في صلة القرابة (إذا نظرنا إلى قرابة الدرجة الثانية والثالثة بوصفها كتلة واحدة) ، وفي مكان التواجد ، مما يؤدي إلى وجود أربع فئات في هذا المستوى .

لغة الأصدقاء : هذه اللغة لها طبيعة خاصة ، لا يمكن التقسيم الفئوي فيها بشكل منطقي ، حيث تشمل فترة الطفولة والمراهقة بالإضافة إلى لغة الكبار . وهذا ما يجعلها ذات سمات هامة جداً في تكوين لغة كل جيل ، لأن مؤثرات الرفاق هي التي تصنع الاتجاه نحو التغير اللغوي .

ومن أنواع التواصل الثاني :

لغة الرسالة : في حالة غياب شريك التفاعل اللغوي ، وهي الحالة العامة في لغة الرسالة ، تصبح اللغة المعتمدة بالكامل على حواس أخرى غير الحاسة البصرية . وهو ما يجعل نقل المفهوم من المدلول إلى الدال مختلفاً كلياً ، حيث يسهم وجود

الشريك في التحوير المستمر ، ويؤثر في عملية الاختيار بين الدوال المختلفة . ومن ناحيـــة أخـــرى تســـهم الكتابة ، وهي عملية حفظ للغة المنطوقة من الضياع في وظيفتها الرئيسة ، في تكوين لغة أخرى أصبحت مختلفة كثيراً عن الأصل (المنطوقة) التي وجدت المكتوبة من أجل حفظها .

ويوجد إلى الآن ثلاثة أنواع من الرسائل التي يمتلك كل نوع منها خصائص مختلفة عمـــا يوجد في النوعين الآخرين ، بسبب اختلاف الوسائل المستخدمة في نقلها . فـــأقدم هذه الأنواع هو النوع الذي لم يعد يوجد مصطلح يدل عليه ؛ فإذا أطلقنا عليه الرسالة المكتوبة ، فجميع الرسائل مكتوبة ، وإذا أطلقنا عليه الرسالة البريدية ، فبعض نماذجه وجد قبل أن يوجد البريد ، وإذا أطلقنا عليه الرسالة الورقية ، فبعض الرســـائل وجد قبل اختراع الورق ، وكتب على مواد أخرى ؛ لكننا قد نستطيع تسميته " الرسالة التقليدية " بحكم كونه النوع الأقدم . أما النوع الثاني فهو الرسالة الالكـــترونية ، أو مـــا يتواصل به الناس بواسطة الشبكة الالكترونية ، ولغتها في الأســـاس قائمـــة على خصائص لغة الرسالة التقليدية ، لكنها اختلفت في شكلها وفقراتها وطولها بسبب وسيلة النقل ؛ فالوقت الذي يقال دائماً إنه يتوفر في الرسالة المكـــتوبة لم يعـــد موجوداً أو مرغوباً في كونه مفتوحاً . فقد يكون محدوداً بوقت الاتصـــال بالشبكة أو مكلفاً ، تدفع رسوم تتزايد مع تزايده ، أو تدفع كاتبها إلى العجـــلة مخاوف من انقطاع الاتصال أثناء الكتابة . وهي مع كل ذلك غير متاحة بكل لغة ، حيث لم تتطور بعد تقنيات الكتابة الالكترونية بأغلب اللغات كما هي الحال في الكتابة التقليدية ، مما يضطر كاتبها إلى استخدام لغة أخرى لا يجيدها ، أو الاستعانة برموز تنقل الرسالة الالكترونية إلى مستوى فئوي مختلف . والنوع الثالث مـــن الرسائل هو الرسالة الهاتفية ، وربما يكون نوعاً متقدماً تقنياً عن سلفه السابق الرسالة البرقية التي لا يمكن أن تعدها صنفاً ذا سمات لغوية متكاملة ، بسبب طبيعة

تكوينها الناقص لغوياً . وتقوم وظائف هذا النوع من الرسائل على إعطاء نصوص مختصرة بواسطة الهاتف المتنقل تخدم في إيصال الرسالة إلى من لا يرتبط تواجده في وقـت إرسالها بأماكن ثابتة . وبسبب طبيعتها المستعجلة تكون لغتها أيضاً قائمة على العناصر الأساسية ، كما يسهم نقص بعض الرموز في جعلها أقل اكتمالاً من النوع الثاني الذي قد تخدمه برامج تطبيقية في إكمال ما يلزم من نقص هناك . وهي تقنيات لم توجد إلى الآن في جميع أجهزة الاتصال المتنقلة .

لغـة الهـاتف : في حالة التواصل بهذه اللغة يغيب الشريك صورة لا صوتاً (وإن كـان حضـور الصورة أصبح أيضاً ممكناً في الهاتف المرئي) ، فيتأكد وجود أحد عناصر اللغة المميز لهذا النوع من مستويات اللغة ، وهو تزامن الإنشاء مع التلقي . وبهذا فإن هذه اللغة مختلفة عن لغة الرسالة في خصائص مهمة من التعديل واشتراك الطـرفين في صنع لغة الاتصال ، كما يمكن أن يقاطع المتلقي المتحدث ، ويستفسر عـن أشياء في مضامين ما تلقاه في ثنايا الحديث ، ويوجه الحديث إلى مسار مختصر أو تفصيلي إلى غير ذلك من جوانب الاشتراك بينهما . كما يؤثر صوت المتلقي أو صورته (إن كان في هاتف مرئي) أو بعض الأصوات أو الصور المصاحبة في خلق إيحاءات تضيف مضامين إلى تلك اللغة. وقد تغير مجرى المحادثة ، مما يعني أن مسار الاتصـال في هذا المستوى مفتوح ، وليس محدداً بشكل مسبق من طرف واحد ، كما هي الحال في لغة الرسالة .

وتـبعاً لأنواع الاتصال الهاتفي الموجودة إلى الآن يوجد نوعان في هذا المستوى ؛ أحدهمـا الاتصال بالهاتف الثابت (الهاتف المرئي ومكالمات برنامج NetMeeting تتـبع هـذا النوع) ، والآخر الاتصال بالهاتف المتنقل ، ولغة كل من النوعين تختـلف عن لغة الآخر ، إذا كان كل منهما في استخدامه الطبيعي الذي وجد من أجله .

وبسبب الرسمية المرتبطة بالهاتف الثابت تكون المكالمات المتوقعة بواسطته أكثر تنوعاً، ومن يستقبل المكالمة فيه قد لا يكون هو المقصود . فتكون الردود تبعاً لذلك أكثر تحفظاً ، واحتمالات الخطأ في الاتصال أكثر وروداً . أما الهاتف المتنقل فله خصوصية تجعل المكالمات المستقبلة عليه عادة أقل تنوعاً، وأكثر قرباً ، ومن يردّ على المكالمة فيه ، يكون هو المقصود بالمكالمة (إن لم تكن خاطئة) ، فتكون تبعاً لذلك استجابات مستقبل المكالمة أكثر عفوية وحميمية وتبسطاً في كثير من الحالات.

٣ – وسائل اللغة

لـــلغة وسائل متعددة تظهر في أشكال الخطاب المختلفة ، ويستخدمها الإنسان في شـــؤون تعاملـــه مع الآخرين وفي التعبير عما يدور في ذهنه من أفكار لا سبيل إلى طرحها إلا بواسطة اللغة ؛ ومن وسائلها في ذلك استغلال خلايا الذاكرة في الدماغ لـــتخزين الكلمات بدلاً من تخزين الأشكال والألوان والصفات الفيزيائية الأخرى للأشـــياء المراد تكوين الخبرات عنها ، كما كان الإنسان الأول (hominid) يصنع قـــبل تكـــون اللغة لديه . فأصبح الرمز بديلاً للشيء في واقعه الفيزيائي ، وهو ما ســـهل كثيراً احتواء الدماغ على آلاف العناصر في مناطق الذاكرة المختلفة ، وأدى أيضاً إلى الربط بين تلك الرموز والأشياء المدلول عليها ربطاً قوياً يكاد يكون ربطاً أبدياً في كل ثقافة خلال الفترة الزمنية التي تعيشها اللغة .

وكان لتطور اللغة لدى الإنسان أثر في تغيير خارطة الدماغ بشكل جوهري ، لأن مســـاحات واسعة كانت تستخدم للحركة والإحساس تحولت إلى هذه الوظائف . وهـــذا بدأ يتميز دماغ الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى ، حتى أصبح الإنسان نفسه مسيطراً على الكون بفضل اللغة التي ميزت دماغه وجنسه ، وقد أعطى تطور الـــلغة الإنسان قدرة أكبر على امتلاك وعي أكبر . كما صنعت له مجالاً واسعاً من عالم البدائل ، وبهذا جعلت من الكون إمكانات غير نهائية .

وقد سعى الإنسان في عصر الالكترونيات إلى تقليد التطورات التي مر بها بصنعه آلة تحاكي تطورات دماغه ؛ فابتكر الحاسوب ذا القدرات المحدودة في بادئ الأمر الذي لا يفهم سوى لغة محدودة العناصر ، ثم طور الإنسان للحاسوب لغات تختزل كثرة العناصر المدخلة في لغة الحاسوب الأولية ، وهي تشبه في دورها المرحلة التي مر بها عـــندما بـــدأ يخزن الكلمات بدلاً من الأشكال والصفات الفيزيائية (وسميت تلك

اللغات باللغات الدنيا) ، وأخيراً ابتكر الإنسان أيضاً للآلة لغات تشبه لغات البشر في منطقها ، ليستطيع التفاهم بها مع الحاسوب بشكل أفضل وأكثر مناسبة للوظائف التي أصبح الإنسان يسندها إلى الحاسوب (وسميت تلك اللغات باللغات الراقية) .

وإذا أراد المرء أن يقفز إلى حدود الخيال ، فلا توجد حدود للتصورات الذهنية التي لا يستطيع خلقها بواسطة اللغة : الأخلاق ، العدل ، الرب ... ثم يتواصل مع الآخرين بإيصال هذه الأفكار إليهم ، ليصنع بناء اجتماعياً : أطر السلوك ، النسق القانوني ، الدين . وبهذا يعطي كبرياءه تعبيراً عملياً . مثل هذه المنجزات لا يمكن تحقيقها بالغمغمة والحركات .

أما المهارة التي تكوّن اللغة المتكاملة البناء وتفهمها فلا ترتبط بالضرورة بالذكاء العام ؛ فهي لا تنمو بخط موازٍ لضرورة الأفكار المركبة وأهميتها ، بل تكون موجودة – في الإطار النظري على الأقل – قبل أي فكرة . وتشغيلها يكون من الوظائف الحيوية الأساسية لدى كل طفل طبيعي بحد أدنى من التعايش مع اللغة في الوقت المناسب لاكتسابها ، مما يجعلها تزدهر لديه بكل تعقيداتها مع تطوراته البيولوجية .

٣ – ١ اللغة والخطاب

غني عن القول أن اللغة هي الكيان الثقافي للمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد المستخدم لتلك اللغة ، أما الخطاب فله استخدامات كثيرة ، لكننا هنا نستخدم هذا المصطلح في الدلالة على توظيف الفرد للغة في سياق معين يريد الحديث فيه عن حالة أو موقف يتواصل فيه مع غيره .

فـــترات الـــلغة – أي لغـــة – مليء بالنصوص الجاهزة أو الممكنة التجهيز ، لكن الموقـــف هو البيئة التي يأتي فيها النص إلى الحياة ، من أجل ذلك توظف الخصائص العامـــة لـــلموقف بوصفها محددات للنص ؛ بمعنى أنها تشكل تكوينه الدلالي الذي يســـعى إليه المتكلم عادة عند إنتاج نص في ذلك النوع من المواقف . ومن سياق الموقـــف تؤخـــذ إمكانات المعنى المتعددة التي يتعامل معها مخاطب مباشر أو متلقٍ مفـــترض للنص ، وتتفاوت هذه الإمكانات في مدى نمطي من الخيارات يوجد في كل نوع من المواقف ، وتتباين سعة ذلك المدى حسب اللغة والموقف والمستخدم . كيـــف يـــتحدد ذلـــك المدى من الخيارات ؟ وهل هو مفتوح لمن أراد أن يوسعه مســـتخدماً عـــبارات الـــلغة؟ وكيف يسهم امتلاك المهارات اللغوية في الارتقاء بالخطـــاب إلى المرحـــلة التي يريدها المتكلم ؟ كل تلك الأسئلة وتساؤلات فرعية أخرى يمكن الإجابة عنها في إطار استعراض لمراحل امتلاك الوسائل اللغوية اللازمة لحذق الخطاب وهي غير مراحل التحصيل اللغوي البيولوجي التي تتداخل في بعض آلياتهـــا مع هذه المراحل ، لكنها تعني بتكوين الملكة اللغوية وليس بإنجاز الخطاب . إذ يمكننا تقسيم مراحل امتلاك الوسائل اللغوية إلى الخطوات التالية :

مرحلة النسخ

تبعاً لاختلاف هذه المراحل عن تحصيل اللغة الأم لدى الطفل – كما ذكر أعلاه – فـــإن هـــذه المرحلة لا تعني بالضرورة مراحل الطفل الأولى في تقليد الأصوات التي يســـمعها في محيطه ، بل تشمل أيضاً لغة الكبار التي توجد فيها في بعض الحالات خطابات تكون نتاجاً لهذه المرحلة ؛ يكون منشئ الخطاب قد سمع نصاً أنتجه أحد من قبل في سياق مشابه ، فيعيد إنتاجه في الموقف الجديد .

وتوجـــد فئتان مختلفتان من مستخدمي هذه الدرجة من الخطاب ؛ إحداهما تكون قدراتهـــا عـــلى اكتســـاب الوسائل اللغوية قد توقفت عند هذه المرحلة ، فهي لا

تســـتطيع ســـوى إنـــتاج ما سبق إنتاجه من قبل في جميع المواقف ، وفئة أخرى تســـتخدم هذه الدرجة من الخطاب في حالات معينة يكون المجتمع قد وضع فيها أعـــرافاً ذات طقوس لغوية ؛ وفي مثل تلك المواقف تستخدم الفئة الثانية النصوص المنسوخة، لكنها في مواقف أخرى تكون غير مقيدة بما أنتج من قبل .

مرحلة الامتصاص المعرفي

أثـــار في ذهني تصنيف هذه المرحلة ما لم أجد له مصطلحاً آنذاك ، فأسميته نظرية الصـــابون ؛ يرى الطفل مشروباً لم يعرفه من قبل ، لونه يشبه لون عصير التفاح ، لكـــن الجدة تكمن في وجود رغوة أعلاه . وهذه الرغوة غير موجودة في العصائر الـــتي يتناولها ، ولم يعرف تكونها إلا في المحاليل التي تحتوي الصابون ؛ فيطلق على ذلك المشروب مصطلحاً جديداً في دلالته ، لكنه قديم في لغة الطفل .

وفي مرحـــلة لاحقـــة يرى الطفل صور علب ذلك المشروب أو قواريره في ملصق دعـــائي أو في جريدة أو مجلة أو تلفزيون ، فيشير إليه بمصطلح " الصابون " ، حتى وإن لم ير له رغوة (وهي مصدر الجدة في ذلك المشروب بالنسبة إلى الطفل) .

وهذه الظاهرة ليست خاصة بلغة الأطفال ، فالانطلاق في اللغة عند تسمية الأشياء — وتتسع الظاهرة لتشمل الأحداث والعلاقات — يكون مما يعرفه الطفل أو الراشد مـــن مصطلحات تدل على أشياء ذات علاقة بما يبحث له عن تسمية . من ذلك مـــثلاً إطلاق شؤون الكنيسة على كل ما له علاقة بالدين في الثقافات الغربية سواءً كـــان الحديث عن شؤون الدين المسيحي أو عن ديانات أخرى توجد مصطلحات تـــدل عـــلى مؤسساتها الدينية . حيث يتصور الناس الأشياء — حتى في الثقافات الأخرى — من خلال جزئيات ثقافتهم .

وفي انتشار لهذه الظاهرة في الصحافة العربية المحكومة بأنساق جامدة نجد الانطلاق في الحكـــم المسبق عند كتابة خبر أو تعليق من قناعات المجتمع المحلي حتى لو كان

الموضـــوع يتعلق بمجتمعات أخرى لا توجد فيها تلك القناعات ، ولا يشارك هذا المجـــتمع في الحكـــم على القضية أو في تصنيفها ضمن الأمور السلبية . ومن أمثلة ذلك:

" عاقـــبة الخلوة المحرمة : ماكينة نشر الخشب تبتلع شاباً اختلى بخطيبته في مصنع " (جـــريدة الرياض (٢) ١٤٢١/١١/٢ (٢٧ / ١ / ٢٠٠١) ، الصفحة الأخيرة) [الشاب والشابة أمريكيان وغير مسلمين ، والمكان في أمريكا]

" تـــثقيف المراهقات البريطانيات حول أضرار الرذيلة : قررت الحكومة البريطانية القيام بحملة دعائية لتثقيف المراهقات بضرورة الابتعاد عن ممارسة الرذيلة " (جريدة الرياض ١٤ / ٧ / ١٤٢١ (١١/ ١٠ / ٢٠٠٠) ، ص ٤٣) [بكل تأكيد أنه لم يدر بذهن أحد في الحكومة البريطانية أن ممارسة المراهقات للجنس رذيلة]

" وقال ٥٣ في المائة ممن شملهم الاستطلاع أنهم ليس لديهم ثقة في المجرم شارون " (جـــــريدة الـــــرياض ٢٦ / ١٢ / ١٤٢٢ (١٠ / ٣ / ٢٠٠٢) ، ص ٦) [الاســـتطلاع شمـــل إسرائيليين فقط ، ومن المستبعد أن ينظر أحدهم إلى شارون بوصفه مجرماً ، حتى وإن عارضوه]

" ونفـــى مناقشة الجانبين [العراقي والسعودي] للأسرى السعوديين الآخرين ... ويضيف أن الدلائل التي لدينا تشير أنه [الطيار السعودي] بالفعل على قيد الحياة ولكن الجانب العراقي يؤكد استشهاده" (جريدة الرياض ٢٣ / ٧ / ١٤٢١ (٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠) ، ص ٧) [لو أكد العراقيون استشهاد الطيار السعودي لأثبتوا أنهـــم كفـــار ، لكنه الخلط بين ما يقوله الطرفان وإدخال ما يقوله أحدهم ضمن مقولة الآخر] .

ويتصـــل بهذه الظاهرة في الصحافة أيضاً استخدام كليشات جاهزة لوصم الآخرين بكل السلبيات لعدم اتفاقهم مع أعراف المجتمع المحلي ، مثل :

" في مجـتمع بلا حياء : توأمتان تتطلعان للاقتران بزوج واحد " (جريدة الرياض ٢٥ / ١٢ / ١٤١٨ (٢٢ / ٤ / ١٩٩٨) ، ص ٣٩) ومثـلها أيضـاً : " في مجتمع بلا أخلاق ... " أو " في مجتمع بلا قيم ولا أخلاق ... "

" في مجتمع حرم من نعمة الإسلام : فتاة تصلي نيابة عن الغافلين مقابل سعر معلوم " (جريدة الرياض ١٥ / ١ / ١٤٢١ (٢٠ / ٤ / ٢٠٠٠) ، الصفحة الأخيرة)

" في مجتمع حرم من نعمة الإسلام : إيرلندا تقيم مهرجاناً عالمياً للنميمة " (جريدة الرياض ٢ / ٤ / ١٤٢١ (٤ / ٧ / ٢٠٠٠) ، ص ٣٥)

" في مجـتمع حرم نعمة الإسلام : اعتقال روسي اشترى فتاة في الحادية عشرة من العمر " (جريدة الجزيرة ٣٠ / ٣ / ١٤٢١ (٢ / ٧ / ٢٠٠٠) ، ص ٣٤)

" في مجـتمعات حـرمت مـن نعمة الإسلام : مكب على غرار مقلب النفايات للتخلص من المواليد غير المرغوب فيهم " [ونجد التناقض الذي لا ينتبه إليه الكاتب لأنه مفروض عليه الهجوم على الحضارة الغربية بين بداية الخبر ووسطه حيث يقول في البداية : " بـلا شك أنه تصرف يدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الحضـارة الغربية ... " وفي الوسط : " ويختفي الطفل داخل أنبوب مائل ليسقط عـلى سـرير ناعم دافئ حيث يجد في انتظاره ممرضة من مستشفى في الجوار يتم استدعاؤها تلقائياً بانطلاق جرس تنبيه لتأتي وتقدم له العناية والرعاية اللازمتين "]

(جريدة الرياض ١٤ / ٣ / ١٤٢١ (١٦ / ٦ / ٢٠٠٠) ، ص ٣٤) .

كما لا تستطيع مثل هذه الصحافة الإتيان بخبر عن تكهن بالأحداث إلا بتقديم تلك التعويذة فوق الخبر " كذب المنجمون ولو صدقوا " في مثل :

" كـذب المنجمون ولـو صدقوا : عالم بريطاني يتوقع نهاية مأساوية للأرض " (جريدة الرياض ٤ / ٧/ ١٤٢١ (١ / ١٠ / ٢٠٠٠) ، ص ٣٩)

" كـــذب المنجمون ولو صدقوا : منجم تكهن بحرب تحرير الكويت ووفاة الأميرة ديانـــا يـــتوقع اغـــتيال الرئيس الأمريكي المقبل وسقوط صدام حسين " (جريدة الرياض ٧ / ١٠ / ١٤١٩ (٢٤ / ١ / ١٩٩٩) ، ص ٣٩) .

مرحلة المعرفة الحسية

استمراراً لقصة الطفل ونظرية الصابون ، يستمر الطفل في استخدام ذلك المصطلح رغـــم أن أخاه أبلغه بالمصطلح العام الدال عليه في اللغة ، ورغم أن مصطلحه الذي ابستكره لا يفهمه سوى ثلاثة أشخاص. فلا يصحح المصطلح لأن إثارة الاكتشاف وابـــتكار الاســـم الـــدال عليه قد انتهت ، وهو ما يمكن أن ندخله في إطار هذه المرحلة.

وفي الواقع تستقر في هذه المرحلة من مراحل تكوين مستلزمات الخطاب مجموعات كـــثيرة من الألفاظ والعبارات المترادفة ومصطلحات التساوق في كل من لغة الفرد والـــلغة المحلية العامة ، خاصة في بعض الموضوعات التي تتنوع طرق الحديث عنها كالجـــنس والحب والسياسة . وكثير من تلك المصطلحات يندثر ، لأنه ليست له دلالة إلا بوجود قرائن أخرى مرتبطة بالموقف أو السياق اللغوي الذي ترد فيه، أو لأن مجموعة صغيرة جداً هي التي تدرك ذلك المعنى ، ولا تمثل بالتالي البيئة اللغوية . ومنها بالطبع ما يدخل في المرحلة الرابعة ويستقر ضمن تراث اللغة (لاتساع قاعدة من يدركون معناه ، أو لاستمرار تلك القرائن التي تصاحب اللفظ) .

وإذا نظرنا إلى معجمات اللغة العربية ، نجد أن عدداً من المعجميين لم يدركوا هذه الظاهـــرة ، فدونـــوا كـــل ما فسر في إطار من تلك الموضوعات ، خاصة الإطار الجنسي ، على أن ذلك المعنى متضمن في الكلمة أو العبارة ، إذا خوطب بها أحد ، مهمـــا كـــان السياق . وذلك يعني أنها لم تعد عبارة خطاب ، بل أصبحت عبارة لغوية . وفي كثير من مواد المعجم نجد التفسير الجنسي موضوعاً بوصفه أحد معاني

جـــذر الكلمة ، وكأنهم يثبتون المقولة الغربية عن العربية أن لكل كلمة فيها ثلاثة معـــانٍ ؛ معناها العام ومعنى جنسي ومعنى يتعلق بالجُمَل . وقد تكون تلك المقولة منطلقة مما دونه المعجميون العرب وتناقلوه بوصفه حقائق عن استخدام اللغة ، وهو ليـــس كذلك . ففي لسان العرب – على سبيل المثال– تقابلنا (دون استقصاء) الجذور التالية :

دربخ : المعنى العام " ذلّ " – المعنى الخاص : " خضعت له وطاوعته للسفاد "

ربخ : المعنى العام " الاسترخاء " – المعنى الخاص : ربخت المرأة = غشي عليها عند الجماع

زخّ : المعـــنى العـــام " دفع " – المعنى الخاص : يزخها أي يجامعها ، وسميت المرأة مزخّة ، لأن الرجل يجامعها . وامرأة زخاخة وزخاء تزخ عند الجماع

أقفخ : المعنى العام " استحرم " – المعنى الخاص : أرادت السفاد

ومثلها الجذور : " شأز " و " شحز " و " شكز " [٦٥] وكثير من الكلمات القليلة الاســـتخدام المتعـــلقة بأي من أوصاف الجسم أو حركاته أو المرتبطة بمعانٍ مجردة تستخاطر مـــع أي من أحداث الجماع . بل وقد وصل الأمر في بعض فترات اللغة وبعـــض مجـــتمعات العرب إلى ربط المرجعية في كل ضمير إحالة مؤنث بالمرأة أو بمؤخـــرة الإنســـان ، حـــتى لـــو كان الاسم المحال إليه جماداً أو شيئاً لا علاقة له بالإنسان.

مرحلة الشباب عن الطوق

هنا تتجلى قدرة اللغة على استيعاب رغبات المجتمع وحصيلته المعرفية ، كما تظهر قوتهـــا في تقسيم مستويات الخطاب وفي وضع حدود القبول في العبارات المركبة .

---

[65] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب . بيروت : دار صادر ، د. ت.

ففـــي مثل العنوان الموضوع لهذه المرحلة لا تقبله العربية بهذه الصيغة ، لأنه مثل لا تـستغير صورته هو " شب عن الطوق " ؛ فهي التي تملي كيفية استخدامها ، خاصة في التعـــبيرات الجاهـــزة والاستعارات . ففي العربية نجد عبارة " صاحب صنعتين كـــذاب " [٦٦] عامة لكل من تعددت نشاطاته ، لكن العبارة الإنجليزية : he has his fingers in a lot of pies تنحصر في تعدد النشاطات للحصول على المال .

وحيـــث يتعـــلم الإنسان الأشياء من خلال اللغة ، وهو ما يجعلها حفرية معرفية نكتشـــف من خلالها تاريخ المرء وثقافته وبيئته التي عاش فيها ، فإن المرء ينظر إلى عـــبارات لغته ، خاصة الأمثال والتعابير الاصطلاحية وعبارات التساوق ، بوصفها الطريقة المثلى أو الوصف المنطقي الوحيد . فلو سئل عربي عن عبارة " اتخذ قراراً " أو " صـــنع قراراً " لأشار إلى الأولى بوصفها الصحيحة ، حتى وإن دلت الاثنتان على الشيء نفسه .

وهـــذا ما يجعل مستخدم اللغة (وأي بشر سليم النشأة سيكون مستخدماً للغة) يـــربط الأشـــياء بالألفاظ التي وردت في سياقها في لغته ؛ فيصبح جمال الفتاة لدى العربي مرتبطاً بما ورد في وصفها في ثقافته العربية ، حتى وإن اختلفت معايير الجمال في عصره الذي يعيش فيه ، لأنه أصبح يعيش مع تلك العبارات التي تصف جمالاً في عصر من العصور بوصفه واقعاً ، لا بوصفه خطاباً .

وليست القيم هي وحدها التي تتأثر بقوة اللغة وتغلغلها في ذهن من يستخدمها في الخطـــاب ، بل أيضاً ردود الفعل إزاء ما يجري من أحداث في الواقع وطرق التعبير عن ردود الفعل بأشكال مختلفة ، تبعاً لاختلاف اللغات وتأثيرها في مستخدميها . ففـــي أغلب اللغات الأوربية توجد فواصل بين ما يشعر به الإنسان في موقف ما ، ومـــا يســـتلزمه ذلك الموقف من رد الفعل ؛ وهو ما جعل الأوربيين يفصلون بين

[66] جمانة طه : موسوعة الأمثال الشعبية العربية . الخبر (السعودية) : الدار الوطنية الجديدة ، ١٩٩٩ ، ص ١١٨ .

الحالــتين في خطاباتهم العامة أو الخاصة . أما في الشرق فلا يوجد فصل بين تعابير تلك الأحداث ، وإن وجدت كلمات في لغات الشرق تدل على كل منها ، وهو مــا جعل الشرقيين لا يفصلون بين مشاعرهم ، وما يجب عليهم أن يفعلوه ؛ وقد انعكس في خطاب الشرقي تلك التناقضات التي تتداخل فيها حدود عالمه الداخلي مــع العالم الموضوعي في الخارج . وكثيراً ما يدخل الشرقي عباراته التي تدل على مشاعره ، حتى وإن كان خطابه في مرافعة أمام المحكمة . [٦٧]

ونظراً لأن الطفل يدرك أهمية اللغة في تعامله مع الآخرين ، فإنه يتعلم منها في كل ما يوجه إليه من خطابات أوامر ونواهٍ (عدا المضمون) النسق الاجتماعي والحدود التي تقسم فضاءات المجتمع والعلاقات بين الناس خارج أسرته وداخل أسرته ، كما يتعلم معاني المحظورات من خلال تكرار عبارات النهي . وكل هذه تنعكس في لغة خطابــه الذي يستخدمه في المواقف المختلفة ؛ فالطفل الذي لم يتعود على مشاطرة الآخــرين في النقاش بالتعبير عن رأيه ، يعتقد أنه لا يملك رأياً ، ويستقر في خلفيته المعــرفية التي تكون قاعدة الخطاب لديه أن الرأي محصور في أناس محدودين ؛ وفي هــذا الشــأن ســطعت مقولــة في الثقافة العربية تتحدث عن " أصحاب الرأي والمشــورة" . وفي المقابل يتعود الطفل الذي يعطى رأيه قيمة على أنه محسوب في المجتمع ، ويعترف بالتصويت (حتى وإن لم يعرف كلمة الديمقراطية) ، ويستخدم المصطلحات الدالة على ذلك في خطابه .

ويتسع المجاز في هذه المرحلة ، حتى تصبح جميع الكلمات تقريباً ذات الدلالة الحسية لهــا اســتخدامات مجازية ، وتركب العبارات في ربط بين الألفاظ غير معهود في المــراحل الســابقة . فــلو نظرنا إلى تعبيرين اصطلاحيين في اللغة الإنجليزية هما :

---

[67] لا أنسى في هذا السياق العبارة المعترضة التي أقحمها حلمي عند قراءته – أثناء الصلاة – الآية القرآنية : " فقال أنا ربكم الأعلى" ، فأردف قائلاً : يخسى الملعون !

argument is war و time is money حيــث يستقر في أذهان مستخدمي اللغة مــن اســتخدام التعبير الاصطلاحي الأول أن ادعاءاته لا يمكن الدفاع عنها ، وأنه يهــاجم كــل نقطــة ضعف في حججي ، وأن نقده كان مصيباً للهدف ، وأني لم أكســب الحجاج معه ، وأن استخدامه لتلك الاستراتيجية (وهي من مصطلحات المعــارك الحربية) هو الذي أكسبه الجولة ... إلخ .[٦٨] وكل ذلك ينسي الجانب الإيجابي التعاوني في الحجاج ، بسبب استغراقنا في وصف تلك المعارك . أما التعبير الاصــطلاحي الــثاني ، فتنشأ عنه أفكار مثل : أنت تضيع وقتي ، وهذا يوفر لك وقتاً، وهذا يكلفك وقتاً ، وأنت تصرف وقتاً ... إلخ .[٦٩] وهذه العبارات تجعل الوقــت مســاوياً للمال ؛ فهو يُصرف ويُوفر ويكلف ، مما تنشأ معه فكرة أهمية الوقــت المســاوية للمال ، لأن المرء بقدر ما يستثمر من وقته ، يستطيع – ربما – الحصول على المال ؛ لكنه مختلف بالتأكيد عن المال ، فهو لا يسترجع ، وليس له بنك ، مثلما تختلف الحرب عن الحجة .

وفي الواقــع توجد هوة بين واقع اللغة ودراستها ؛ ففي حين تدرس بوصفها شيئاً ثابــتاً وجامداً ، تكون صور الواقع متتابعة ومتغيرة . وهذا الأمر هو ما يجعل فهم المصطلح مرتبطاً بواقعه في عصره ودرجة استخدامه المجازية .

مرحلة الأسر والانقياد

في هذه المرحلة تتحول اللغة من موضوع إلى فاعل حقيقي ، وتستخدم هذه العبارة (أو عــلى الأقل الجزء الأول منها) مقرونة باللغة ؛ فنقول : لغته آسرة أو ممتعة . وقــليل من الناس يصلون إلى هذه المرحلة ؛ ففي التاريخ العربي وجد أشخاص مثل

---

[٦٨] انظر : G. Lakoff ; M. Johnson : Metaphors we live by . Chicago and London : The University of Chicago Press , 1981 , p. 4 .

[٦٩] انظر المرجع نفسه ، ص ٨ .

المتنبي ونزار قباني وجمال عبد الناصر كانوا ممن اشتهر في هذا الشأن . وفي الواقع أن الأمر ليس من يمتلك ناصية اللغة ، بل من يستخدمها في خطاب يدغدغ المشاعر ، ويسحر به الناس .

فما يجري هنا هو جعل اللغة المستخدمة في الخطاب الشعري أو السياسي ، على سبيل المثال ، تسيطر على أذهان الناس ، وتجعلهم يتقبلون كل ما يقال على أنه الحقيقة المطلقة . وهو نوع من الهوس يصيب المجتمعات أو بعض فئاتها لفترة من الزمن تجعل من يفكر قليلاً في اللغة المسيطرة تعاديه الأكثرية المنحرفة . وهذا الهوس أو التخدير ليس محصوراً في لغة أشخاص نعرفهم ، بل قد تكون مقولات سائدة ، أو لغة إعلام مسيطر ، أو لغة دعاية لا تدع لغالبية الجمهور الموجهة إليه مجالاً للتفكير . فلننظر الآن مثلاً إلى لغة الدعاية التي تستخدم الأرقام وهي وسيلة إقناع مهمة في ترويج المنتج بالقول : ١٨ ٪ خالٍ من الدسم ، فيعتقد الناس أن ذلك فرصة كبيرة لمن يريد تجنب الدسم ، دون أن يعوا أن ٨٢ ٪ من هذا المنتج تحتوي الدسم . ومثل ذلك في الأسعار ، عندما يقول الإعلان: فرصتك الحقيقية في توفير ٢٠ ٪ من السعر دون أن يذكر السعر الذي خفض منه خمسه ، فقد يكون أعلى مما هو عند غيره ، لكن وهج التخفيضات تأخذ بلب البسطاء ممن عاشوا في مجتمع استهلاكي، فيسعون إلى التسابق لاغتنام الفرصة .

أما تأثير المثل والأثر والقول غير المعروف القائل فهو ثابت في كثير من المجتمعات ؛ إذ يستفتح به كثير من الناس موضوعاتهم في الحديث بوصفها من الحجج التي ينبني عليها النقاش أو المرجعية التي تدعم ما يريد قوله ، أو يضمن حديثه بعض تلك المرجعيات ، مثلما نجد في التراث العربي : " كما قال الشاعر ... " أو " كقول القائل ... " . وفي العصر الحديث أصبحت قراءة المرء أي خبر أو سماعه في وسائل

الإعلام بمثابة البديل لقول الشاعر ؛ إذ يقول بعضهم الآن : " لا أدري أين قرأته "، لكنه يؤمن به مجرداً عمن قاله .

وعـــن العلاقة بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة يمكن القول إنها علاقة تسببية (أو إحداثية) ، بمعنى أن الإمكانات اللغوية المذكورة في تلك المرحلة تستحث ، ويقوم أصـــحاب القـــوة في أي من مجالات استغلال الخطاب بالبحث عن نقاط ضعف المتـــلقي ، لـــتوجيه تلك الإمكانات بذلك الاتجاه . ونجاح تلك المحاولات لا يقوم دائماً على قوة النفوذ أو المال ، بل توجد عوامل ذكاء تتمثل في القدرة على التقاط صور الواقع المجازية المتغيرة ، وتوظيفها لخدمة تسويق الفكرة داخل الخطاب . لكن لماذا كل هذا ؟

إنها أزلية الصراع الموجودة في الكون ؛ [٧٠] فالحيوانات تتصارع من أجل الحصول عـــلى مـــا تريد : الطعام والجنس والحيز المكاني والتحكم في القطيع . وذلك لأنها دائماً توجد بعض الحيوانات تريد الشيء نفسه الذي يريده بعضها الآخر ، أو تريد أن تمـــنعها من الحصول عليه . ومثل ذلك يحصل لدى البشر ، مع تعديل يتمثل في تطويرهم طرقاً أكثر ذكاء لسلوك تلك الطريق ؛ فإحدى الطرق الأكثر عقلانية هي الســـعي إلى ما يريده المرء دون تعريض نفسه لخطر الصراع البدني الذي تستخدمه الحيوانـــات أو تهـــدد به . ونتيجة لذلك وجد الإنسان نفسه منغمساً في استغلال إحدى المؤسسات الاجتماعية — وهي اللغة — في ممارسات خطابية تحقق له ما يريد بأقصـــر الطـــرق . حتى في الصراع داخل الأسرة ، على سبيل المثال ، بين الزوج والزوجة يحاول كل منهما أن يحصل على ما يريده الآخر ، كأن يحصل على قبول الآخـــر بوجهة نظر معينة في موضوع ما ، أو أن يسير على الأقل في هذا الاتجاه . كلٍ منهما يرى أنه يكسب شيئاً ويخسر شيئاً آخر ، ويحمي مكتسبات ويدافع عن

---

[70] انظر المرجع نفسه ، ص ٦٢ .

حيز آخر . وفي ذلك الصراع يستخدمان كل الوسائل الممكنة والمتخيلة من أدوات لفظيـة تحـت تصرفهما من إرهاب وتهديد وتحدٍ وإهانة واستخفاف وحتى محاولة إعطاء أسباب منطقية ؛ غير أن هذه كلها تكتيكات تقدم بوصفها أسباباً منها :

... لأني أكبر (أو أقوى أو أغنى) منك . (إرهاب)

... لأنه إذا لم تعمل (تعملي) ، فسوف ... (تهديد)

... لأني أنا الرئيس . (سلطة)

... لأنك غبي (غبية) . (إهانة)

... لأنك عادة تعمله (تعملينه) خطأ . (استخفاف)

... لأن لدي من الحق مثلما لديك . (تحدي السلطة)

... لأني أحبك . (هرب من الموضوع)

... لأنك إذا ... ، فسوف ... (مساومة)

... لأنك تكون (تكونين) أفضل مني فيه . (تملق)

مثل هذه التكتيكات المعتادة في أغلب الثقافات لا تلاحظ بوصفها جزءاً من الحياة اليوميـة ، لكـنها قـد تـتخذ مـنحى تصاعدياً باستمرار بعض جوانب تلك الاسـتخدامات في الخطـاب . وهي تلاحظ في الغالب عندما تحدث كارثة ، لأن تـلك السـمات الخطابية التي كان يتغاضى عنها تصبح صفات ثابتة ومضخمة ، فيوصف المرء بأنه غبي أو عنيد ... إلخ .

ومـن الطـرق الأخرى في سعي الإنسان إلى الحصول على مآربه بواسطة اللغة ما يمكن أن نسميه استغلال قوة اللغة وارتباط الناس بها . ويتم ذلك بأن يتخير المتكلم العـبارات ذات الأثـر الإيجـابي ، ويتحين الفرصة المناسبة لإدراجها في خطابه . وبذلـك يكسب عطف الناس الموجه إليهم الخطاب ، ويؤدي في كثير من الأحيان إلى اقتـناعهم بمضمونه ؛ من أمثلته استدرار عاطفة الأمومة وارتباط كثير من الناس

بأمهاتهم باستخدام عبارة : " من رحم ... " أو استدرار العاطفة الوطنية باستخدام عبارة : " على تراب ... " ، وغير ذلك كثير في كل لغة .

فالكلمات بمفردها لا تغير الحقيقة ، لكن التغييرات التي تحدثها في تصوراتنا النسقية هـــي التي تغير ما هو حقيقي بالنسبة إلينا ، وتؤثر في كيفية استقبالنا العالم وتفاعلنا معه . فلو نظرنا إلى مصطلحات وعبارات سادت مؤخراً في لغة الخطاب السياسي عالميــاً مــثل : " مكافحـــة الإرهاب " أو " الحيلولة دون تهديد النظام العالمي " ، لوجدنــا أن مــثل هـــاتين العبارتين تغليف لمجموعة من المبادئ العملية التي ارتأتها مؤسســات الــتخطيط الاستراتيجي الأمريكية . وتهدف منها إلى إبقاء الولايات المــتحدة الأمريكية في وضعها الحالي المهيمن ، والسيطرة على موارد العالم الرئيسة وممراته المائية ، والحيلولة دون ظهور قوى عالمية جديدة . وأي من هذه المبادئ لا يمكـــن أن يجد القبول عند غير الأمريكيين ، غير أن الغلاف الذي غلفت به سهل الـــترويج ، ويوحـي بمقاصد إنسانية نبيلة ، مع ما يعرف من التباين بين الإنسانية والسياســـة . بل إن رواج تينك العبارتين جعلتهما تتصدر الخطابات السياسية لغير الأمريكيين، وقد أوجدت في بعض اللغات غير الغنية بمصطلحات الزيف السياسي عبارات موائمة لهما ، لأنه لم يعد ممكناً الاستغناء عنهما بوصفهما الوصفة الجديدة للانقياد إلى أسر اللغة .

٣ – ٢ درجات الخطاب واستخدامه

القـــول – كما نعرف – ينبني على وجود طرفين فاعلين في مجتمع ما . وفي حالة غياب مخاطب حقيقي ، يحل مكانه مخاطب افتراضي يوضع في شخص ممثل لمتوسط الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتكلم .

أما درجة ذلك المخاطب (الحقيقي أو المفترض) ، فإنما تكون في إحدى درجات اجتماعية ثلاث : درجة مساوية لدرجة المتكلم ، أو أعلى منها ، أو أدنى منها . وهو تقسيم طبقي عام في أغلب المجتمعات البشرية ، غير أنه توجد عوامل عرضية تتداخل مع ذلك التقسيم الهرمي منها : علاقات القرابة (الأب ، الأخ ، الزوج ، الزوجة ... إلخ) ، وعلاقات الغرام (مثل الرئيس والمرؤوسة : تلغي بعض شروط التقسيم الطبقي الهرمي) ، وعلاقات خاصة أخرى (مثل المصلي وربه في خطابات مفترضة) .

وفي أغلب الخطابات يفترض المتكلم حداً أدنى من الاتفاق النمطي المحدد اجتماعياً بشأن الإطار الإيديولوجي لكل من الفئة الاجتماعية والزمن ؛ فنحن نفترض مثلاً في المخاطب أن يكون على إلمام بشيء من أدب اللغة والعلوم والأخلاق والقوانين السائدة . وفي العالم الداخلي والأفكار لكل شخص توجد أطر تحدد البيئة المناسبة للأسباب والدوافع والقيم ؛ وكلما أصبح الشخص أكثر إلماماً بثقافته ، أصبح عالمه الداخلي أكثر قرباً من متوسط الإطار الإيديولوجي لتلك الفئة . لكن خصوصية الطبقة وخصوصية الفترة الزمنية تجعلان وجود نموذج المخاطب المثالي أمراً صعب التحقيق .

وعندما توجه الكلمة إلى المخاطب ، فإنه يكون لها دلالة عالية جداً (وليس معنى). ففي الحقيقة ، يكون **للكلمة جانبان من التأثير** الذي يجب أن يكون نصب أعيننا من أجل معرفة أبعاد ما يقال هنا. فهي محددة بشكل موازٍ تقريباً مع من قالها ، وفي جانب آخر مع من قيلت له . فالكلمة ، والقول بشكل كامل ، تتحدد بدقة من خلال وصفها بكونها نتاجاً لعلاقة متبادلة بين المتكلم والمخاطب ، وكل كلمة تقريباً تعبر عن علاقة أحدهما بالآخر . ولذلك لا بد في أي خطاب من وجود افتتاح . لا يهمنا كثيراً موقع ذلك الافتتاح الضروري في التواصل (قد يكون في

المقدمة ، وهو الأكثر ، أو في أي موقع في النص ، وقد يوضحه في بعض الحالات السياق) ، **ومضمون الخطاب** الذي يكون بالطبع نابعاً من تصور قائل النص للمحتوى ، وهو ما يعني بالجانب الأول من تأثير الكلمة أو القول، كما يوجد فيه أخيراً **جهة الخطاب** التي يمكن أن تكون فرداً أو جماعة أو مؤسسة أو إطاراً عاماً غير شخصي ، وهو ما يعني بالجانب الثاني من تأثير الكلمة أو القول (من المعنيّ بذلك ؟) ؛ وقد يكون – بالمناسبة – ذلك المعني غير من تضمنه افتتاح الخطاب .

افتتاح الخطاب وأنماطه

هناك أولاً طرق لافتتاح الخطاب تختلف من مستوى تواصلي إلى آخر ، وفي بعض المستويات توجد أعراف يكاد يكون بعضها سائداً في ثقافات مختلفة من العالم أو في جزء كبير من العالم ، وبعضها يكون خاصاً بثقافة معينة نشأ فيها ، و لم ينتشر في ثقافات أخرى . كما تختلف طرق افتتاح الخطاب ثانياً حسب نمط اللغة ؛ حيث أوجدت بعض اللغات نسقاً واحداً أو أكثر تحدد طريقة التواصل ، وتركت لغات أخرى ذلك إلى اجتهاد المتكلم والعلاقة الناشئة بينه وبين المتلقي .

اختلاف مستويات التواصل

ففي مستويات التواصل وجهاً لوجه يختلف الافتتاح عنه في مستويات التواصل غير المباشر . وبين مستويات التواصل وجهاً لوجه توجد أيضاً فروق في طريقة الافتتاح حسب المستوى والشخص المتكلم والمخاطب ؛ فعندما ننظر إلى لغة شارع الحي نجد أن أغلب أساليب الافتتاح فيها تتراوح بين النداء بالاسم أو اللقب (وفي المجتمعات العربية ربما تستخدم الكنية) وبين التحية المعتادة في لقاء المعارف . وبالطبع لا تخلو بعض الأحياء من وجود مشاكل بين ساكني الحي ؛ وفي مثل تلك الأحوال سيكون افتتاح الخطاب موضوعياً ، ومرتبطاً بشكوى من تكرار الأذى أو

تحذيـر مـن عواقب ما يمارسه الجار ، وأن صاحب الخطاب ربما يلجأ إلى وسائل قانونية أو إلى ممارسة رد فعل شبيه بما يلاقيه من الأذى .

أما لغة العمل فيختلف افتتاح الخطاب فيها تبعاً لنوع العلاقة بين المتواصلين ؛ فإذا كان الخطاب بين زملاء العمل ، فإن عوامل متعددة هي التي تحكم نوع الافتتاح في التواصل هي : العلاقة بين المتخاطبين وتراتبية المواقع الوظيفية وتداخل العمل الذي يؤديه كل منهما . فإذا كان العاملان الأول والثالث قويان وتراتبية المواقع في شكل أفقـي ، فـإن ابـتذال الخطاب يكون هو الغالب في الافتتاح الذي يخلو غالباً من عبارات الاحترام – خاصة بين الرجال – وإذا وجد الجنسان في موقع عمل واحد، فقـد تصـل عـبارات الافتتاح إلى تلميحات جنسية تتعلق بخلفية المزاج الجيد أو الـرديء الذي بدأ به أحدهما العمل . وكلما كان العاملان الأول والثالث أقل قوة أو كـان الـثاني في شكل عمودي (علاقة رئيس ومرؤوس) قلت بالطبع بساطة الافتـتاح ، ومالت إلى الطابع الرسمي ، وامتزجت بدرجة من الاحترام تتناسب مع أثر العوامل الثلاثة .

وفي حالـة الصـنف الـثاني من لغة العمل المتعلق بخطاب بين شخص ينتمي إلى المؤسسة التي يجري فيها الخطاب وآخر من خارج المؤسسة ، فإن الافتتاح يكون في الغـالب من الشخص المراجع أو الزائر الذي يخاطب الموظف بشكل رسمي ؛ يبدأه بالـلقب أو المصـطلح المعهود في نداء مثل ذلك الموظف ، ثم يطرح سؤاله الذي يرغب في الحصول على إجابة عنه أو طلبه الذي أتى من أجله إلى تلك المؤسسة .

وفي مراكـز الترويح تتسم اللغة بالبساطة والموضوعات بالسطحية ؛ من أجل ذلك يكـون افتتاح الخطاب مقتصراً في الغالب على عبارات تحية عابرة ، أو تلميح إلى انقطـاع أو استمرار في الحضور أو التمارين . كما توجد حوارات بين المتحاورين في أداء بعـض الـتمارين أو في الاستراحة أو الحمام ، وتكون تلك الحوارات بين

معـــارف ويـــبدأ فيها الخطاب عادة مما يدور من الأحداث البسيطة وخاصة أخبار المناسبات الرياضية .

وقد تكون أصعب موضوعات الدراسة تتبع لغة الأقارب ؛ حيث تكثر الأنماط التي تتوزع إليها الحوارات بين الأقارب بسبب اختلاف طبائعها وبسبب تعدد العوامل الـــتي تؤثـــر في مجرى الحوار بين الأقرباء تبعاً للتراث الذي يفرض كثيراً من أنماط الحوار بين الأقرباء ويؤطر طرق المخاطبة واستخدام الألقاب من جهة ، وتبعاً لعدد مـــن الجوانب التي تحكم المتخاطبين من ذوي القرابة أو تحكم مجتمعاتهم آنياً ؛ منها الـــنواحي الاقتصـــادية والاجتماعية (خاصة وجاهة المتكلم أو المتلقي) والعلمية والدينية والنفسية (إما صفات وطباع ثابتة لدى الأفراد أو متغيرات سلوكية نتيجة ظروف طارئة) .

وكـــل هذه العوامل تؤثر في كل فئة من فئات القرابة التي تخضع أيضاً لمتغيرين هما درجـــة القـــرابة والمسافة الفاصلة بين مواضع السكنى (وفي بعض الحالات المسافة الزمـــنية بـــين فـــترات اللقاء) ؛ مما يجعل هذه الفئات الأربع مضاعفة بعدد تلك العوامل المؤثرة ، وهو ما يعد أكبر مصادر صعوبة توزيع خطابات الأقرباء إلى أنماط واضـــحة . لكن بعض المؤثرات تكون ذات أثر بيّن في بعض أنماط افتتاح الخطاب بـــين الأقـــرباء خاصة من أقارب الدرجة الأولى ؛ فللعامل الديني أثر كبير في تليين افتـــتاح الخطاب الموجه إلى الوالدين خاصة إلى الأم ، حيث تستعمل في مثل تلك الخطابات الأفعال المساعدة وعبارات التبجيل . كما يكون للمستوى العلمي — في الغـــالب — دور في مخاطبة الوالدين أولادهم بدرجة من الندية والاحترام تتجلى في خـــلو الافتتاح من الأوامر وعلو الصوت واستخدام الصيغ نفسها التي يستخدمها الوالـــدان في مخاطبة الأصدقاء . أما العامل الاقتصادي فلا يشك أن تحسن الوضع الاقتصـــادي لأفـــراد الأســـرة يتوازى مع ارتقاء في درجة الخطاب وانتقاء لطرق

افتتاحه، خاصة أن عوامل الإغراء واحتمالات الحرمان من بعض المزايا المالية تفرض علـــى مـــن يـــتوق إلى الحصول على موقع في إطار الأسرة أو مكسب مادي أن يـــتوخى الحذر لئلا يقع في الأخطاء التي تغضب من بيده منح مثل تلك المواقع أو المكاسب .

وأخــيراً يكون للغة الأصدقاء بعض السمات في طرق افتتاح الخطاب تتوقف على المرحلة العمرية وطول فترة الصداقة وبعض الطباع الشخصية التي يصعب أن يوضع لهـــا ضـــابط . لكن الاختلاف بينها في الحالات النابعة من مواقف اتصال مباشر يـــتوقف غالباً على درجة وضع المتكلم نفسه على سلم اللباقة ؛ إذ تختلط في كثير مـــن خطابـــات الأصـــدقاء (وغالباً يكون ذلك أيضاً في طريقة افتتاح الخطاب) الوقاحة مع الحميمية أو المزاح خاصة لدى الذكور .

أمـــا في التواصل غير المباشر فطبيعة نقل الخطاب في هذه المستويات تفرض اختلافاً عن التواصل المباشر. وأقدم هذه الطرق ما يمكن أن نطلق عليه " الرسالة التقليدية"، ولهذا النمط من الخطابات طرق افتتاح أبرز ما يميزها اعتمادها على خصائص اللغة المكتوبة التي تختلف عن طرق التواصل باللغة المنطوقة في الأنواع السابقة .

عـــدا التباين بين لغة الرسالة التقليدية والأصناف الأخرى في المضمون والذي ليس موضع بحث في هذا السياق ، فإن مستوى اللغة يرقى غالباً في لغة الكتابة إلى أعلى مســـتوى خاصة في لغة الرسائل التقليدية التي ارتبطت بالأصناف الأدبية الراقية ؛ وتـــبعاً لذلك نجد الافتتاح يتماشى مع الأنماط الموطرة أدبياً وثقافياً . وفي كثير من كليشـــات الافتتاح يصعب تغيير أي من عناصرها ، في مثل لفظ " جناب " الذي ارتـــبط ردحاً طويلاً من الزمن بالألقاب السابقة لاسم المرسل إليه ؛ سواء كانت رســـالة رسميـــة أو شخصية ، ولفظ " حضرة " الذي كان أقل وروداً ، لكنه كان يســـتخدم دون وعي بأصله ودلالته ودون أن يستبدل به لفظ آخر من ألفاظ اللغة

العـــربية الكـــثيرة في هـــذا الشأن . وهما لفظان شاع استخدامهما في فترة الهيمنة التركية على المنطقة العربية .

كمـــا رســـخت عبارة " أما بعد " قبل الدخول في موضوع الرسالة في الخطابات الـــرسمية مـــنذ الفترات الإسلامية الأولى ، وبقيت إلى الآن عنصراً من أهم عناصر افتـــتاح الخطاب الرسمي . وفي بعض الحالات تستبدل بها عبارة " وبعد " (أي : بعد أن أنعت المرسل إليه بالنعوت الملائمة التي يستحقها وألقي عليه التحية الواجب إلقاؤهـــا أتوجه إلى شرح موضوعي الذي من أجله كتبت الرسالة) . فهي عنصر يعلن نهاية الافتتاح وبداية جوهر الموضوع .

أمـــا الرسائل الالكترونية فقد خلت من أطر الافتتاح التقليدية بسبب عدم نشوئها مـــن تـــراث عربي ، وكون موضوعاتها عملية بحتة بين الأفراد العاملين في مؤسسة واحدة (إما في مناطق مختلفة أو في فروع متباعدة في منطقة واحدة) ، أو شخصية بـــين أصـــدقاء يتواصلون بالبريد الالكتروني . وفي كثير من الحالات تخلو حتى من الديـــباجة ، لأن الاسم والعنوان يُدخلان في صندوق الإرسال ، وليسا ضمن نص الرسالة .

وفي الرســـالة الهاتفية تنعدم أساليب الافتتاح ، حيث يحل رقم الهاتف محل صندوق الإرسال في الرسالة الالكترونية . ونظراً لكون هذا النوع من الرسائل مقتصراً على تبادل الملاحظات أو النكات أو تحديد المواعيد وتأكيد بعض الأمور بين الأصدقاء ، فـــإن جوهـــر الرسالة هو المهم في الأمر ، وعادة يكون هناك لقاء سابق أو لاحق لوقـــت إرســـال الرسالة . ومع ذلك فقد تحتوي بعض ألفاظ تنبه أو تعطي دلالة محددة لمضمون الرسالة ، مثل : " أقول " أو " يا مطنش " وما أشبههما .

ومـــن التواصل غير المباشر الخطاب بواسطة الهاتف ، وهي الطريقة التي تختلف عن طـــرق التواصـــل المباشر وأيضاً عن الطريقة المذكورة آنفاً في التواصل غير المباشر

بكتابة الرسائل ، حيث يكون المخاطب متابعاً لمراحل الخطاب واحدة بعد أخرى . لكنه توجد أحياناً أعراف اجتماعية تجعل افتتاح الخطاب الهاتفي مختلفاً من مجتمع إلى آخر .

فقد درست ، على سبيل المثال ، ماريا سيفيانو [٧١] الاختلافات بين المجتمع الإنجليزي واليوناني ؛ فوجدت أن الإنجليز بالإضافة إلى الافتتاح المعتاد hallo أو الكلمة المستخدمة بشكل أقل yes لدى المخاطب ، يقوم كثير منهم بقراءة رقم الهاتف وأحياناً ذكر اسم العائلة . وبالطبع يكون الهدف من هذين الإجراءين الأخيرين تمكين المتكلم من التأكد إن كان قد تواصل مع من يريده ، وإلا فليوفر وقته ونقوده ، كما يفترض وجود سبب آخر لذلك الافتتاح هو عدم الثقة في أنظمة الاتصال الهاتفي الموجودة . في المقابل لا يمكن أن يرد المخاطب في اليونان بذكر رقم هاتفه أو اسمه (وإن أعطى اسمه فليس اسم العائلة كما هي الحال في إنجلترا أو ألمانيا) أو عنوانه ، رغم وجود كثير من المشاكل في أنظمة الاتصال الهاتفي في اليونان . أحد الأسباب التي تدعو المجتمع اليوناني إلى عدم إعطاء الرقم أو الاسم هو أنهم يحسون بذلك أنهم يشجعون المزعجين على معاودة الاتصال . وهذه المشكلة ليست خاصة باليونان ؛ فمكالمات الإزعاج كثيرة في إنجلترا ، خاصة المكالمات البذيئة . ويوجد في تعليمات دليل هاتف بريطانيا طرق للتعامل مع مثل تلك المكالمات ، واحدة منها عدم إعطاء الاسم أو العنوان.

أما في المجتمعات العربية فالأمر مختلف في الثقافة ، وإن كانت عناصر الخدمة موجودة بشكل يتقارب مع ما يوجد في المجتمعات الأخرى . فأولاً نسب عدد خطوط الهاتف إلى عدد المواطنين متدنية جداً في العدد الأول وخاصة في القرى والأرياف ، وثانياً تاريخ دخولها إلى المدن العربية متأخر جداً عن زمن وجودها في

---

[٧١] انظر : M. Sifianou : On the telephone again ! Differences in telephone behaviour : England versus Greece . Language in Society , 18 (1989) , p. 531 .

الــدول التي لم تكن تحت الاستعمار أو التخلف ، وثالثاً ثقافة العربي في التعامل مع الهــاتف تشبه تعامله مع زيارة الغريب . ولذلك نجد طريقة السؤال عند الرد على الهــاتف والــتحقيق الذي يجريه بعض من يستقبلون المكالمات للتعرف أولاً على المتصل وأهدافه من الاتصال وسلامة العلاقة بينه وبين من يطلبه على الهاتف ؛ ولهذا الســبب فــإن الــرد بذكر اسم صاحب الهاتف (خاصة إذا كان هاتف المنزل) مســتبعد في الثقافة العربية ، وإذا ذكر المتصل بأنه قد يكون مخطئاً ، فإن الشك هو الــذي يتبادر إلى الأذهان قبل تصديق تلك الدعوى . أما إن كان المطلوب أنثى ، فإن أموراً أخرى تحول المنزل إلى دار حرب .

وفي افتــتاح المتكــلم يكون الأمر أكثر تبايناً بين المجتمعات وبين الأفراد في المجتمع الواحــد تــبعاً للموضــوع المراد الحديث فيه والعلاقة بين طرفي الخطاب . ففي المجــتمعات الغربية يقوم المتصل أولاً بالتعريف بنفسه (باسم العائلة إن كان متصلاً بموقع عمل يرد عليه فيه من لا يعرفه أو باسمه الأول إن كان متصلاً على قريب أو صديق) . ثم يسأل بعد ذلك عن إمكان مكالمته من يريد أن يتحدث معه ، إن لم يكــن هــو مــن رد عــليه خلافاً للمجتمعات الشرقية التي لا يعطي المتصل فيها معــلومات عن نفسه إلا إن سئل ، وأحياناً لا يعطي حتى إذا سئل عن ذلك ، بل توجد حالات تعد ذلك تدخلاً من المجيب في أمر لا يعنيه . وفي مقابل ذلك الشح في المعلومات الأولية الأساسية ، نجد المتكلم في كثير من المجتمعات الشرقية يطيل في ذلــك الافتــتاح ، ويسأل عن كل شيء رغم أنه — غالباً — لم يعرّف بنفسه، بل يترك ذلك إلى قدرات المجيب ، وبذلك يجعل المرحلة الأولى من الخطاب صعبة على المجيــب (وقد يكون هو غير المخاطب المعنيّ) ؛ فهو بين أن يبقى محرجاً من عدم الإجابة قبل أن يعرف مع من يتكلم ، وبين أن ينقل المعلومات المطلوبة على أساس من الاعتقاد بأن المتصل له الحق في الحصول عليها .

وتوجـــد أوضـــاع خاصـــة لافتتاح هذا النوع من الخطابات تختلف عن الحالتين الســـابقتين المرتبطتين باتصال بشخص في بيئة عمل أو بيئة خاصة ؛ هذه الأوضاع تتعـــلق بالاتصالات الهاتفية من أجل الحصول على شيء معلن عنه (وأشهر أمثلته الاتصـــال على أصحاب الإعلانات التجارية أو للبحث عن وظيفة) ، أو من أجل الاشتراك المفتوح في برامج حوار إذاعية أو تلفزيونية .

فالـــنوع الأول يكـــون عـــادة عملياً ودقيقاً ، ويحرص المتصل فيه على استخدام العـــبارات المناســـبة في مثل ذلك الموقف ، لأنه يرتبط بفائدة تعود عليه بالنفع إن حصل على ما يرغب في شرائه بسعر مناسب أو حصل على الوظيفة المعلن عنها .

ففي حالة الاتصال الهاتفي بعد قراءة الإعلان عن سلعة معروضة للبيع أو عن رغبة في شـــراء ســـلعة يملكها قارئ الإعلان يكون الافتتاح متأرجحاً بين ذكر الإعلان الـــذي قرأه المتصل (وأحياناً أيضاً ذكر اسم الجريدة التي ورد فيها الإعلان) وبين ذكـــر مضمونه والتيقن من صحة المعلومات وكون هذا الرقم هو رقم المعلن وأن الحاجة ما زالت موجودة ولم تقض إلى الآن . كما توجد بعض الحالات التي ينطلق المتصـــل فيها من عرض ما لديه ، أو السؤال عن سعر السلعة المعروضة إن لم يكن مذكوراً في الإعلان ، وربما السؤال عن مكان السلعة وعنوان المعلن إن كانت من السلع التي يحتاج المشتري إلى رؤيتها بعد وصفها (كالمنزل أو السيارة) .[٧٢]

وفي الاتصـــالات المرتـــبطة بإعلانات عن وظائف يكون الأمر أكثر تأنياً وتأدباً في الانـــتقال من خطوة إلى أخرى ؛ لأن طريقة المتصل في السؤال عن الوظيفة المعلن عـــنها ونوع الأسئلة تنم عن شخصية المتقدم للوظيفة ، ويكون لها دور في إعطاء الأفضـــلية لـــبعض المـــتقدمين من خلال ما تكشف عنه من جوانب شخصياتهم وتوقعاتهم .

---

[72] انظر عن محادثات البيع بعض المراجع المتخصصة مثل : H. Henne ; H. Rehbock : Einfuehrung in die Gespraechanalyse . Berlin / New York , 2. , verb. u. erw. Aufl. 1982 .

وفي أثناء إجراء الاتصال من أجل طلب الوظيفة تنشأ في بعض الحالات مواقف غير تقـليدية تتطـلب استخدام أساليب افتتاح غير معتادة يتبينها المتصل عندما يفاجأ بقوالـب لغويـة تختلف عن تلك التي قدمت في الإعلان . وهنا تبرز المهارات التي يـتميز بهـا شـخص عن آخر في إطلاق الإشارات المرغوبة التي تحفز المعلن على الاستمرار في محاولة اكتشاف قدراته ، وربما الانتقال إلى الخطوة التالية من لقاء أو مقابلة شخصية .

ولـتحقيق النجاح في مثل تلك المحادثات لا بد أن تكون محاور الافتتاح تمثل معابر انتقال إلى مجريات الحوار اللاحقة التي تستقصي المعلومات لكل من الطرفين لصالح الطرف الآخر ، خاصة إذا كان صاحب القرار يوجد على الطرف الآخر من الخط الهـاتفي ؛ فهـو يبني جزءاً من تقويمه الإدراكي لخطاب طالب الوظيفة من خلال اسـتراتيجيات الانتقال من مرحلة إلى أخرى ومن خلال افتتاح خطابه ووسائله في ذلك ومن خلال التأدب في تقديم نفسه .

وبالطـبع لا توجد صيغة مثالية في افتتاح هذا النوع من المحادثات لأن الأمر برمته يتعـلق بتقويم شخصي من المعلن عن الوظيفة من جهة ، وباحتياجات مختلفة تتعلق بطبيعة الوظيفة التي يرغب في التعيين عليها . ومن يصلح لوظيفة معينة ليس هو — بالضرورة — من يصلح لوظيفة أخرى .

أمـا النوع الثاني الخاص بالاتصالات من أجل الاشتراك في حوار مفتوح أو برنامج مسابقات إذاعية أو تلفزيونية ، فإن عدة عوامل تؤثر في اختيار عبارات الافتتاح ؛ منها نوع البرنامج والقناة التي تستضيفه والموضوع وإدارة الحوار والجمهور المشترك في ذلك البرنامج .

وقـد ظـلت مثل تلك البرامج والحوارات بعيدة عن ثقافة الشعوب العربية فترات طويلة جداً لم يكن المجال فيها مفتوحاً سوى لبعض الإهداءات في الإذاعات العربية

التي تقدم مختارات غنائية بناء على طلب المستمعين . وفجأة في عقد التسعينات من القـــرن العشـــرين انفـــتح المجال دفعة واحدة لأعداد كبيرة من البرامج الحوارية في السياسة والرياضة والفن وموضوعات الفكر والقضايا الاجتماعية في أغلب القنوات التـــلفزيونية التي أخذت تتبارى في جذب المشاهدين بتوظيف بعض القادرين على إدارة دفـــة الحـــوار في بعضـــها ، وبعض القادرات على جذب الانتباه بالشكل والابتسامة وسعة الصدر .

ومـــع ذلـــك التـــنوع الكبير في تلك البرامج بدأ الناس يتجاوبون مع هذه الثقافة الجديدة بطرق غير معهودة ؛ فأصبح بعضهم يرغب في الاستفادة من تلك الفرص المفـــتوحة ، وبعضهم يرغب في المشاركة فقط من أجل المشاركة ، وبعضهم أيضاً يـــرغب في الاتصـــال من أجل لذة الحديث مع من تبهرهم أشكالهم على الشاشة الفضـــية . وبذلك اختلفت أشكال افتتاح مثل تلك المحادثات تبعاً للعوامل المؤثرة المذكورة أعلاه والأهداف المرجوة من ذلك الاتصال .

ولو استعرضنا الأشكال المتعددة للنمط الأول ، لوجدنا بعض العبارات التي تتراوح بـــين شكر مقدم البرنامج على إتاحة الفرصة أو طرح ذلك الموضوع المهم (وربما في بعـــض الحالات ذكر تميز تلك القناة) وبين شكر المشاركين في الندوة أو اللقاء (إن كـــان هـــناك مشاركون) ، وفي حالات الاستعجال ترد عبارات مثل : " لي مداخلة أريد أن أساهم بها ... " .

وفي النمط الثاني نجد ذكر اسم المتصل وتكراره لما قاله الآخرون والادعاء بأنه يمثل قطاعاً عريضاً من جمهور تلك القناة أو الجمهور المعنيّ بموضوع الحلقة وتميز ما يريد قوله دون أن يكون محدداً في أي رأي يقوله ، أو حتى في بعض الحالات لا يتعلق ما يقوله بموضوع الحلقة مطلقاً .

أمـــا النمط الثالث فهو الذي يمثل ضربية الانفتاح على فكر الحوار غير المعهود في الـــثقافة العربية ؛ وتمثله عبارات مثل : " السلام عليكم " ، " مساء الخير يا أخت ... " ؛ " ممكـــن أشارك ؟ " . وفي بعض الحالات يكون الافتتاح بعبارت مطولة تلـــتهم الوقـــت بكامله (خاصة مع تحديد المشاركة في بعض البرامج لكل متصل بدقيقـــتين أو ما يقاربهما) ؛ حيث يشتمل حوار واحد : " السلام عليكم ! كيف الحـــال يا أخت ... ؟ ويش أخباركم ؟ ممكن أكلم ضيفكم ؟ (في بعض الحالات لا يعـــرف حتى من هو الضيف) [وبعد الإحالة إلى الضيف . أو تدخل الضيف بـــالقول : أسمعك] تعود مقدمات الافتتاح مرة أخرى : " السلام عليكم ! كيف الحال يا ... ؟ ويش أخبارك ؟ ... إلخ . وبذلك ينتهي الوقت المتاح . وفي حالات شديدة الغرابة تصدر في مثل تلك الاتصالات عن بعض المتصلين عبارات تغزل أو إيحـــاءات تكشـــف عـــن هدف المشاركة ، وتجعل بعض القنوات تسعى إلى قطع الاتصال عندما تصل إلى ذلك الحد .

وأخيراً فيما يتعلق بافتتاح الخطاب في الهاتف المتنقل توجد بعض الاختلافات حتى في المجـــتمع الواحد تبعاً لمتغيرات منها : عامل السن ووقت الاتصال وكلفته وسبب الاتصـــال في بعـــض الحالات . لكن كثيراً من سمات الاتصال بهذه الوسيلة تفقد قيمـــتها لوجـــود أسباب أخرى تدعو الأفراد في المجتمعات العربية إلى اقتنائه وإلى اســـتخدامه فيما لم يكن أعد من أجله . فحيث يكون التباهي سبباً في اقتنائه فإن إطالـــة الافتتاح واستعراض الأسماء وطبيعة الرد تكون من مقومات ذلك الهدف ؛ وإذا كانت الرغبة في معرفة مكان الآخرين دائماً وقطع خصوصياتهم ، فإن السؤال عـــن المكـــان سيكون هو السائد في افتتاح الاتصال . بالطبع يوجد من يعلن عن الـــتحول مباشرة إلى الهاتف الثابت رغبة في تقليل التكاليف أو تفادي الضرر ، إلا

إن كـان الهـدف هـو الاستعراض أو قطع الوقت أثناء الانتظار أو الابتعاد عن الآخرين أو التحرش بأحد ، فإنما الوسيلة التي تمكنهم من تحقيق تلك الأهداف .

اختلاف الأنماط اللغوية

توجد اختلافات جذرية بين اللغات البشرية في وضع كل منها نمطاً مختلفاً عن أنماط الـلغات الأخـرى ، وقـد تتفق بعض اللغات في الخطوط العريضة للنمط ، لكن تطبيقاته تختلف تبعاً للآليات الموائمة لحاجات التخاطب في المجتمع .

وأكـثر هـذه الأنماط شهرة هي تلك التي تصنف خطاب أفراد المجتمع إلى فئتين ؛ إحداهما تشمل الرب والأصدقاء والأقارب والأطفال والحيوانات الأليفة ، وأخرى تشمل بقية أفراد المجتمع . ويقابلها بالطبع – منطقياً – أنماط اللغات التي لا يوجد بين أفراد المجتمع فيها فروق خطابية ، وهو النمط الثاني ، بالإضافة إلى ذلك توجد أنماط لغوية تزيد عن النمط الأول أو تقع بين النمطين .

ويمثل النوع الأول كل من الفرنسية وبقية اللغات اللاتينية والألمانية ؛ ففي الفرنسية مـثلاً يوجـد مستويان للخطاب ؛ أحدهما تكون صيغ خطاب الفرد فيه مساوية لصيغ خطاب الجماعة وكذلك الضمير الذي لا يختلف عن ضمير الجمع المخاطب vous ، بيـنما تكون صيغ خطاب الفرد في المستوى الثاني هي الصيغ المعتادة في نظـام الـلغة للشخص الواحد المخاطب ، ويكون الضمير أيضاً هو ضمير المفرد المخـاطب tu . وفي الألمانية يوجد النمط نفسه ، لكنه يختلف عن طريقة اللغات اللاتيـنية في كونـه يسـتخدم للفرد المخاطب المبجل صيغ خطاب الجمع الغائب (وليـس الجمع المخاطب كاللغات اللاتينية) ويتساوى الضمير (أو أداة الخطاب الموجـه إلى ذلـك الفرد) مع ضمير الجمع الغائب sie (يختلف عنه كتابياً فقط بكون الحرف الأول S يكتب كبيراً في حالة التبجيل ، أما نطقاً أو كتابة في بداية الجملة فتتلاشى الفروق) ، ويستخدم في المقابل للفرد الذي ينتمي إلى فئة المقربين

(أو المحتقرين) الصيغ المعتادة في نظام اللغة للشخص الواحد المخاطب ، ويكون الضمير أيضاً هو ضمير المفرد المخاطب du . وتتميز الألمانية في هذا النمط عن اللغات اللاتينية بكونها قد صنعت نظاماً خاصاً لمخاطبة التبجيل (سواء كان فرداً أو جماعة) بينما استعارت اللغات اللاتينية صيغاً موجودة في نظم تلك اللغات لاستخدامها في خطاب التبجيل .

ويمثل النوع الثاني اللغة الإنجليزية ولغة البهاسا في إندونيسيا ؛ في الأولى لا توجد مستويات للخطاب تستخدم فيها ضمائر مختلفة أو صيغ متعددة من الأفعال تبعاً لمكانة المخاطب ؛ فالأفراد مهما كانت المنزلة التي يتمتعون بها يخاطبون بصيغة واحدة محددة للفرد المخاطب هي في حالة الضمير you وما يتلاءم معها تركيبياً مثل النسبة your ، yours ، وفي حالة الفعل تستخدم الصيغة المستخدمة مع بقية الضمائر عدا الغائب ، وكذلك الحال في الأفعال المساعدة التي تسند إلى ضمير المخاطب .

لكن الإرباك الذي لا علاقة له بمستوى الخطاب في هذه الحال هو الصادر عن اتفاق صيغ خطاب الجمع مع صيغ خطاب المفرد (دون أي تمييز بين شخص وآخر حسب علاقته بالمتكلم أو منزلته في المجتمع أو سنّه) . وهذا من المشترك اللفظي الذي ينشأ في أغلب اللغات نتيجة تطورات صرفية وتركيبية متعددة . وتتغلب عليه اللغة إما بمعرفة المتلقي لظروف الخطاب ، وبالتالي يعرف أن المخاطب واحد أو أكثر ، أو بمساعدة عبارات تضاف لإزالة اللبس مثل all of you إذا كان المخاطب جمعاً ، ويريد المتكلم التفريق بينه وبين المفرد ، إذا كان السياق يسمح بالاحتمالين . الاستثناء الوحيد في اللغة الإنجليزية في هذا الشأن هو الخطاب الموجه إلى الملكة ؛ حيث تستخدم صيغة Your Majesty ، أو إلى الأمير بصيغة Your Highness .

وفي لغـــة البهاســـا الإندونيسية التي انتشرت بوصفها اللغة القومية يتحد الناس في مســـتوى الخطاب ، مما جعلها لغة أكثر ديمقراطية ، وساعد على انتشارها في لغة الخطـــاب السياسي . وقد أصبحت ضرورية للجاويين في بعض السياقات الخاصة الـــتي تـــتعطل فيها القدرة على استخدام اللغة الجاوية . ومن هنا أصبحت اللغات المحلية مثل الجاوية تستخدم فقط عندما يريد المتكلم التعبير عن أشياء حميمية، عندما تكون ظلال المعنى الدقيقة من الاحترام أو صنع المسافة ضرورية خاصة عندما يكون الكلام بحضور كبار السن من ذوي الأهمية .

فـــلا يوجـــد في تلك اللغة القومية سوى مستوى واحد من الخطاب تستخدم فيه إحدى صيغتي خطاب المفرد ente أو kamu ، كما تستخدم فيه إحدى صيغتي خطـــاب الجمع skalen أو kame . ولا فرق بين أي من الصيغتين فيما يتعلق باحترام المخاطب أو العلاقة بينه وبين المتكلم سواء في المفرد أو الجمع .

والبهاســـا كغيرها من اللغات المولدة مثل لغات الأفريكانز والسواحلية والمالطية لم تكـــن لتصبح لغة رسمية لولا بساطتها وسهولة استخدامها لدى الطبقات الدنيا من المجـــتمع التي كانت تستخدمها بوصفها هجيناً من اللغة المحلية ولغات المستعمرين الذيـــن يضـــطرون للـــتفاهم معهم ، لكنهم لا يجيدون لغاتهم الأصلية . وفي نهاية المطاف أصبحت لغة مقعدة ، وتعلمها أبناء الشعب من ذوي اللغات المختلفة .

وربمـــا يكون أحد أسباب نجاح الإنجليزية عدم بقائها في الالتزام بطريقة المستويات المختـــلفة في الخطاب الموجودة في لغات النمط الأول ، والشيء نفسه ينطبق أيضاً عـــلى لغة البهاسا في إندونيسيا التي تمكّن مستخدمها من الحديث عن أي موضوع دون الالتزام بمستوى معين من الكلام ، الأمر الذي لا تخوله اللغة الجاوية . [٧٣]

---

[73] انظر : R. Wardhaugh : An Introduction to Sociolinguistics . 2nd Edition . Oxford (UK) & Cambridge (USA) : Blackwell , 1992 , p. 277 .

فمما يزيد عن النمط الأول بمكن التمثيل باللغة اليابانية التي تعرف أربعة مستويات مختلفة ؛ يستخدم الأول منها مع ذوي الشأن المرتفع ومدراء العمل والسيدات وهو الـــذي يصاحبه الضمير Anata وتختلف الصيغ الفعلية المستخدمة معه عن الجمع المخاطب (كما في الفرنسية) أو الجمع الغائب (كما في الألمانية) ؛ إذ تستخدم له صـــيغ خاصــــة ، ويستخدم الثاني مع الأقل شأناً من المتكلم وهو أسلوب الخطاب الذي يصاحبه الضمير kimi ، والثالث يستخدم في التحدي خاصة بين الخصوم في مـــبارزة الساموراي ، ويصاحبه الضمير omae ، والرابع يستخدم بين الأصدقاء وضميره anta (صرفياً مشتق من الأول) . وتستخدم مع المستويات الثلاثة الأخيرة صـــيغ الفعـــل المســـتخدمة للمفرد المخاطب . كما يوجد مستوى خامس خاص بمخاطبة الإمبراطور ، ولا يستخدم لغيره ، وهي الصيغة نفسها المستخدمة للرب ، لأن الإمبراطور كان رباً ؛ وتسبق جميع الصيغ الفعلية في هذا المستوى السابقة "o" التي تميزه عن غيره .[٧٤]

ومـــن الأنماط اللغوية التي تقع بين النمطين الأول والثاني ما يوجد في اللغة العربية ؛ حيـــث وجـــد فيهـــا مـــا يسمى خطاب الملوك في العربية القديمة ، وهو خاص بالاســـتخدام في حضرة الملوك فقط ، وتستخدم فيه صيغ جمع المخاطب المذكر في الضـــمائر والأفعال ، ولم يكن ذلك المستوى منتشراً أو كثير الاستخدام . غير أن العـــربية في فـــترة ســـيطرة الأتراك جنحت إلى تعدد مستويات الخطاب بعبارات خطـــاب ملازمـــة لكـــل مستوى ؛ فصاحب السلطنة وصاحب العظمة للسلطان والمـــلك و "أفـــندي" المأخوذة أصلاً من اليونانية "افنتيس" effentiss (ومعناها الرجل الذكي) تستخدم لمخاطبة شقيق السلطان أو ولي عهده أو حكام الولايات.

---

[74] أشكر زميلي Yusuke Sato على تفضله بالتفصيل في شرح هذه المستويات من الخطاب .

ثم انتقلت إلى لقب للسلطان نفسه ، [٧٥] كما تستخدم في مصر بإضافتها إلى ضمير المتكـــلمين (أفندينا) للإشارة إلى الباشا محمد علي بالذات . وتعددت في اللهجة المصرية الألقاب المصاحبة للخطاب ؛ فاستخدمت " يا هانم " في خطاب السيدات (في الشـــام: خــــانم) ، و " باشا " أو " بيه " في خطاب الرجال ، و " أفندي " نفسها أعيد استخدامها في خطاب المدرسين أو الموظفين (الكتبة) ، و " أسطة " لطبقة العمال ، و " حضرتك " أو "جنابك" لإظهار الاحترام (خاصة في الثانية من ذوي المقام الأدنى للمقام الأعلى) . أما " يا حضرة " فيستخدمها البسطاء لمن هو في مقـــامهم ولا يعـــرفون اسمــــه . كما وجدت في إطار العائلة ألقاب يستخدمها الصـــغار في مخاطـــبة من هم أكبر منهم (بفارق كبير من السنوات) ؛ فالأخت الكـــبيرة تستخدم في خطابها كلمة " أبلا " (وتستخدم أيضاً في خطاب التلميذات لمعلماتهن) ، والأخ تستخدم في خطابه كلمة " أبيه " .

وفي العربية الحديثة يوجد مستويان من الخطاب — غالباً — في اللغة المكتوبة فقط ؛ أحدهمـــا هـــو خطـــاب الملوك القديم ، لكنه أصبح عاماً في المكاتبات الرسمية عدا خطابات المحاكم التي أبقت على صيغ المفرد ، ربما لعدم إرباك القضاة بتوجيه التهم إلى جماعـــة بـــدل الفـــرد أو العكس . أما الآخر فهو الخطاب الخاص مكتوباً أو منطوقاً، وتستخدم فيه صيغ المفرد المخاطب بنوعيه في كل من الضمائر والأفعال .

مضمون الخطاب وسلطة النص

في قضـــية المضمون يبدأ التداخل بين ما يقوم به الشخص الذي يستخدم اللغة وما تحملــه اللغة نفسها من دلالات قائمة ومقولبة يعجز أحياناً المستخدم المحترف عن تحويـــرها ، ويجهل أحياناً المستخدم غير المحترف أبعادها ، ويعمد أحياناً الآسر إلى

[٧٥] انظر : طه الولي : الألقاب الاجتماعية في طرابلس أواخر العهد العثماني (جريدة الحياة ١١ حزيران ١٩٩١ ، ص ٨) .

استغلال ذلك التفاوت بين ما هو شخصي وما هو موضوعي للاستفادة الكاملة من قوة حقيقية تتمثل فيما يسمى سلطة النص .

ولا يمكـــن فصـــل مضمون الخطاب عن أهداف المستخدم من خطابه من جهة ، والصفات التي يتميز بها وموقفه من المخاطب من جهة أخرى . ولهذا يمكن تقسيم مضامين الخطاب إلى أطر يكون أساس تشكيلها معتمداً على اشتراك الأهداف مع الصـــفات والمواقـــف ، مما ينتج عنه إطار مختلف المضمون في كل مرة يختلف فيها شيء من ذلك الخليط . وفي دراسات الخطاب النظرية العامة ، أو المرتبطة بالخطاب في لغـــة بعيـــنها يشار إلى تلك الأطر بمصطلحات مختلفة مثل أغراض الخطاب أو أهدافـــه أو مقاصده . وتعدد تلك المصطلحات يعتمد في الغالب على الحقل الذي تـــدرج فيه الدراسة ، كما يكون لمدرسة البحث ومنهجها دور في التركيز على بعض تلك الأطر وإهمال بعضها الآخر .

ويمكن أن تقسم تلك المضامين إلى الأنواع التالية :

١ – الخطاب المتوازن

هـــو الخطـــاب الذي يخلو من الصفات التي تميز الأنواع الأخرى ، فهو ليس نوعاً بذاتـــه ، بل بصفات التضاد مع الأنواع التي تكون الأهداف فيها واضحة وسمات الخطاب ذات اتجاه محدد وموقف المتكلم نمطي في مثل تلك الحالات .

والحكـــم على مضمون الخطاب يكون نتيجة عملية تحليل وليست عملية تابعة من منشـــئ الخطاب ؛ وتقوم عملية التحليل هذه على تمثيل محتوى الخطاب بالاعتماد عـــلى قضاياه .[٧٦] ولأن الدلالة بشكل عام غير منضبطة موضوعياً ، فإن التحليل

---

[76] انظر : ج. براون && ج. يول : تحليل الخطاب ، ترجمة : محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٩٩٧ ، ص ١٣٢ .

أيضـــاً لا يكـــون موضوعياً ؛ فبقدر التباين بين الأفراد في فهم القوالب التركيبية وأبعادها الاجتماعية وترجمة ذلك إلى ناتج دلالي ، يكون الاختلاف بينهم في فهم مضـــامين الخطاب ، لكنه في جميع الأحوال مكسيّ بصبغة ذاتية . وبالطبع يقترب التحليل الذاتي من تحليل ذاتي آخر كلما كانت العوامل الثقافية متقاربة (السكنى ؛ طـــبيعة المجتمع ؛ درجة التعلم ؛ المستوى الاقتصادي ؛ درجة الانقطاع عن مجتمع النشأة ؛ الاختلاط بمجتمعات أخرى ، العمر ، الجنس) .

وجميـــع التحليلات في هذا النوع من الخطاب تنطلق من إعادة صنع ظروف معتادة لفهـــم الخطاب في إطارها خلافاً لأنواع الخطابات الأخرى التي تسيطر فيها على أذهان المتلقين أفكار بوجود أهداف أخرى غير ما تدل عليه القرائن اللغوية ، لكون نـــاتج الدلالة من القوالب المستخدمة في الخطاب لم تتلاءم مع إعادة صنع الظروف التي قام بها المتلقي من أجل فهم الخطاب ، كما يصنع في كل تواصل ناجح .

٢ — الخطاب الودي

تكون الأهداف المرتبطة بمضمون هذا الخطاب أكثر وضوحا من الأهداف المتضمنة في الخطابـــات الأخـــرى بســـبب كون العلاقة الودية المستهدفة أسهل في التعرف عـــليها. وتتعدد الوسائل المستخدمة التي تؤدي إلى صنع التحليل لدى المتلقي بأن مضـــمون الخطـــاب ودي ؛ وأشهر هذه الوسائل وأكثرها استخداماً إطالة محتوى الخطاب بإدراج بعض العناصر (الظروف أو الأفعال المساعدة) أو إضافة عبارات خاصـــة لهذا الغرض تجعل مضمون جوهر الخطاب غير مباشر (سواء كان طلباً أو استفهاماً أو تقريراً) من أجل إتاحة الفرصة للمتلقي برفض الطلب أو عدم الإجابة عـــن الاستفهام أو مخالفة التقرير من منطلق كون المتكلم فيها جميعاً لم يتبنّ موقفاً حاسماً تؤدي مخالفته إلى التشكيك في العلاقة بينهما.

كما تساهم عملية اختيار الألفاظ في تحول مضمون الخطاب إلى ودي بانتقاء بعض العناصر التي تدل في سياقات معينة على تصنيف إيجابي أعلى لطبيعة العلاقة المتضمنة بـين المشتركين في الاتصال ، خلافاً لكلمات أخرى حيادية أو تدل على تصنيف سلبي لطبيعة العلاقة .

وتوجـد سمات تصف بعض الخطابات الصادرة عن الأفراد بمضامين متباينة ودياً ، كمـا توجد سمات أخرى تصنف بعض خصائص الشعوب في هذا الإطار ؛ فمن السـمات الأولى مـا يدرس في علم اللغة الاجتماعي من موقع مختلف بين قطبين أحدهمـا يتعلق بأساليب المجاملة أو التملق والآخر يتعلق بأساليب التمنع (token resistance) ؛ بأن يقول " لا " وهو يعني " نعم " .[٧٧]

أما تصنيف بعض خصائص الشعوب من هذا المنطلق فتدرس في علم لغة الأعراق ، وتستقصـي صفات عرفت عن شعوب بعينها عند استخدام الخطاب بطريقة تنبئ عـن العلاقة بين المتواصلين ؛ ومنها كيفية استخدام بعض الشعوب كلمة " لا " . فاليابانيون لا يقولون " لا " على الإطلاق ، وهذا ما يحير بعض من يتفاوض معهم من أصحاب الثقافات الأخرى التي تعوّد أصحابها على استخدام أداة النفي الصريحة في كل سياق ؛ ولا يعرف غالباً أين يقع رفض اليابانيين إلا من تفاوض معهم كثيراً وعـرف استنباط مواقفهم الرافضة بأشكال أخرى . وفي المقابل نجد العرب على الطرف الآخر ؛ يستخدمون أدوات النفي الصريحة بأشكالها المختلفة ، بل إنهم حتى إذا أرادوا أن يقولـوا " نعم " في بعض الحالات لجأوا إلى نفي مضاعف مثل : " ما يخالف " ، " لا بأس " ، " لا مانع " ... إلخ . كما يلجأون في كثير من حواراتهم إلى استخدام أداة النفي في بداية المشاركة في حوار مثل : " لا ... أنا ... " .

---

[77] هذه الأساليب تستخدم كثيراً في الضيافة العربية وكأنها أمر مطلوب ؛ فحتى لو كان المرء يرغب في إجابة الدعوة أو في المزيد من المشروبات ، فعـليه أن يرفض. وإذا كان الضيف حيياً ، فعليه أن يصر أو يعطيه المزيد حتى مع الرفض ؛ لأن رفض الضيف ليس صادقاً . كما توصم هذا الأسلوب أيضاً القوافي الدالي " يتمنعن وهن راغبات " مثلما يقال في التراث العربي .

٣ – الخطاب الاحترازي

تتفق أهداف هذا الخطاب جزئياً مع أهداف الخطاب السابق ، لكن التركيز في هذا الخطـــاب يكون منصباً على حماية الذات ، وليست حماية العلاقة بين المتواصلين . ومن أبرز وسائل تحقيق الأهداف في هذا النوع من الخطابات استخدام صيغ العموم (التي يكون الإسناد فيها إلى " الإنسان " أو "المرء") أو صيغ البناء للمجهول ، أو ذكر المصدر (حسب ... ؛ تبعاً لما ... ؛ بناء على ...) . وأغلب استخداماتها في الـــبحث العــلمي وكتابة التقارير الرصينة . ومنها استخدام ألفاظ القول أو الرأي المـــنقول؛ فهـــذه الأساليب تحفظ لمستخدمها حق التراجع عن الفكرة وعدم تأييد الكلام المنقول في حال اصطدامه بمعارضة المتلقي .

هـــناك بعض الادعاءات أن لغة النساء – على سبيل المثال – تفتقر إلى القوة ؛ [٧٨] لكن لجوء النساء إلى الطريقة غير الحاسمة هو الذي يوهم أن المرأة لا تشعر أنها مخولة أن تضــع مطـــالب ، ويوجـــد بالطـــبع أمثلة تؤكد هذا الاتجاه ؛ لكن المؤكد أن القـــادرات مـــنهن عـــلى ذلك ستسعى إلى الحصول على النتيجة نفسها بواسطة الـــتعويض والتضـــامن معها إذا استخدمت الطريقة المرنة . لذلك فإن القدرة على الحصـــول على المطالب دون التعبير عنها بشكل صريح هو علامة القوة أكثر منه دلالـــة على الافتقار إليها . من أمثلة ذلك : لو طلبت البنت من أبيها أن يسمح لها بالخروج إلى حفلة ، فأجابها : " إذا أردت يمكنك الخروج " ، فإنها ربما تقرر عدم الخـــروج لعـــدم وجود الحماس في إجابة الأب ؛ فهي فهمت أن أباها يفضل ألا تخرج، فاختارت ألا تخرج . فلو كان يريد السماح لها فعلاً لقال : " نعم بالطبع ، عـــليك أن تذهبي إلى الحفلة ! " . والأب في هذه الحال لا يشعر بأنه عدم القدرة

[٧٨] انظر مثلاً : J. M. Conley ; W. M. O'Barr and E. A. Lind : The power of language : Presentational style in the courtroom . Duke Law Journal , Vol. 6 (1978).

على إصدار الأمر إلى ابنته ، لكنه لجأ إلى نظام اتصالي معتاد يتظاهر من خلاله كل منهما أنها قد اختارت عدم الذهاب ، وليس انصياعاً لأمر صدر عن أبيها . [٧٩]

غير أن الربط بين عدم المباشرة وبين النساء ليس صحيحاً في كل الثقافات ؛ فمن دراسة كينان [٨٠] لقرية تتكلم لغة الملاجاسي في جزيرة مدغشقر تبين أن النساء يستخدمن أساليب مباشرة ، بينما يستخدم الرجال أساليب غير مباشرة . لكن ذلك لا يعني أن النساء أقوى من الرجال في ذلك المجتمع؛ بل العكس هو الصحيح، إذ يسيطر الرجال على كافة النشاطات الاجتماعية ، وأساليبهم غير المباشرة تقدر بدرجة كبيرة . أما الأساليب المباشرة التي تستخدمها النساء فقد حطت من قيمة تلك اللغة .

وأخيراً ترتبط بهذا الخطاب أيضاً صفتان هما : إظهار عدم الاكتراث باستخدام عبارات مثل : " لا أدري ... " ؛ " على الله ! " واختيار درجة عامة من الدلالة تدخل تحتها دلالة العبارة المقصودة مثل: " أنت بهذا تؤذي نفسك ! " (في إقناع من يريد الانتحار ، بدلاً من التركيز على الدلالة الأخص (الانتحار) ، أو : " أتترك أولادك يصارعون مسؤوليات أكبر منهم ؟ " (بدلاً من : لماذا تهمل أولادك ؟) . ففي اتباع هاتين الاستراتيجيتين يشعر المخاطب المعنيّ أنه محفز للتفاعل ، فترتفع أسهم قبول هذا الخطاب لكل ما فيه من أشياء مصاحبة قد تستدعي التحفظات لولا ذلك التحفيز .

---

[٧٩] انظر من الفترة الإضافية : D. Tannen , That`s Not What I Meant ! : How conversational Style Makes or Breaks Your Relations with Others . New York : Ballantine , 1986 .

[٨٠] انظر : E. Keenan , Norm makers , norm breakers : uses of speech by men and women in a Malagasy community. Exploratoin in the Ethnography of Speaking . Ed. by R. Bauman and J. Sherzer . Cambridge University Press , 1974 .

٤ — الخطاب الاستبعادي العنصري

توجــد في ثقافة كل مجتمع اتجاهات نحو التقسيم الطبقي والتقسيم العرقي حسب طبقاته الاجتماعية وطوائفه العرقية ، وتمتد هذه التقسيمات إلى المجتمعات المجاورة والتي له بها صلة بأي شكل من الأشكال ؛ مما يكون في النهاية خريطة للصفات المطلوب توزيع البشر إليها داخل المجتمع وخارجه في أشكال قد تزداد هرمية أو تعاقبية حسب ثقافة ذلك المجتمع ورواسب تاريخه العنصري .

ولا نشك في أن التعامل مع الغير (خاصة بالشكل الجمعي) يوجد تصنيفاً للناس والأشياء والرموز الدالة عليها في داخل التنظيم اللغوي . وهذا التصنيف يخدم أهداف إيجاد الرموز (أو يرتبط بها) ، مما يعني وجود فرعين كبيرين داخل التنظيم: أحدهما نحن والثاني الآخرين ؛ في إطارها الأول الأساسي يعني الرمز الأول ربما كل من ينتمي إلى هذه الثقافة أو الأمة وغيرهما من المعاني الواسعة ، ويعني الرمز الثاني كل من لا ينتمي إلى هذه الثقافة أو الأمة وغيرهما من المعاني الواسعة ؛ أي أن تعريف المفهوم الثاني يكون سلبياً بنفي كل ما يخص المفهوم عنه . وبالطبع ستكون الصفات الحسنة مثبتة للفريق الأول ، وعكسها سيوصف به الفريق الثاني .

لكن هذا التصنيف لا يقف عند هذا الحد (في إطاره الأول الأساسي) ، بل تتوالى التقسيمات بشكل عنصري أو طبقي يهدف منه المستخدم إلى استبعاد فئات من صفات الصنف الذي لا تنتمي إليه ، حتى تصل في بعض الأحيان إلى مستوى الأسرة الصغيرة والفرد الواحد .

ففي الإطار الأول يوجد قديماً لدى اليونان مصطلحي " هيليني " و " بربري " ، ولدى اليهود "عبري" و " جشم " ، ولدى العرب " عربي " و " عجمي " ، ولدى النازيين " آري " و " جنس سفلي " ، واستمرت في عصرنا الحاضر بأشكال متعددة منها : " العالم الحر " و " العالم البدائي " أو " العالم الإسلامي " و " العالم

الملحد " وغيرها . كما يستمر الاستبعاد في إطارات أصغر فيما يخص بعض الفئات في المجتمع مثل النظرة إلى الأصل أو الانتماء الجغرافي أو المذهبي ، وعنها نشأت النكات التي تبدأ — مثلاً لدى العرب — بمقولة : كان فيه واحد صعيدي ... (في مصر) أو : كردي (في العراق) أو : شركسي (في الأردن) أو : حوطي (في السعودية) أو : حمصي (في سوريا) .

وقد يكون الاستبعاد على أساس بيولوجي مثل النظرة إلى المرأة التي تحملها بعض الخطابات العربية قديماً وحديثاً ؛ فمن أمثلة ذلك قديماً : " أن فلانة كانت تحت فلان " (بمعنى زوجته) . وحديثاً نجد مضمون الخطاب مستمراً بشكل أكثر عنصرية في مثل عبارة : " ... امرأة — أعزكم الله — " المستخدمة في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية .

وتصل عملية التصنيف إلى المستوى الفردي في خطابات يكشف مستخدمها عن نظرة عنصرية لجنس المتحدث عنه أو الفئة التي ينتمي إليها ، أو نظرة دونية إلى الشخص المخاطب نفسه تبعاً لهيئته ، أو نظرة نرجسية يصنف المتكلم نفسه من خلالها في درجة أعلى ممن يبادله الحديث أو يتحدث عنه . وتتمثل تلك الخصائص في خطابات مثل : " شوف دا عاوز إيه ! " (في مصر) أو : " ما أدري ويش ذا يبغى ؟ " ؛ " ويش هالرجال ؟ " (في منطقة الخليج) .

٥ — الخطاب الهجومي الجارح

يرد هذا النوع من الخطابات كثيراً في الخطابات السياسية وفي أطروحات بعض الفرق الدينية . ولا بد فيه من معرفة الموقف كاملاً والأطراف المشتركة قبل القدرة على تأويل دلالات الخطابات أو الأهداف المرتبطة باختيار أسلوبه وعباراته . وتتفاوت أصناف الخطاب اللغوي في احتواء عناصر هجومية أو جارحة ، وذلك حسب موضوعاتها وشخصيات مستخدمي اللغة في تلك الخطابات والأهداف

المتوخاة من إنتاج الخطاب . لكن أصنافاً بعينها تتقدم غيرها كثيراً في هذا الشأن ؛ وهي الخطابات التي يلجأ فيها إلى السخرية أو النكتة ، إذ يحتاج الساخر إلى صناعة صـــورة تسلط عليها أضواء تضخم السلبيات ، كما يلجأ صانع النكتة إلى كشف المفارقة المنطقية في تسلسل الأحداث في واقع مواز للواقع المعاش .

ويوصـــف الخطـــاب عادة بالهجومي أو الجارح إذا احتوى لفظاً لم يحسن المتكلم اخـــتياره ، لأنـــه يهين أحداً أو يجرح مشاعره . وتتعدد أنواع الألفاظ التي تجعل الخطـــاب ينـــتمي إلى هذا النوع ؛ فمنها ما تلازمه الدلالة السيئة إلى أحد في كل السـياقات ، ومنها ما يستخدم في غير دلالته الأصلية ليتضمن اللفظ معنى سلبياً ، ونوع ثالث يكون مقبولاً في ظرف محدد وغير مقبول في ظرف آخر ، كما يوجد نوع رابع يسبب حرجاً بسبب القيود الاجتماعية وهو ما يعرف باللفظ المحظور أو "اللامســـاس". فالمجموعة الأولى تشمل ألفاظ السباب والشتائم التي يتبادلها بعض ســـيئي الخلق في الشوارع والساسة وزعماء الطوائف الدينية ، والتي لا تحمل غير الإساءة إلى من توجه إليه ، وتدخل معها بعض النعوت التي تحل محل الأسماء المحايدة المـــتعارف عـــليها لشـــعوب متجاورة أو ذات عداوات تقليدية أو لطوائف دينية متناحرة . ومن أمثلتها إطلاق " نصراني " على المسيحي أو " رافضة " على الشيعة أو " زيـــدي" على اليمنيين بشكل عام ، أو إطلاق " محمدانيين " على المسلمين ، وكذلك إطلاق "سارازين" (Sarazen or Saracenes) أو " مورز " (Moors or Morus) على العرب . [٨١]

والمجموعة الثانية تشمل استعارات أو نقل الكلمة من حقل إلى آخر بغرض احتوائها جـــزءاً مما تحمله في حقلها الأصلي ، أو اختيار المفردات التي تتضمن ظلالاً سلبية دون الأخـــرى التي تعبر بشكل موضوعي أو مؤدب عن الشخص المتحدث عنه أو

---

[81] انظر : K. Versteegh , The Arab persence in France and Switzerland in the 10th century . Arabica 37 (1990) . p. 359 .

المخاطب . ومن أمثلتها اختيار " هذر " بدلاً من " تكلم " ، أو " ولّى " بدلاً من " غـــادر " أو " فطـــس " بدلاً من " مات " . وفي اللهجة الأردنية نجد استخدام الكـــلمات الأولى للانتقاص مقابل البديل الثاني المحايد في كل من : " ناشف " — "نحيـــف " ؛ " دبّـــه" — " ناصـــح " ؛ " خربش " — " كتب " ؛ " خرس " — "سكت"؛ " زرط " — " أكل " ؛ "عورة" — " مرة " . [٨٢]

والمجموعـــة الثالـــثة تتمثل في عبارات يمكن أن تقبل من المرء إذا قالها عن نفسه أو عمن ينتمي إليه ، لكنها لا تقبل من آخرين يساور المعنيّ الشك في أنهم يهدفون إلى الانـــتقاص من شأنه ، كما تتمثل في عبارات تكون محايدة أو وصفية في سياق ، لكـــنها هجومية أو جارحة في سياق آخر ، مثل عبارة : "والله إنها شقفة ! " (إذا قيلت لغير المعنية ، فإنها تعني الإعجاب بجمالها) ، أما عبارة : " والله إنك شقفة !" (إذا قيـــلت للمعنية ، فإنها تكون جارحة وتدخل حسب الأطر الاجتماعية ضمن التحرش بالفتاة) . [٨٣]

أمـــا المجموعـــة الـــرابعة فهـــي العبارات أو الألفاظ التي يفرض المجتمع قيوداً على استخدامها لدى جميع أفراده أو بعضهم . وتشمل في أغلب المجتمعات فئات ثلاث؛ أولاها الفئة المحرمة دينياً ، والثانية الفئة المحرمة بسبب دلالتها الجنسية ، والثالثة الفئة الـــتي يـــنفر مـــنها الناس لأسباب سياسية . وبالرغم من أن هذا الثالوث (الدين والجنس والسياسة) يشكل أغلب مفردات أي ثقافة ، إلا أن لغة المجاز هي السائدة في موضوعاته من تلميحات ومبالغات ومحاولات تهوين وسخرية واستعارات . وفي تلك الموضوعات تفتقد الصراحة والإشارة المباشرة إذا ارتبطت بحساسية اجتماعية، وتتـــباين تـــلك القيود تبعاً للعرق والطبقة والعمر والجنس ، كما يختلف التجاوب

---

[82] انظر : M. Farghal , Dysphemism in Jordanian Arabic . ZAL 30 (1995) , p. 55

[83] انظر المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

أيضـــاً تبعاً لتلك العوامل نفسها . وفي بعض المجتمعات المنفتحة في مناقشة القضايا الاجـــتماعية تتضاءل قوة التحريم في المصطلحات الجنسية ، وتفقد بذلك كثيراً من قـــوة الصدمة عند استخدامها ، فتخرج من دائرة الألفاظ المحظورة (وبذلك تصبح أيضـــاً خـــارج دائرة الخطاب الهجومي الجارح) ، كما هي الحال في مجموعة ما يسمى F-words في الإنجليزية (fuck ومشتقاتها) ؛ وفي المقابل يزداد الحظر على ألفـــاظ في الحقـــل السياسي تسبب بلبلة في المجتمع أو تؤدي إلى الفرقة العرقية أو الطائفيـــة مثل nigger أو mad . أما في الثقافة العربية فإن اللفظ الأساسي المعبر عن الممارسة الجنسية (المقابل لمجموعة F-words) المشتق من جذر "نيك" كان يســـتخدم في عصـــر الانفتاح في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بكل صـــراحة لـــدى أمثال الجاحظ ، ثم أصبح محظوراً في عصور الانغلاق ؛ بل أصبح المحققـــون يتحاشون ذكره في المخطوطات التي يحققونها ، ويضعون نقطاً بدلاً من الـــلفظ الصـــريح . وقد وصل الحال إلى استبدال اسم آخر باسم شركة الملابس العالميـــة " نايك " ، حيث أصبحت تسمى " غرناطة " أو يوضع الرمز الدال عليها وربمـــا دوّن كتابة الاسم الدال عليها حتى بالحروف اللاتينية . وما الذي حل محل هـــذا الـــلفظ الصريح في العربية ؟ إنها عبارات مترجمة عن الثقافات الغربية مثل : العملية الجنسية أو ممارسة الحب وغيرهما ، أو عبارات صريحة من الثقافة الدينية التي لم يحظر استخدامها مثل : الجماع أو المباشرة أو النكاح .

في المقابل نجد لدى العرب حضوراً قوياً للألفاظ التي حظرتها الثقافة الأوربية الحديثة لأسباب سياسية؛ حيث تستخدم العبارات التي يعرف مدى ضررها في خلق الفرقة بين الطوائف والفئات التي تشكل بنية المجتمع ، إما بشكل صريح مثل : " البدون " في الخـــليج أو " الخضـــيري " في الســـعودية ، أو بشكل غير مباشر مثل : " من هونيك" (إشارة إلى فلسطيني الأصل في الأردن) .

٦ – الخطاب الدفاعي التصالحي

تتميز لغة هذا الخطاب بالليونة ، وفي هذا النوع من الخطابات أيضاً لا يمكن الاكتفاء باستخدام مصطلح في الخطاب للدلالة على انتمائه إلى هذا الصنف ؛ بل لا بد من ذكر الموقف ونص الخطاب الذي قيل فيه . والروح التي تسود مضمون هذا الخطاب هي روح تنطلق من إحساس بالضعف أو في بعض الأحيان باليأس ، لكنها توجد في نوعين مختلفين من المواقف ؛ إما أن يكون مستخدم الخطاب في موقف الدفاع أو التراجع بعد تلقيه خطاباً هجومياً ، أو أن يكون إزاء موقف وجد نفسه فيه يبحث عن موقع وسط بهدف إرضاء من يتواصل معه . وتنشأ غالباً المواقف من النوع الثاني بعد نقاش وجهات نظر متباينة ، ورغبة أحد المشتركين في التقريب بين الأطراف ، أو في إنهاء النقاش لانتهاء الوقت أو لاتخاذ قرار معين يوائم بين الآراء المتباينة .

ومن أمثلة المواقف الأولى : تحدث عربيان بجانبي في حافلة إنجليزية عن المجتمع الإنجليزي ، وأسرف أحدهما في استخدام عبارات مشينة في وصف الإنجليز ، أقلها أنهم حيوانات . ثم طلبا رأيي ، فقلت لذلك المتحدث : لماذا تختار هذه الألفاظ أولاً؟ ولماذا تعمم ثانياً ؟ فقال كلاماً كثيراً لإثبات أنهم حيوانات خلاصته أنهم ليسوا نظيفين ، ويقبّل الرجل منهم المرأة في الطريق . فقلت له : هذه ثقافتهم، ولا عيب لديهم في ذلك ؛ فأنت تنطلق من أحكام وأعراف توجد في ثقافتك ، وتريد تطبيقها في مجتمع لا توجد فيه تلك الأحكام والأعراف . فكأنك بذلك تقر أحكام التعميم التي يطلقها بعض الغربيين الآن على العرب بوصفهم " إرهابيين " وعلى الدين الإسلامي بوصفه حافزاً على الإرهاب وقتل النفس . وعندما طال الحديث في هذا الشأن ، تدخل الآخر قائلاً : " بلا شك أحترم وجهة النظر هذه ، ونحن لا

نزال في طور التعلم ، ومن كان أكبر منك فهو أعلم منك " . وكل تلك العبارات الأخيرة تمثل عبارات نمطية لهذا النوع من الخطابات .

ومما يدخل ضمن النوع الثاني من المواقف اختصام شخصين ينتميان إلى بلد واحد في بلد أجنبي ؛ فيتدخل شخص ثالث ويذكرهم بما يربط بينهم من وشائج قائلاً : كلاكمـــا من بلد واحد ، وهذا أمر يعيبنا أن نتخاصم أمام الآخرين إلى غير ذلك مـــن العبارات التي تدعو إلى التصالح . وهذه المواقف تحدث كثيراً بين الأقارب ؛ فتـــتردد عبارات التقريب بين وجهات النظر المختلفة للأقرباء الذين حدثت بينهم خصومة ، كما تحدث في موقع العمل إذا تدخل زميل ثالث أو رئيس معلناً حرص الفرقاء جميعاً على مصلحة العمل ، وأن الاختلاف ليس سوى اجتهادات تباينت ، وجميعهـــا تنطـــلق من حسن النية والرغبة في خدمة المؤسسة التي يعمل الجميع من أجلها .

ولا يقـــل عن ذلك تواتراً ما يحصل في اجتماعات اللجان التي تتطلب كتابة تقرير موحـــد عن أعمالها، وخاصة في نهاية الاجتماع ؛ حيث يحرص غالباً رئيس اللجنة على تقريب وجهات النظر ، وتليين الآراء المعارضة للأغلبية أو لما يريد الرئيس أن يسير التقرير باتجاهه . وفي كثير من الحالات يكون اختيار الخطاب التصالحي مفيداً في الـــتعامل مع بعض أعضاء اللجان الذين يناقشون طويلاً في أمور فرعية لا تخدم الجوهـــر ، أو يطيـــلون مـــن أجل إسماع أصواتهم أو إدخال أشياء معينة في محضر اللجنة.

٧ – خطاب التوارد

التوارد هنا يعني اتفاق بعض ألفاظ الحديث مع ما يختزنه المتلقي من عبارات جاهزة أو أمـــثال يستخدمها في خطاب يغير مجرى الحديث ؛ وذلك لكون العبارة الجاهزة أو المثل غير متفقين مع ما يتطلبه الموقف ، وكانا مجرد فكرة وردت في ذهن المتلقي

الــذي صاغ انطلاقاً منها خطاباً جديداً . ومن أمثلة ذلك ما حدث في نقاش مع أحد المعارف عن لقاءات العرب في الخارج ، وكان الحديث عن تلك اللقاءات في ســياق سـلبي ؛ فانــبرى محدثي إلى استحضار تلك العبارة الجاهزة في ذهنه " أنا وأخــوي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب " ، فصبغت الحديث روح أخرى لم تكن موجودة في السياق السابق ، وبالطبع يصعب استمرار الحديث بين صاحبي موقفين متباينين لا يعلم أحدهما أن موقفه مختلف عن الآخر .

ومــثل هذه الحوارات تصل إلى طريق مسدود نتيجة كون أحد المتحاورين لم يفهم بالضــبط النقطة التي يتحدث عنها الآخر ، أو يريد أن يغير مجرى الحديث . وغالباً يكون الشخص الذي يقوم بهذا الدور قلقاً أو ضحلاً لا يريد التركيز ، ولا يرغب في الــبقاء ضمن التسلسل المنطقي الذي تفرضه طبيعة الحوار . ويمكن أن يوصف أصــحاب هــذه الاســتراتيجية في الخطاب بضيق الأفق ؛ إذ توجد في عمليات الاســتيعاب علاقة طردية بين الفهم وسعة الأفق (وهو ما يمكن وصفه بالقدرات الذهنية الكبيرة والخبرات المتراكمة) .

وإذا انهمك المرء في الاعتناء بشيء محدد دون غيره ، وتحول هذا الاعتناء إلى عبادة، أصبح ذلك الشخص ينظر إلى كل مفهوم من واقع علاقته بذلك الشيء المعتنى به ؛ ممــا يجعلــه يفسر العبارات التي يسمعها على أساس ذلك الواقع ، ويعتقد أن مدار اهــتمام الناس لا بد أن يكون هو ما يفكر فيه . وتتعدد أنواع العبادة في المجتمعات المختــلفة مــن عبادة كرة القدم لدى الرجال إلى عبادة أزياء الموضة لدى النساء ، لكــن أشهرها وأكثرها تأثيراً ما يتعلق بالجنس ؛ فإذا كان المرء مهووساً جنسياً ، فإن جميع الحوارات معه ستسير بأثر من ذلك التوارد في المفاهيم نحو موضوع يتعلق بموضوعه الأثير .

ويجـــري في كثير من الحوارات ذات الطابع الإيديولوجي عملية اختطاف لموضوع الحـــوار ، إذا لم يسـر كما يشتهي أصحاب الإيديولوجيا — بغض النظر عن نوع تـــلك الإيديولوجيـــا أو مدى صحتها أو اتساع قاعدة مؤيديها — أو وردت فيها مصـــطلحات تتعارض مع توقعات بعض أطراف الحوار ، لأن أقوى المبادئ تحكماً في مثل تلك الحوارات هو أن المتكلم ينطلق من **حقيقة مطلقة** ، وهذه — كما هو معـــروف — لا تقـــبل الجدل ؛ وهكذا يتصل هذا النموذج بضيق الأفق المذكور أعلاه، كما أن الشخص المشارك في الحوار لن يقبل أيضاً بترك الآخر يمس حقيقته المطـــلقة . فينطلق الطرفان بالتالي من مقدمات تقع خارج الحوار ، وهو ما يقودهما إلى مسارات منحرفة في كل مرة عما تبدأ منه عملية الحوار .

٨ – الخطاب المتقلب

هذا الوصف ينبثق من وجود خلل منطقي يمنع ترابط الأفكار الواردة في الخطاب . وإذا كان ذلك الخلل ناشئاً عن جهل بتعارض المضامين ، فهو لا يتبع هذا النوع ؛ بل هو الأسلوب الذي تستخدم فيه اللغة عن وعي بدلالاتها في موقفين تتغير فيهما شـــروط المـــنطق وعلاقات اللغة بالواقع ، مما يجعل الأمر صعباً ، أن نحكم بكون أجزاء الخطاب قد صدرت عن شخص واحد .

فـــلا يمكن أن نجعل دلالات الرموز في مجتمع واحد أو بيئة واحدة مختلفة النتائج ؛ كـــأن نجعل نزول الأمطار دلالة رضا الرب في موضع ، وذا دلالة أخرى في موضع آخر . كما لا يمكننا جعل اللون الأبيض دلالة على السلم وأيضاً دلالة على الحرب في مجـــتمع بعينه ، غير أن تطبيق هذه المعايير في اللغة غير دقيق ، مما ينتج عن مثل تلك الحالات ما نسميه " الخطاب المتقلب " .

والعـــالم اليوم مليء بمثل هذا النوع من الخطابات التي تمليها مصلحة ضيقة أو نظرة غير متوازنة إلى الأمور ، مما يسمى في الفكر السياسي المعاصر " المعايير المزدوجة " ؛

وتتمــثل في أن تكون الأسس التي يقوم عليها الخطاب غير ثابتة في كل مرة تصبح الظروف فيها متماثلة . فإذا كان المرء أو الجهة أو الخطاب الرسمي لدولة من الدول يفسرون الأســس حســب الجهــات الموجه إليها الخطاب أو تبعاً لمعطيات غير موضــوعية، فإن منطقه يصبح غير مقنع ، وتصبح مصداقية منتج الخطاب موضع شــك ؛ حيــث إن المعطيات واحدة والمنتج واحد ، ولم تتغير سوى علاقة المنتج ببعض المعنيين بالخطاب أو بالأشياء المتضمنة فيه .

ويمــثل هــذا الخطاب في الثقافة العربية المعاصرة ما يتردد الآن على ألسنة العرب وتدونــه أقلامهــم من هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على الشعوب وتفردها بالقــرار وتجاهلها المنظمات الدولية التي تدعي أنها في خدمة السلام العالمي وقيادة الــنظام العــالمي الجديــد ، وذلك كله بسبب إحساس الأمريكيين بقوتهم الكبيرة وكونهــم الأقــوى عسكرياً واقتصادياً بلا منازع . ويعتقد العرب حالياً بأن ذلك عيــب أخلاقي كبير ومثلبة تنتقص من عظمة تلك القوة وتقلل من قيمة مبادئها ، لكــنهم في حــوار يسبق أو يعقب تلك الآراء التي يطلقونها يشيدون بمناقب بعض فــترات الحكم العربي القديم الذي كان يخضع الشعوب الأخرى لمصالحه بالقوة ، ويضع في كل مجال حق سيادة ثقافته أولاً ومصالحه ثانياً وآخراً . ولا يشعر العرب المعاصــرون بشيء من التناقض بين الإشادة بما كان العرب في أوج قوتهم يمارسونه والتنديد بالشيء نفسه الذي يمارسه الأمريكيون — مع شيء من التبرير أيضاً — في الوقت الحاضر ، بل ربما لا يشعرون بالخجل وهم يندون بالأمريكان ويرددون :

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا

وأنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

نُسمى ظالمين وما ظَلمنا ولكنا سنبدأ ظــالميــنا

سلطة النص

من خصائص اللغة أنها تسمح بوجود أشكال متعددة من التعابير عن أشياء محددة ، وهـو مـا يمكن أن نطلق عليه " تمدد النص " ؛ وهذا التمدد يكون مرتبطاً بسعة السـياق المحيط بتلك الأشياء . ولأن الكلام أو استخدام اللغة في الخطاب وظيفي بالدرجة الأولى ، فإن تلك العلاقة تعطي النص المتعدد أو " المتمدد " سلطة كبرى في فهم الكلام ؛ فالخطاب المستخدم يهدف منه أولاً وأخيراً الوصول إلى الإقناع ، أو كسـب القلوب والعقول ، كما يقال . وكل تلك الإجراءات لا يمكن أن تتم دون تـناول جوانـب السياق المتعددة التي تنبثق منها جذور النص ؛ فما يقال لا يكـون إنتاجه أو سماعه أو قراءته بمعزل عن علاقته بالأشياء التي لم تُقَل . فالكلام من هذه الناحية نوع من النشاط المرتبط بعمل معقد جداً .

ومن غرابة هذه السلطة أن الناس لا يجيبون السائل في كثير من الحالات عما يقول، بـل يجيـبون عما يعنيه أو يعتقدون أنه يعنيه ؛ فلو سئلت سيدة مثلاً عمن يسكن معهـا ، فإنها ستجيب بإجابة مثل : زوجي وأولادي ، لاعتقادها أن السائل يريد معـرفة إن كـان أحد من أهل زوجها يسكن معها ، ولن تتطرق إلى الخدم الذين يسكنون معها . غير أنه لو سألها الطبيب في استفتاء عن انتقال مرض بالعدوى بين الجـيران ، فإنها ستجيب عن السؤال نفسه بإجابة أخرى تذكر فيها سكنى الخدم معها ، لأنهم من النوع الذي يعنيه الطبيب . وكل اللغات — في الواقع — على هذه الشـاكلة . لا يمكـن أن يحصل المرء على إجابة دقيقة عن أي سؤال ، حتى وإن حصل على إجابته الحقيقية .

بالطبع تتفاوت قوة تلك السلطة من نص إلى آخر ومن موقف إلى موقف ، لكنها جميعاً تستمد سلطتها من افتراض أن القول مرتبط بمعنى ثابت غير قابل للتعديل ؛[٨٤] وكلما زادت قوة هذا الافتراض زادت معها سلطة النص وتحكمه في أذهان المتلقين. والكلمة المتسلطة تتطلب اعترافاً منا بأن ندخلها إلى ذواتنا ، ونجعلها تقيدنا دون وجود قوة تلزمنا بأن نقتنع بها ، وأن نكنّ لها **ولاء مطلقاً**. وتتدرج سلطات النصوص من النصوص الدينية إلى السياسية والأخلاقية ، ومن كلمات الأب إلى كلمات الراشدين أو المعلم على وجه الخصوص مع تفاوت بين المجتمعات في ترتيب تلك الأولويات أو إسقاط بعضها أو إدخال فئات أخرى كالشيخ في المجتمعات الإسلامية أو الساحر في المجتمعات الأفريقية .

فالنصوص التي تأتي من تلك المصادر تدخل في العادة إلى وعينا بوصفها كلاً متكاملاً ؛ إما أن يقبلها المرء بالكامل ، أو يرفضها بالكامل ، لأنها تكون مشحونة بقوة السلطة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية لمؤسسة أو شخص بعينه ؛ وتبقى في العادة قائمة طالما بقيت صورة من صدرت عنه سلطوية ، وتسقط بسقوط صورته. وأوضح مثال على انتكاس سلطة النص في وقت وجيز يمكن أن نورد نصوص الماركسية التي تشبعت بالسلطة في ظل اللينينية ، وبقيت قوية في ظل قوة المد الاشتراكي ؛ لكنها فقدت كل بريقها مع تحول القوى الاشتراكية إلى رأسمالية .

وفي مقابل تلك النصوص السلطوية نجد الكلمات المقنعة من الداخل قابلة للتجزئة ؛ نصفها نملكه ونصفها يملكه غيرنا ، كما أنها تقبل إعادتها إلى الحياة في حوار مستمر وتكون ذات طابع إبداعي وإنتاجي دائم ، ولا تبقى معزولة عن واقع الحياة ، مثلما

---

[٨٤] انظر في شأن العلاقة بين تسلط النص والتسليم بثبات معناه : M. M. Bakhtin , The Dialogic Imagination : Four Essays by M. M. Bakhtin , M. Holquist (ed.) , C. Emerson and M. Holquist (trans), Austin , University of Texas Press , 1981 .

هي الحال في النصوص السلطوية . وما يهمنا هنا أن بناءها الدلالي ليس نهائياً ، بل مفتوح على الدوام ؛ وفي كل سياق يعاد استخدامها فيه تنتج طرقاً جديدة للمعنى.

وإذا نظـــرنا إلى سبب اختلاف التطبيقات الكلامية وتجددها في أي مجتمع ، أو إلى تـــلك التي تميز الكلام المطلوب قوله في كل مناسبة ، وجدنا أن ما يسمى بالبيئات الاتصـــالية ، [٨٥] أو المعارف الثقافية التي يحوز عليها أولئك الناس هي ما يجعل كل ذلـــك ممكـــناً . فعلى سبيل المثال عندما يسمع المرء فقط عدة كلمات في الإذاعة خارجـــة عـــن السياق يستطيع أن يتعرف حالاً على أن تلك الكلمات جزء من مســـرحية أو من نشرة الأخبار أو من إجابات ضيف في مقابلة ، كما يتعرف على صوت شخص في الشارع .

لكـــن مـــا الـــذي يجعل تلك التطبيقات تنساق في نظام تفاعلي دقيق لا تشكل القواعـــد الصارمة أساس تكوينه ، بل نظام مرن تتحدد مصادره ؟ لا يمكن الإجابة عـــن هذا السؤال بشكل دقيق ؛ لكن ما نملك الإجابة عنه هو الوضع الذي نعرفه بكـــون الأساليب تختلط ، وتنشأ أساليب جديدة . وقد ركزت دراسات الاتصال بـــين الأجناس البشرية جزءاً من اهتمامها على وصف الاختلاف بين الثقافات في وصـــف المواقف المتماثلة . وتلك الخلفيات أو البيئات الاتصالية هي ما يجعل بعض العبارات أو الأمثال تشيع في مجتمع أو مجتمعات متعددة ، ولا يكون لها أي وجود أو معنى في ثقافات أخرى .

كما يكون لناقلي النصوص دور في إضفاء صبغة القوة وأحياناً القداسة على بعض النصوص ، مما يكسبها سلطة تفوق سلطتها الاعتيادية والمكتسبة من اللغة ، حسب مـــا أضيف إليها من قوة أو قداسة وحسب عدد الناقلين وزمن التناقل . فإذا دققنا

---

[٨٥] توجد كثير من مؤلفات علم اللغة الاجتماعي تدرس تلك البيئات الاتصالية منها : J. Gumperz , On international sociolinguistic method . Talk , Work and Institutional Order . Ed. by S. Sarangi and C. Roberts . Berlin : Mouton de Gruyter , 1999 .

في بعــض أنــواع النصوص التي تعتمد في سلطتها على التناقل مثل الإشاعة ذات الســـلطة الضـــعيفة في بدايـــة الأمر ، لكنها تقوى مع تكرار التداول والإضافات والتأكيدات التي يضفيها كل من ينقلها إلى شخص آخر . وفي الوقت نفسه تعتمد ســـلطتها على ضعف مصادر المعلومات من جهة وعلى خطورة الموقف من جهة أخـــرى ؛ لـــذا نجدها تنتشر في حالات الحروب والكوارث والفوضى والعلاقات المـــتأزمة بين الأفراد أو الجهات والدول ، كما نجد انتشارها يتزايد في الدول ذات الإعلام القمعي أو الضعيف وفي المجتمعات ذات الإيمان بالمعجزات والخوارق .

وتـــزداد عن الإشاعة في قوة السلطة الأمثال والأقوال المأثورة ؛ فالأولى تزرع القيم وتهيئ الـــناس لتقـــبل مضمون المثل أو استخلاص الحكمة منه التي يطبقها المرء في حياته لأنها مرتبطة بتراث الأجداد ، والثانية تعتمد على قيمة الشخص المأثور قوله وتعـــدد تناقلها في كتب التراث الذي يقربها من قيمة الأمثال . وبالنظر إلى بعض الأمثال العربية ذات الألفاظ الموغلة في ثقافة العرب وتفكيرهم الديني تتبين صعوبة تمعـــن المســـتخدم العادي في ألفاظ المثل أو دلالاته الفعلية ومدى مواءمتها لعصره الذي يستخدم المثل فيه ؛ لذلك يلجأ إلى استخدامه من منطلق القالب الدلالي الذي تلقاه جاهزاً بمحاذاة تركيب المثل الجاهز . ومن أمثلة هذا النوع من الأمثال الملتبسة قـــول العـــرب " إن الـــبلاء موكّل بالمنطق " ؛ [٨٦] إذ تتطلب معرفة معنى العبارة الانغماس في أبعاد لفظ " البلاء " فيما يخص التقاليد والدين ، وتتبع معاني " المنطق" المختلفة والممكنة الاستخدام في هذا السياق ، ثم إن لفظ " موكّل " ليس أيضاً من ألفاظ اللغة الدارجة . فبالتالي لو تأكد كل مستخدم من معناه قبل استخدامه ، لما اســـتخدمه أحد ؛ لكن سلطته عند الاستخدام تفوق إمكانات التوقف عند سماعه للتأكد من عدم تضاربه مع ما يقال .

---

[86] انظر عن تاريخ المثل : F. Rosenthal , The history of an Arabic proverb . JAOS 109 (1989), pp. 349

وفي درجـــة أعـــلى تأتي النصوص الدينية ، وما يرتبط بها من فكر ديني صادر عن مـــراجع ذات قـــيمة في المجتمع ، وتتفق مع توجهاته الاجتماعية والسياسية . فكل نص ارتبط بدين مطبق لفترة يتحول فيها إلى تراث يصبح ذا سلطة عليا ، وتتسابق السلطات المحلية باختلاف مشاربها في احتوائه وتوظيفه ليخدمها ويقوي من قدرتها على التحكم في أصحاب ذلك التراث . ومن أجل ذلك رأينا نابليون يعلن إسلامه ليســهل عليه احتلال مصر ، ويقلده في ذلك كثير من المستشرقين مثل سنوك هور خــرونيه الـــذي دخل مكة ، وكتب تاريخه عنها من داخلها ، كما قلده في ذلك بشكل أكثر خطورة هاري سانت جون فيلبي الذي أصبح الشيخ عبد الله ، وتمكن من خلال ذلك التظاهر من تنفيذ كل رغبات الإنجليز في شبه الجزيرة العربية بشكل خـــاص والمـــنطقة العربية بشكل عام بالتعاون مع إخوانه المسلمين وزعيمهم ابن سعود.

جهة الخطاب

سبق القول إن جزءاً من معنى الخطاب مرتبط بجهته (أو من يوجه إليه الخطاب) ؛ فـــالمعنى يتوقف على الفهم ، والفهم يكون محصلة إجراءات نفسية وبيولوجية يقوم بها من يوجه إليه الخطاب . فالعبارة لا تعني أي شيء إذا لم تفهم ، والمعنى المفهوم يكون دائماً مرتبطاً بصاحبه ؛ ففي الحقيقة لا يوجد معنى مطلق لأي عبارة منفصل عن المستخدم أو المتلقي .

ومـــا يجـــده الفـــرد ذا معـــنى يكون مبعثه الحدس والتصور والإحساس والتجربة الشخصية ؛ فما يعنيه شيء لأحد لا يمكن أن يكون معروفاً أو منقولاً بالكامل إلى أحـــد آخـــر ، ولا تعـــتمد في العادة هذه المكتنزات الشخصية على معرفة منطقية فحســـب ، بل تكون للقيم الشخصية من جانب وللرغبة في التوازن إزاء القناعات الاجتماعية العامة الدور الأساسي في تكوينها .

مــن أجل ذلك يكون القرب أو البعد من التفاهم بين أطراف الخطاب متوقفاً على كـــون المتكلم يشترك مع المخاطب في خلفيته الاجتماعية والثقافية (طبعاً لا أحد يــتحدث هـــنا عـــن الاتفاق) ؛ فكلما تباينت الخلفيات الثقافية والمعرفية والقيم والافتراضات كان الاشتراك في أسس الخطاب أبعد ، لكن قد يتحاشى الصدام بين تلك الخلفيات المتباينة ، إذا راعى المتكلم تلك الفروق بينه وبين جهة الخطاب الذي يتبناه ، وأعطاها الأهمية التي تستحقها .

وأكـــثر الأمور تطلباً للمراعاة هي توقعات المخاطب فيما يخص كيفية مخاطبته بدءاً بالافتتاح ، ثم اختيار العبارات وآليات الخطاب في إطار مركب يصنع المجتمع بعض شـــروطه ، ويضـــيف الأشخاص شروطاً أخرى ، أو يسقطون بعضها . فالشروط الاجـــتماعية تتعـــلق بالعلاقـــات بين فئات داخل المجتمع ؛ منها علاقات القرابة وعلاقـــات العمـــل وعلاقـــات المصير المشترك وعلاقات الحب وغيرها مما يوجد بأشكال فرعية ، أو في فترات زمنية محددة .

وما تشترك فيه جميع اللغات وتسن له شروطاً أغلب المجتمعات هي علاقات القرابة الهـــرمية ؛ فـــالولد يخاطب أمه أو أباه مبتدئاً بكلمة " ماما " أو " بابا " ، والأم أو الأب يخاطبان ولدهما ابتداء بكلمة "ياولدي" أو ما يقوم مقامها من تفصيل حسب الجـــنس " يـــا ابني " أو " يا بنتي " أو تصغير أو استخدام ألفاظ لهجية محببة . وقد تســـتخدم هـــذه الصيغ خارج دلالاتها اللغوية في إطار استعارة تداولية كاستخدام آخرين من غير ذوي القرابة هذه الأدوات بغرض التبجيل أو اتباع أنماط اجتماعية في مواقـــف معيـــنة . وفي تطـــورات تحكمها أطر تداولية أيضاً نجد تحولاً في هذه الأدوات — في العربية على الأقل — في استخدام مقلوب يستخدم فيه الأب أو الأم " بابـــا " أو " مامـــا " (حسب جنس الطفل) في خطاب أولادهما ؛ بل ويوجد أحيانـــاً قلب مزدوج ينادي فيه الأب ابنه (المذكر) " يا ماما " ، وتنادي فيه الأم

ابـــنها (المذكـــر) " يـــا بابا " . وفي مناطق الدروز في لبنان يوجد تميز في نداء الأطفال بين الأولاد البيولوجيين للأب الذين يناديهم " بابا " بغض النظر عن جنس الطفـــل ؛ بينما ينادي أولاد أخيه " عمي " ، وينادي أولاد أخته " خالي " (لتبيين العلاقـــة بيـــنه وبينهم) . أما الأم فتنادي أولادها " ماما " ، وتنادي أولاد أخيها "عمتي " ، وأولاد أختها " خالتي " . [٨٧]

وربما ترتبط هذه العملية المزدوجة أنثروبولوجياً بما درجت عليه العربية في عصورها الـــزاهية مـــن قلب جنس الحبيب في كتابة الرسائل أو القصائد إمعاناً في التمويه . وكـــانت تلك الرسائل أو القصائد ترسل عادة من المحب إلى حبيبته ، وأصبح ذلك عـــرفاً قبلته اللغة ؛ لكن النساء بدأن في مغازلة الحبيب في وقت متأخر ، فأردن أن يســـتعملن التقنية نفسها في التعمية ؛ فأصبحن يقلبن جنس الحبيب (هذه المرة من مذكر إلى مؤنث) . غير أن اللغة لم تعترف برسائل الحبيبات بوصفها جنساً أدبياً ، فـــأدى ذلك إلى أن عُدت تلك الرسائل وكأنها قد أرسلت إلى نساء أخريات ، مما يعني انتشار ظاهرة حب المرأة لامرأة أخرى ، وبما أنها قد احتوى بعض الإشارات الجنســـية ، فقـــد نظر إليها بوصفها دليلاً على انتشار ظاهرة الجنس المثلي في تلك الفترة .

وفي مجـــال العمـــل توجد علاقات تضبط أغلب المجتمعات شروط التخاطب بين الأفـــراد العاملين في إطارها ؛ ففي العمل العسكري تكون أصول التخاطب أكثر إحكامـــاً ، حيـــث يضطر إلى استخدام رتبة الأعلى في الخطاب وصياغة عبارات تناســـب المقـــام . وفي العمـــل الصحي يخاطب المريض أو الممرضة الطبيب بلقب دكـــتور والطبيب يخاطب الممرضة باللقب المتعارف عليه في المجتمع ، لكن مخاطبة كـــل من الطبيب والممرضة للمريض تخضعان لأطر اجتماعية أخرى تحددها أسس

---

[87] انظر : N. Daher , Arabic sociolinguistics : State of the Art . Al Arabiyya 20 (1987), p. 141

التعامل في المؤسسات الصحية ؛ فقد يوجد في مجتمع معين إطار يفرض عليهما مخاطبة المريض بالسيد (أو إذا كانت مريضة بالسيدة) ، وقد يوجد إطار آخر يتيح لهما مخاطبة المرضى بالاسم الأول ، وربما بكنى أو ألقاب أخرى في مجتمعات أخرى .

وفي مجال الخدمة (في الفنادق أو المطاعم أو في نظافة الأماكن العامة) يكون الاتجاه واضحاً في أغلب المجتمعات ؛ إذ يفترض وجود سمة الاحترام في صيغة الخطاب من النادل أو العامل في النظافة إلى الآخرين ، لكنها غير مفروضة اجتماعياً (بل تترك للتقدير الشخصي) في الاتجاه الآخر .

وفي المجتمعات الإقطاعية تزداد الحاجة إلى الألقاب في الخطابات ، لتضع الحدود وتفصل بين صاحب الإقطاع والعاملين فيه من جهة ، وبينهم وبين من يرأسهم من جهة أخرى ، كما كان موجوداً في المجتمعات الأوربية في القرون الوسطى ، وفي المجتمع التركي إلى مطلع القرن العشرين . وفي العصر الحديث توجد تلك الألقاب في المجتمعات العربية ذات التركيب الطبقي التقليدي كما في مصر ، حيث ورثته عن الثقافة التركية خلال الاحتلال والاحتكاك الطويل بين الثقافتين (مثل : بيه ، باشا ، أسطه ، أستاذ) ، كما توجد في المجتمعات العربية ذات التركيب الهرمي المتداخل بين السلطات التنفيذية والدينية والمالية مثل المجتمع السعودي الذي يستخدم أفراده ألقاباً متداخلة مثل : " الأمير " الذي يعني فرداً من الأسرة الحاكمة أو شخصاً معيناً لإدارة محافظة أو شخصاً ذا نفوذ في قبيلة أو جماعة دينية ، و"الشيخ " الذي يعني صاحب سلطة دينية أو حتى إمام مسجد أو مؤذن أو طالب في الشريعة أو ربما رجل مار في الشارع (بسياقات مختلفة في الخطاب) ، ويُطلق بصفة رسمية على الأثرياء وأصحاب المؤسسات التجارية ، كما يطلق على زعيم قبيلة أو كبير عشيرة وربما عميد عائلة؛ وفي المقابل توجد ألقاب مثل " خَوِيّ " ذي

المعـــنى الرديء رغم دلالته اللغوية المحايدة أو اللطيفة ، حيث يعني الخادم الذي لا يـــتوانى عـــن عمل أي شيء ، وينفذ ما يطلب منه دون مناقشة ، وليس له رأي ، ويجـــلس في أمـــاكن نائيـــة عـــن سيده ، إلا إن كان من أصحاب الطرائف أو المضـــحكين، لكـــنه يستخدم قليلاً في الخطاب المباشر ، ويستبدل به الاسم الأول للشـــخص المخاطب . غير أن الكنى تبقى أشهر وسائل توجيه الخطاب في المجتمع الســـعودي إذا أريـــد تضمين الاحترام للشخص المخاطب ، بما في ذلك الخطاب الموجـــه إلى بعـــض أفـــراد الأسرة الحاكمة . هذا بالإضافة إلى اللقب السائد بين المتســـاوين طـــبقياً " يا أخي " (أو : ياخوي) ، والذي يساوي " يابه " في شمال الخـــليج (في العـــراق والكويـــت بالتحديد) في كونهما يستخدمان في حالات الحجاج.

أمـــا مـــا يضعه الأشخاص من شروط في التخاطب ؛ سواء كانت لتعديل شروط اجـــتماعية أو لإضـــافة شروط لم تكن موجودة ، فهي كثيرة ويغلب عليها الطابع الفـــردي . لكن بعض السمات العامة تحكم أنواعاً من الخطاب توجد لدى فئات تشـــترك في صـــداقة أو طبقة اجتماعية أو لقاء مصادفة ، كما توجد سمات تحكم بعـــض خطابات الحوار مع الذات أو الهلوسة وغيرهما من الحالات النفسية ، مثل تصور علاقات للمتحدث مع كائنات أخرى أو مع بعض ظواهر الطبيعة .

فمما يدور من حوار بين المرء ونفسه تتردد عبارات مباشرة مثل : قلت يا ولد ... (أو : قـــلت يا رجل ...) (إذا كان من يفكر مع نفسه بصوت عالٍ رجلاً) ؛ أو: قلت يا بنت (أو قلت يا حرمة (في منطقة الخليج) إن كانت امرأة) . [٨٨]

---

[88] وهي حالات تسبق اتخاذ قرار صعب ، عندما يجرم المرء أمره ، ويقرر أحد الخيارات الصعبة . وفي مصر تستخدم عبارة : " أنت: ما بتهاتي " .

وفي مـــراحل مـــتقدمة من التجريد في الشعر العربي القديم وجدت حالات يخاطب الشـــاعر غـــيره وهو يريد نفسه أو يخاطب نفسه ويحدثها عندما يعاني من الصراع الداخـــلي ، ويصـــعب عليه القرار مثل مخاطبة الأعشى الشاعر للأعشى الرجل : "وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ... " .[89]

وفي الـــنوع الـــثاني من الخطابات المتصورة يخلع المرء الصفات البشرية على ظواهر الطبيعة وهو ما يسمى pathetic fallacy ، ثم يتعامل مع الأشياء أو ظواهر الطبيعة عـــلى أنهـــا كيانات قابلة للتخاطب ، ويكون سياقها بلا شك في نصوص أدبية ، خاصة في الشعر . فيقيم الشاعر " تواصلاً مع عناصر لا يمكن أن يقوم معها تواصل في عـــالم الواقع ، ولكن الموقف النفسي أو الشعور الضاغط هو الذي يفرض على الشـــاعر أن يســـتخدم هذا الأسلوب دون غيره ، وإن عمق الاتصال بين الشاعر والطـــبيعة وإســـقاط ما في نفسه عليها عنصران يدفعان الشاعر إلى أن يتجه بلغته اتجاهـــاً تشخيصياً ، فهو يشخص بعض عناصر الطبيعة ، فتدب فيها الحياة ويمنحها صفات غريبة عنها ؛ وقيمة هذه الغرابة أنها تضع القارئ أمام صدمة المفاجأة ولذة عدم التوقع " .[90]

وفيما يخص اختيار العبارات حسب جهة الخطاب تأتي في مقدمة الأمور التي تختمر في ذهـــن المنشئ وقت إنتاج الخطاب عملية تقويم العلاقة بينه وبين جهة الخطاب المحـــددة (إن كانت معروفة سلفاً) أو المفترضة إن كان نصاً منطوقاً أو مكتوباً ، ولا يعرف المنشئ كل من سيـــسمعه أو سيقرؤه . ولهذا يتحدث بعض المسؤولين مع مـــن يقابلونهم بأحاديث تحمل سمة عدم النشر ، لأنه يثق في مخاطبة ذلك الإعلامي

---

[89] انظر : موسى ربابعة : " ظاهرة التجريد في نماذج من الشعر الجاهلي " . دراسات (العلوم الإنسانية) (أ) ٢٢ / ٢ (١٩٩٥)، ص ٧٣٧ .

[90] موسى ربابعة " ظواهر من الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى " . أبحاث اليرموك (الآداب واللغويات) ٨ / ٢ (١٩٩٠)، ص ص ٥٩ — ٦٠ .

بتلك الطريقة ، لكنه لا يعرف كيفية تفسير الجمهور المحتمل لما قاله بشكل خاص ، لأنـــه لا يعـــرف تفكيرهم جميعاً أو يتوقع وجود توجهات لا تتفق مع الكلام غير المنشـــور . وهناك من لا يدرك مثل هذه الظاهرة من كبار المسؤولين ؛ فإن قال في الإعلام كلاماً محلياً توجه إلى جمهوره المحلي دون إدراك بأن خطابه سينتشر خارج حـــدوده أيضاً ، وإن قال في إعلام خارجي كلاماً موجهاً إلى جهات أخرى توقع ألا يتابع الجمهور ما يقال خارج الحدود ، أو قصر إدراكه عن كونه سينتقل إليه .

تتـــلو عمـــلية التقويم تفكير قصير – خاصة إن كان النص مكتوباً – في البدء بما يناســـب الســـامع (أو القارئ) أو يرغبه رغبة في الحصول على تجاوبه . وعملية إقـــناع المتلقي ليس فقط بالاهتمام بالخطاب، بل أيضاً بمتابعته ليست سهلة في كل الحالات ، خاصة عندما يكون المتلقي مساوياً أو أعلى درجة من المنشئ ، أو عندما يكون عدد المتلقين كبيراً لدرجة إمكان تراخي بعضهم عن المتابعة أو التوقف عنها تمامـــاً . لذلـــك نجـــد الخطابات الناجحة تبدأ بشيء طريف يلفت انتباه المتلقي ، ويشعره بالاسترخاء وعدم صعوبة الاستمرار في وضع التلقي . كما يسعى الأذكياء مـــن أصـــحاب الخطابات أو معديها إلى إعطاء نبذة موجزة عن محتويات الخطاب يعرف من خلالها المتلقي ما ينتظره ، وربما يعمد المنشئ إلى وعد المتلقي بشيء سارّ في ثنايا الخطاب أو نهايته .

أمـــا عمليات تنشيط المتلقي التي يحتاج إليها المنشئ ، فتتراوح بين إشارات إلى ما سبق الاتفاق عليه أو ما وعد به أحد الطرفين الآخر ، وبين إدخال عبارات تخاطب المتـــلقي مباشرة بعد انتهاء كل فكرة متكاملة مثل : أيها الأخوة أو أيها الزملاء أو زملائي الأفاضل ... إلخ ، إن كان خطاباً عاماً ، أو عبارات مثل : يا صديقي (أو: يـــا صـــديقتي) أو يا حبيبي (أو يا حبيبتي) ، إن كان خطاباً موجهاً إلى شخص واحد . ومن عمليات التنشيط المعهودة أيضاً تدريج الصوت بين علو وانخفاض من

الكـــلمات الهامة في الخطاب إلى بقية العبارة أو الكلمات المعطوفة عليها غير ذات الأهميـــة . كمـــا تسهم الحركات المصاحبة واتجاه المتكلم نحو المتلقي والنظر نحوه بعيـــنين متوسطتي الحدة في رفع وتيرة متابعة الخطاب لدى المتلقي (أو حفزه على الأقل لعمل ذلك) .

بالطبع لا يمكن للقوالب بمفردها ومهارة المنشئ في إخراج الخطاب أن تقوم بوظيفة التواصـــل الـــناجح مع المتلقي ؛ إذ لا بد من نجاح موازٍ في عرض الجوهر واختيار الـــنمط الذي يناسب جهة الخطاب . والمتلقون ليسوا على درجة واحدة من الخبرة والعـــلم الـــلغوي والمعـــرفي ومن التناسب أيضاً مع المنشئ — في حالة الخطابات الجماهيرية — مما يجعل الوصفة الجاهزة لخطاب يوجه إلى قطاع عريض من المتلقين أمـــراً مستحيلاً ، لكن نجاح المنشئ في ذلك يتوقف على أن يختار ما يناسب أكثر أفراد الجمهور المتلقي للخطاب .

تـــبقى عملية التطور التاريخي للغة وانتقال دلالات العبارات فيها من فترة زمنية إلى فـــترة أخرى أو فترات لاحقة قضية تورق المتلقي في كثير من النصوص المكتوبة ، وتجعله يضطرب في فهم كيفية الخطاب فيها . فمنشئ النص في الخطابات التاريخية المكـــتوبة لم يعد موجوداً ، والاشتراك معه في الخلفية الاجتماعية والثقافية آخذ في التـــناقص مع مرور الزمن . من أجل ذلك تصبح مضامين الخطابات التاريخية محل شك في حقيقة فهمها ، بل وللإنصاف يظل فهم المتلقي في كل منها في حدود ما يمكن أن نسميه قراءته للخطاب .

أما فيما يخص النمط المناسب في كل خطاب ، فالأمر يتعلق من جهة بالإطار الذي يوضـــع فيه الخطاب (رسمي أو شخصي ، المتلقي أعلى أو أدنى من المنشئ ، درجة الألفة بين الطرفين ، حدة الموضوع أو حساسيته) ؛ فما يحتويه خطاب إلى محامٍ أو محكمـــة يختلف بالتأكيد عن النمط المختار في خطاب إلى صديق ، وكذلك تتباين

أنمـــاط الخطابـــات الموجهة إلى رئيس في العمل عن الأخرى الموجهة إلى زميل ، وعندما تطول العلاقة يكون ذلك دافعاً لاستخدام أنماط لا يستخدمها المرء مع آخر حديـــث المعرفة به ، كما تفرض جدة الموضوع أنماطاً محددة في الخطاب بمهد لما هـــو جديد بعبارات تذكر بالقديم وبنقاط ارتكازه التي ترتبط بما هو جديد ، ويراد طـــرحه في الخطاب . وكذلك تجبر حساسية الموضوع ، كأن يكون متعلقاً بمشاعر شخص أو أشخاص (كالعزاء أو قرارات الفصل من العمل) ، أو أن يرتبط بطبيعة الموضوع كالسرية أو عدم القانونية ، على تبني أنماط محددة تناسب أياً من الأسباب الداعية إلى حساسية الموضوع .

ويرتبط بنمط الخطاب الذي يختاره المنشئ الأسلوب الذي يناسب تفكير المتلقين أو عقلياتهم ؛ فإن كان الخطاب موجهاً إلى عمال في مصنع ، خلا من التنظير في سرد أثـــر تضـــحياتهم في وجود فرص العمل للأجيال اللاحقة ؛ لأن العمال لا يهمهم سوى ما يتلقونه من مقابل آني لكدحهم في العمل . وإذا كان الخطاب موجهاً إلى فئات متدينة كان اختيار الأساليب التي توحي باليقين ووجود الوجه الواحد للحق هو الأنسب ؛ أما إن كان موجهاً إلى فئات ليبرالية ، فإن بقاء النص مفتوحاً وتعدد التفسيرات الممكنة للأحداث الواردة واستخدام صيغ الاحتمال أكثر من الجزم هي الأنسب لتقبل الخطاب .

أما آليات الخطاب التي يعمد منشئ الخطاب إلى اختيار أحدها ؛ فهي مرتبطة بعدة عوامـــل منها : تقدير أقصر الطرق للوصول إلى الهدف من الخطاب ، والتجارب الســـابقة في التواصـــل مع جهة الخطاب المعنية ، وخصائص موضوع الخطاب ، وشخصية منشئه التي قد تميل إلى طريقة بطبعها دون أخرى .

وتـــتم إجراءات تقدير أفضل الطرق (أو أقصرها) للوصول إلى ما يهدف المنشئ إليـــه مـــن خطابه وسط موازنة بين عدة إمكانات (أو استراتيجيات كما يسميها

التداوليون) للخطاب تتوفر لديه ، وتقدم اللغة أساليب مختلفة لكل منها ؛ فيلجأ صاحب الخطاب إلى الأسلوب الذي يناسب الاستراتيجية التي اختارها . في كثير من المراجع التداولية تذكر الأساليب المختلفة المرتبطة بكل استراتيجية والدوافع التي تجعل المتكلم يستخدم كلاً منها بدلاً من الأخرى ؛ لكن الأمر يختلف عن هدف استعراضنا هنا للظاهرة بشكل عام ، والإشارة إلى جزء غير لغوي من إنتاج الخطاب (أو هو لغوي غير تقني في رأي من يوسع مجال اللغة لتشمل قضايا التفكير والتحليل المرتبطة بإنتاج النصوص) . فإن كان المرء في موقع ضعف فإنه ليس بإمكانه إلا أن يستخدم الاستراتيجية التلميحية أو استراتيجية الحجاج ؛ أما إن كان في موقع قوة فإنه يمكنه اللجوء إلى الاستراتيجية التوجيهية أو الاكتفاء بالاستراتيجية التضامنية التي تجعله يتنازل عن استغلال موقعه الأعلى من الآخرين ، ويطلب العمل الجماعي في خطابه بدلاً من إصدار الأوامر والتصرف بشكل فردي . ومرد التقدير في كل ذلك يعود إلى **القدرة التواصلية** لدى منشئ الخطاب ، فهي التي تساعده في قرار الاختيار ، أو تكون مهيأة للاتجاه نحو أحد الإمكانات المتاحة بسبب الأخرى التي يرد ذكرها أدناه .

لا يشك أحد في أن اللغة وهي وسيلة الخطاب الرئيسة كائن اجتماعي والإنسان نفسه متصف بهذه الصفة ؛ فلا غرو أن تسير الأمور لأسباب تتعلق بتجارب صاحب الخطاب السابقة إلى وضع غير مبرر أو متوقع . نحكم بقوة هذا العامل من خلال حدوث بعض المواقف المتماثلة للشخص الواحد نفسه مع أشخاص مختلفين ، حيث يقرر منشئ الخطاب في كل منها اختيار استراتيجية تختلف عما اختاره في موقف مماثل لم تتغير فيه العوامل الأخرى ، ولم يفصل بين تلك المواقف زمان طويل يبرر تغير قدرة المتكلم التواصلية عما كانت عليه في الموقف السابق . وتبرير ذلك يكون عادة أن ذلك الشخص أو تلك الجهة لا ينفع معها مثل هذا النوع من

الخطاب ، وما يشبه هذا التبرير سواء قيل ، أم كان دافعاً للسلوك اللغوي فقط .

وهذا من جانب آخر يعني أن تبني السلوك اللغوي الحسن أو السيء ليس طبعاً بقدر ما هو عملية تفاعل بين أطراف ؛ وفي الوقت نفسه تعطي هذه الظاهرة مصداقية للقول العربي المأثور : " إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... " .

ولموضوع الخطاب دور لا يمكن تجاهله في تبني الاستراتيجية التي يختارها منشئ الخطاب ؛ إذ تتناسب بعض الطرق مع موضوعات عديدة ولا تتناسب مع الأخرى، كما يمكن أن تصلح استراتيجية لمرحلة دون أخرى في موضوع خطاب بعينه ، خاصة في الخطابات التفاعلية المباشرة . فإذا أريد مثلاً استمالة أحد أو فئات إلى منتج بجري الدعاية له عن طريق الزيارات المنزلية أو العرض في موقع عام أو في إعلان تجاري ، فإن الاستراتيجية التضامنية هي الأنسب لجذب الناس نحو ذلك المنتج بواسطة إغراء المتلقي بالعمل معاً من أجل صحة أطفالنا أو مصلحتهم — إن كان المنتج خاصاً بالأطفال — أو من أجل منازل تتمتع بالحماية والأمن إلى غير ذلك من نواحي الحياة المختلفة . وقد يلجأ المعلن إلى استراتيجية الحجاج ، إن كان يعتمد على حجة يعتقد بأنها مصدر قوته في وجه منافسة قوية من منتجين آخرين .

وإذا أراد المضيف أن يشعر ضيفه بأن مقامه قد طال ، فلا بد أن يلجأ إلى استراتيجية تلميحية كالإشارة إلى ما ينتظره غداً من أعمال في تلميح إلى كون الوقت أصبح متأخراً . وفي حالات انتشار الفوضى في مكان عام ، فإن الخطاب المعتاد للمسؤول عن ذلك المكان يشحن بإشارات توجيهية تعطي الآخرين دلالة كافية أن الجهة التي يرأسها لن تحتمل استمرار الفوضى إلى غير ذلك من الموضوعات التي تضيق خيار المنشئ في استخدام الاستراتيجيات المتاحة .

وشخصية منشئ الخطاب هي الأخرى ذات أثر في الميل إلى أحد الخيارات دون الآخر ، وفي حالات متطرفة يكون خيارها الوحيد باستمرار هو استراتيجية واحدة

لا يجـــد صاحب الخطاب عنها ، ويعرف بها مما يقترن بوصفه عند الحديث عنه . وهذه بالطبع ليست كياسة ، وليس نجاحاً في استخدام الاستراتيجية المناسبة ، لكنه الواقـــع الـــذي لا بد من معرفته ؛ فمثل هذه الشخصيات إما أن تكون ذات قوة اســـتثنائية (حـــاكم مطـــلق أو صاحب مكانة اجتماعية كبيرة أو صاحب لسان ســـليط) تختـــار باستمرار استراتيجية توجيهية في خطابها ، أو تكون ذات مرض نفســـي أو عقـــلي معروف لكل متلق يسمع ذلك الخطاب ؛ فيتوهم أنه من ذوي القوة الاستثنائية (إن كان مريضاً بانفصام الشخصية) أو يتركه الآخرون يطلق مثل تـــلك الخطابات دون تجاوب . وعامل الشخصية هذا يختلف عن تجارب صاحب الخطـــاب السابقة ، لأن العوامل التي تدعو الشخص هنا إلى تبني استراتيجية معينة هـــي عوامل ذاتية لا يتحكم فيها الشخص غالباً ، وقد لا يعرف أنه كذلك أو لا يعـــترف بذلـــك ؛ بيـــنما تصـــدر عن صاحب الخطاب قرارات باختيار إحدى الاســـتراتيجيات في حالـــة عامل الخبرة عن وعي تام، وبسبب تجاربه مع الآخرين وليس لأسباب ذاتية ، وفي كثير من الأحيان يمكنه أيضاً تبرير ذلك الاختيار .

٣ – ٣ نسبية الحقيقة في الخطاب

من التساؤلات التي تطرح في الفلسفة ودراسات الدلالة : هل توجد حقيقة مطلقة؟ وهل ما يراه مجتمع ما حقيقة تراه المجتمعات الأخرى أو بعضها حقيقة أيضاً ؟ وأين توجـــد الحقيقة ؛ هل لها حيز مكاني تحدد أو تعرف من خلاله ؟ أم هي تصور في الذهن ؟ وما علاقة الحقيقة اللغوية بالحقيقة في الواقع ؟

يمكنـــنا الـــبدء في نقـــاش هـــذه التساؤلات بطريقة معكوسة (من الأسهل إلى الأصـــعب)؛ ويعني ذلك أن نناقش أولاً علاقة الحقيقة اللغوية بالحقيقة في الواقع .

يعـــتقد بعض الناس أن عبارات اللغة هي أمر خاص بقواعد اللغة ونظمها ، وتجدر دراســـتها من منطلق معرفة الصيغ وطرق نظم الكلام وغير ذلك من الأمور اللغوية الخالصـــة ، أما دراسة الحقيقة ومعرفتها فهو أمر خارج عن دراسة اللغة ، ويمكن الإحاطة به عن طريق فحص الواقع الفيزيائي للأشياء ؛ وهما عالمان لا يلتقيان . غير أن هـــذا التصور للحقيقة ، أو ما يسمى الحقيقة الموضوعية ، يغفل جوانب إنسانية مـــن الحقيقة ، خاصة الاستقبال الحقيقي والتحول إلى المفاهيم والدوافع والأحداث التي تكوّن أغلب ما نسميه الخبرة . ومما يجدر ذكره أن هذه الجوانب الإنسانية من الحقيقـــة هـــي ما يعنينا أكثر من غيرها ؛ فاللغة تصنع حقائق بالنسبة إلينا ، وهذه الحقائق التي تصنعها اللغة تصبح قوة دافعة لخلق عنصر التماسك في الخبرات . وفي هـــذا الشـــأن يمكن أن نقول بأن النظر إلى الحقيقة بمعزل عن لون الحقيقة في اللغة مسلك غير سليم، كما أن افتراض نبع الحقيقة من اللغة أمر فيه محاباة كبيرة للغة .

وللإجابـــة عن السؤال الذي يعلوه المرتبط بمكان الحقيقة نعتقد أن الجزء الأول من الســـؤال قـــد أجيـــب عنه ضمنياً في الإجابة الأولى بأنه يصعب إيجاد حيز مكاني لـــلحقيقة بســـبب تداخل أنواع الحقائق ؛ حقيقة مفترضة (أو يُبحث عنها) مع حقـــائق مختلفة تفرضها لغات مختلفة ، وهذه النقطة بالذات هي ما تجعلنا نميل مع الخيـــار الثاني من أنها تصور في ذهن الفرد والذهن الجمعي لبيئة متماسكة ، أو ما يمكن أن نصف به الحقيقة من أنها **حقيقة اجتماعية** . وكل ثقافة تحدد قواعد عامة يتحرك بموجبها الأفراد فيما يكون مفيداً لهم ، حيث يؤدون وظائفهم في إطار تلك الحقيقة الاجتماعية . وهو ما يجعلها تقوم على التصور الثقافي العام للواقع الفيزيائي مضـــافاً إليـــه التصور الفردي لذلك الواقع لدى كل شخص حسب ما يملكه من خبرات في ذلك الواقع .

وعبارات اللغة تؤدي في الواقع وظيفة مهمة جداً – كما سبق ذكره – في بناء عناصر الحقيقة ، فهي لذلك تشكل جزءاً مهماً من الحقيقة الاجتماعية والسياسية ، بل وتشكل في كثير من الحالات المعيار الذي ينبئ عن صدق الواقع خلافاً لما هو متوقع من أن يكون الواقع معياراً لصدق العبارات .

أما التساؤل عن التوافق بين المجتمعات في رؤية الحقيقة ، فيمكن الانطلاق في الإجابة عنه مما سبق ذكره من جوانب إنسانية في الحقيقة (ضمن الإجابة عن علاقة الحقيقة اللغوية بالحقيقة في الواقع) ؛ فتلك الجوانب الإنسانية تختلف من مجتمع إلى آخر حسب الخلفيات الثقافية لكل مجتمع ، لأن كل مجتمع لديه طرق مختلفة في استقبال المدلولات وتحول الدوال إلى مفاهيم في نسق مستقل عن أنساق المجتمعات الأخرى . والثقافات في أصل نشأتها توجد في محيط فيزيائي ؛ قد يختلف أحدها عن الآخر جذرياً (كاختلاف مناطق الغابات عن الصحاري ، واختلافهما عن مناطق الجزر أو المناطق الجبلية واختلافها جميعاً عن المدن) ، وقد توجد بينها اختلافات أقل جذرية (كالمدن الصغيرة مقارنة بالقرى في محيط جغرافي واحد) .

وتختلف تصورات المجتمعات للواقع تبعاً لاختلاف البيئة التي نشأ فيها أفراد كل مجتمع ؛ فعلى كل منها أن يؤمن طريقة تعامل مع البيئة المحلية قد تكون أكثر أو أقل نجاحاً مما تقدمه المجتمعات الأخرى في سبيل التواؤم مع تلك البيئة أو السعي إلى تغييرها .

وأخيراً للإجابة عن السؤال الأكثر أهمية فيما يخص وجود الحقيقة المطلقة ، نقول إنه لا توجد هذه الحقيقة المطلقة رغم ادعاء الفلسفة ذلك ومحاولات الدراسات العلمية إثبات وجودها . فمصطلح الحقيقة ومفهومه موجودان ، ولا يمكن إنكارهما، لكن ربط الحقيقة بالإطلاق أو الموضوعية هو الذي يشك في إمكانه . ويمكننا حتى أن نزعم أن فكرة وجود الحقيقة الموضوعية المطلقة ليس خطأ فاحشاً

فقـــط ، بـــل سلوك اجتماعي وسياسي خطير . فالحقيقة كما رأينا من قبل ترتبط دائمـــاً بنسق تصوري يتحدد في جزء كبير منه بواسطة المجاز ؛ وكثير من تصوراتنا المجازية استوطنت في ثقافتنا عبر مراحل زمنية طويلة ، لكي تصبح جزءاً من تصور الحقيقة . وأغلب تلك التصورات فرضها أناس في موقع القوة كالقادة السياسيين أو الديـــنيين ، أو أصـــحاب رؤوس الأموال والمعلنين ، أو وسائل الإعلام وغيرها من مراكـــز القـــوة . وفي أي مجتمع تكون الحقيقة الموضوعية على رأس الاهتمامات ومطـــلقة دائمـــاً ، فـــثم أناس يسعون إلى فرض تصوراتهم المجازية على الثقافة ، ليحددوا ما الذي يجب علينا أن نعده حقيقة موضوعية ومطلقة .

لهـــذا الســـبب علينا أن ننظر بشك إلى أسطورة الموضوعية عند التعامل مع قضايا الحقيقة ، ناهيك عن مسألة الإطلاق التي تستلزم الإحاطة بكل العوامل التي تنسب إليهـــا الحقيقـــة من أجل تصور كامل للحقيقة بكل أبعادها ، وهو أمر مستحيل . وحيث إن الحقيقة قائمة على الفهم ، وجميع التصورات المجازية التي تدخل في ثقافة كل مجتمع هي العربة الأساسية للفهم ، فإن التفكير بأن ذلك المجاز سيكون حقيقة هي السبيل لجعل الحقيقة تعتمد على المجاز ؛ فتصبح بالتالي حقيقة أي جملة متناسبة مع الطريقة المعتادة لفهم العالم من خلال هذا الكيان البنيوي الذي ننظر من خلاله إلى الواقع .

ومما يجدر ذكره هنا أن استخدام بعض الدراسات اللغوية البلاغية لمصطلحات مثل " حقيقي " و "غير حقيقي " (وهو في أغلبه مجازي) ينبئ عن وعي بحجم مشكلة المطابقـــة بـــين اللغة والحقيقة . لكن دارسي البلاغة يتوقفون عند هذا الحد ؛ ولو استمروا في التمحيص ، لوجدوا أن أغلب عبارات اللغة (وكلماتها المفردة أيضاً) مجاز (إما مجاز فيه نقل متخيل للواقع أو مجاز استقر و لم يعد ينظر إليه بوصفه مجازاً.

غـــير أنـــه لا يمكن أن يشير إلى حقيقة ، وإن أشار إليها فيكون ذلك بطريقة غير مباشرة؛ أي بواسطة عبارات حرفية موازية وغير مجازية) .

لننظر إلى بعض الأمثلة من عبارات بسيطة :

تشكل مساحة المياه ثلثي مساحة الكرة الأرضية

صفة جزيرة العرب

صلاح الدين بطل أسطوري

فالعـــبارة الأولى تكون حقيقة لأغراض محدودة مثل استخدامها في كتاب تعليمي لـــلمراحل الدراســـية الأولى الـــتي تقرب إليها الحقائق بشكل يتناسب مع أعمار الـــتلاميذ فيها وخبراتهم ؛ وإلا فهي ليست بهذه النسبة ، بل تشكل حوالي ٧١ ٪ من مجموع المساحة السطحية للأرض .[٩١]

وفيما يخص شكل الأرض فهو ليس كروياً ، بل بيضاوي وهو مختلف هندسياً عن الشـــكل المعطى ، لكنه للأطفال أو في سياق ثقافي عام يكون مقبولاً لعدم مراعاة اللغة أصلاً لذلك التناقض مع الحقيقة، إذا كان لا يخدم فكرة معينة .

أمـــا العبارة الثانية ، فهي غير صحيحة جغرافياً ، لأنها في الواقع شبه جزيرة ، لكن ســـياق العبارة التراثي ووجودها قبل أن تتفرع الحقيقة في هذا الشأن للتفريق بين اليابسة التي تتصل بغيرها من بقع اليابسة على الأرض ، والأخرى التي يحيط بها الماء مـــن جميع الجهات ، جعل مثل هذه العبارة التي هي عنوان لأحد المصادر الجغرافية المهمـــة ، وهـــو كتاب الهمداني ، تبقى مقبولة ، بل وتستخدم العبارة نفسها في وصف هذه البقعة في نصوص حديثة .

وفي العـــبارة الثالثة يوجد مضمون يعد حقيقة مطلقة في التراث العربي وفي المخيلة الشعبية العربية ، لكن هذه الشخصية نفسها ينظر إليها في ثقافات أخرى بلا مبالاة

---

[91] انظر : الموسوعة العربية العالمية . الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

أو بـــازدراء ، ممـــا يعني أن صلاحية إطلاقها خاصة بالثقافة العربية ، ومع ذلك لا يقال : " بطل أسطوري في الثقافة العربية " ، بل لو وجد من يقول ذلك ، قيل إنه يريد أن يقلل من قيمة هذا البطل .

ونســـبية الحقيقة في الخطاب اللغوي ليست قائمة فقط على محدودية صلاحيتها أو تعمـــيم مـــا ليس عاماً، بل أيضاً بسبب التغافل عن بعض أبعاد الحقيقة . فالتقرير الذي تتضمنه أي عبارة هو في الواقع نتاج عملنا في تصنيف الأشياء ، وطريقتنا في الـــتركيز على الأشياء ؛ فعندما يكون التقرير في أذهاننا ، فإننا نختار أحد الأصناف الممكـــنة (حسب النظر إلى الأشياء من زوايا مختلفة) ، لأن لدينا بعض الأسباب للتركيز على خاصية معينة وتغييب (أو عدم الاكتراث) بالخواص الأخرى . وكل تقريـــر حقيقـــي – لهذا السبب – يغفل بالضرورة ما غُيب أو لم يُكترث به من الأصـــناف الممكـــنة الأخرى . وهذا الوضع هو الذي يخلق ما نسميه **تعدد أوجه الحقيقة** .

فإذا نظرنا إلى كلمات أساسية في جميع لغات البشر مثل الألفاظ الدالة على الجهات نجد منشأ التسمية من منطلق واحد اعتمد على وجهة نظر معينة آمن بها القدماء ، واعتقدوا بكونها حقيقة ؛ هي كون الشمس تطلع من الشرق ، لذلك سميت الجهة التي توالي ذلك المطلع " الشرق " ، وسميت الجهة الموالية لمغربها (كما كان يعتقد) " الغـــرب " . وكـــأن اليابـــان بذلك هي أول منطقة من اليابسة ترى الشمس ، والحقيقـــة (أو الجانب الآخر من الحقيقة) أنها كانت ساطعة في الولايات المتحدة الأمـــريكية (أقصى الغرب حسب التصنيف اللغوي) قبل أن تسطع في اليابان . ومـــن منطـــلق منطقي صرف فكروية الأرض (أو بيضاويتها حتى لا نقع في الفخ اللغوي) لا تسمح بأن نضع أي نقطة عليها تكون أقصى الشرق أو أقصى الغرب؛ لأن كـــل نقطة سيكون هناك ما هو أبعد منها في الاتجاه نفسه، كما هي الحال مع

منطق الأرقام ، حيث يمكن أن نشكل عدداً كبيراً ، لكنه لا يمكن أن يكون نهائياً لعدم وجود ذلك العدد النهائي .

وقد آمنت أغلب الثقافات بهذه التصنيفات بوصفها حقائق ؛ فوجدنا عبارات تصف مطلع الشمس ومغيبها ، مع أننا نحن الذين نغيب عن الشمس أو نطلع عليها حسب دوران الأرض حول الشمس . وحتى بعد معرفة هذه الحقيقة الفلكية لم تغير أي لغة على الأرض هذا المنطق اللغوي . والمنطق نفسه نجده في دراسات قواعد اللغة ، حيث يشار إلى ضمير الشخص غير المتكلم والمخاطب بضمير "الغائب" ، مع أنه قد يكون حاضراً ، بينما يكون الغائب عن الحدث هو الدارس أو الجمهور المتلقي لدرس القواعد .

وفي محور آخر من محاور نسبية الحقيقة نجد التضليل صادراً في كثير من الحالات عن ميوعة الدلالة التي تنشأ عن مركزية جسم الإنسان عند النظر إلى الواقع وتحليله ، لذلك تصادفنا كثيراً من الإشارات المرتبطة بموقع الأشياء أو الآخرين من شخص المتحدث مثل " يمين " ، " يسار " ، " أمام " ، "خلف" دون أن نعرف في كثير من المواقف أين يقف المتحدث وإلى أين يتجه ، مما يجعل الصورة ضبابية وأحياناً معكوسة تماماً . ويزداد الأمر سوءاً عندما تنقل هذه المركزية إلى مفاهيم مجردة "حزب يميني" أو " اتجاه يساري " ، أو : " وقد تحققت مسيرة الوطن إلى الأمام " التي يدعيها معظم الساسة ، لكن إلى الأمام من ماذا ؟ أو بأي اتجاه ؟ بعضهم ينوي زف الوطن إلى الجحيم .

ما يجعل الحقيقة في الخطاب مرتبطة بفهمه ، هو أنه أولاً لا يوجد موقف مشاع ومطلق يقف فيه من يريد الوصول إلى الحقيقة ، ويكون منطلقاً له للحكم أو الحصول على المعرفة الموضوعية والمطلقة بالعالم . وثانياً لم تعرف البشرية في تاريخها اتفاقاً على القيم الأخلاقية والمعايير العامة لكثير من مقومات الحياة على الأرض أو

للتمتع بما فيها من جمال ، أو بما أنتجه الإنسان نفسه من أعمال فنية أو منجزات ؛ فـلو نظـرنا إلى مصطلح مثل " العدالة " ، لوجدنا أنه يفهم في كل مجتمع بطريقة مختلفة عن فهمه لدى مجتمع آخر ، ويرتبط ذلك الفهم بالقيم الأخرى الموجودة في المجـتمع ومصلحته الآنية ، ولذلك نجد فهم هذا المصطلح يتغير من عصر إلى آخر حـتى في المجتمع نفسه . ولو نظرنا كذلك إلى محاولة إدخال غير المسلم في الإسلام لوجدناها يطلق عليها " الدعوة " ، ويحث عليها ، وتعد الكلمة ذاتها من الكلمات المحمودة ؛ بينما محاولة إدخال المسلم في دين غير الإسلام لا تسمى " الدعوة " ، بل " التبشـير " ، ويُحـذر مـنها ، كما تعد من الكلمات المثيرة للغضب والموجبة لـلحقد. والشـيء نفسه ينطبق على وصف الانتصارات حسب الفاعلين وليس حسب الفعل نفسه ؛ فإن كان المسلمون هم من انتصروا ودخلوا إلى بلد أو مدينة، فهـو " فتح " ، وإن كان غير المسلمين هم المنتصرين ، فإنه " غزو " (إن لم يكن المسلمون قد غزوا بلادهم من قبل) ، وإن كان المسلمون قد سيطروا على بلادهم من قبل (كما هي الحال في الأندلس) ، فهو " إخراج المسلمين " .

ورغـم كون الاعتقاد بوجود حقيقة مطلقة وليست نسبية شائعاً حتى في المجتمعات الـتي ترعـرع أفرادها في ظل ثقافة العلوم التجريبية ، فإن مقاومة ذلك الشيوع لا تعني بالضرورة نبذ الموضوعية كاملاً عن الخطاب اللغوي ، والادعاء بكونه منطلقاً للتصـورات الشخصـية والاعتباطية على طريقة المقولة السائدة في الثقافة العربية "المعـنى في بطن الشاعر " . وفشل اللغة في وصف الحقيقة لا يعني أن هناك ما هو أكـثر منها نجاحاً . وربما توجد ظاهرتان في حياة الناس تشبهان دور اللغة في تمثيل الحقيقة ؛ إحداهما نظام سياسي هو النظام الديمقراطي والأخرى نظام اجتماعي هو الـزواج . فبالرغم من كون النظامين لم يحققا السعادة لكثير من البشر ، إلا أنهما

أنجــح مـــا جربه الناس ، ولا يوجد بديل عنهما من البدائل التي خضعت للتجربة وأثبتت نجاحها .

فـــالمعنى في اللغة غير المعنى في الحياة وبينهما تضاد لا يمكن أن ينكر ؛ فنحن بطبيعة تكويننـــا الـــبيولوجي والاجتماعي نسعى إلى إخراج ما درجنا على تسميته أعلاه بالحقيقـــة الموضـــوعية والمطـــلقة من أذهاننا ، ونضع بدلاً منها ما يمكن أن نصفه بالخـــليط من تجربة الإنسان في الحياة وفهمه . لذلك فالتجربة وفهم الأمور يحلان مكان الحقيقة ، ويتماهيان معها ، حتى نعتقد أنهما إياها .

قوالب العبارات الماثلة

يتضـــح من كل ما سبق أن الحقائق التي نتحدث عنها في اللغة وبواسطة اللغة هي حقـــائق اجتماعية ، وبالطبع ستكون قوانينها ومعطياتها متغيرة حسب ما يجري في المجـــتمع مـــن تغيرات . وهذا يعني أن المعاني متغيرة ، ومرتبطة فقط بسياق الموقف الـــذي أدى إلى نشـــأة الخطـــاب ؛ أي أن احتمالات وجود معانٍ غير المعاني التي قصـــدت في الموقـــف واردة ، ووجوه التفسير التي تحتملها سياقات الثقافات أيضاً كثيرة ، ومجالات التباين بين حقائق الواقع وحقائق اللغة كبيرة .

وهذا الوضع جعل مستخدمي اللغة في أي ثقافة يسعون إلى إدخال ضوابط تحميهم مـــن هشاشـــة الحقـــائق الـــلغوية وسلبيات استخدامها ، وتساعدهم على تجاوز المـــنعطفات المقـــلقة الـــتي تضعهم فيها اللغة، وتعينهم على تسويق أنفسهم لدى الآخرين ، وتضع بعض الحواجز أمام تعديات أو وقاحة بعض من يتواصلون معهم، وهـــو مـــا نسميه هنا العبارات الماثلة . وقد أصبحت هذه الضوابط – رغم كونها قوالب فقط لعبارات اللغة – من الكثرة والأهمية ، بحيث تحتل الصدارة عند المتلقي، وصـــار لها من القيمة في إعطاء المعنى ما يفوق عناصر اللغة التي تسمى الموضوعية (وهـــي اللغة التي يعتقد الناس أن كتب القواعد تعلمهم إياها) . بل يمكننا القول

إن هـــذه القوالب هي عناصر الحياة في اللغة ؛ فبواسطتها تدخل الحياة إلى عبارات الـــلغة ، وعن طريقها أيضاً تتميز خصائص الأساليب في الاستخدام عن خصائص اللغة الجامدة . كما التفت إلى أهمية هذه القوالب بعض المستغلين ، واستفادوا منها في اغتصاب اللغة كما يرد لاحقاً في الأهداف .

ولهذه القوالب دور كبير أيضاً في إخراج الرسالة أو التقدم عن الخط المرسوم لها ؛ فهي تشوش أو تحول الانتباه عن الخط الأساسي أو تقلل من أثره في القول ، وهي لا تكون مصنفة في ذاتها ، بل بسبب الوظائف التي تقوم بها في السياق ، أو دورها في لعبة العلاقة بين المتكلم والمتلقي ؛ أي أن تصنيفها يعلو في السلم ، كلما كانت قدرتها التواصلية أكبر من عناصر النص الأخرى .

وحسب المجال الذي ينتمي إليه مضمون النص تتباين سعة استخدام الألفاظ المائلة ؛ حيـــث تزداد النصوص المرتبطة بالمجالات الإنسانية والاجتماعية غنى بها ، بينما يقل وجودها في نصوص العلوم الطبيعية والتقنية بسبب اختلاف قواعد الحجاج في كل مـــن هذين الصنفين المختلفين كلياً . فالحجاج في الحقول الإنسانية والاجتماعية لا يُعـــنى بالـــبيانات التجريبية والبراهين المباشرة ، كما هي الحال في العلوم الطبيعية والتقنية .

وكـــلما كـــانت النصوص تفتقر إلى البيانات التجريبية والاستنتاج المنطقي تكون الحاجـــة ماســـة أكـــثر لعناصر تحقيق المصداقية . والاقتناع بالحجة في مثل تلك النصـــوص يكون معتمداً على استخدام وسائل لغوية تحتوي عبارات مائلة . ومع ذلـــك فهـــي تخدم في النصوص التجريبية بجعل منشئ النص — خاصة في الأبحاث العـــلمية — يكـــون في حـــل من تقرير الحقائق العلمية ؛ وأكثر ما يخدم في ذلك استخدام الأفعال والأدوات المساعدة التي تقلل من نسبة التوقعات ، وتتوافق بالتالي مع التواضع المعهود عن العلماء في وصف أبحاثهم التي أجروها .

وفي بعض الأبحاث التي أجريت على كتب المقررات التطبيقية كانت النتائج متقاربة فيما يخص نسبة ورود العبارات المالئة في تلك النصوص ؛ ففي دراسة أجريت على ٢٦ بحثاً في دراسة الخلايا والأحياء الجزيئية وجد الباحث واحدة في كل خمسين كلمة أي ما نسبته ٢ ٪ من مجموع الكلمات . وتتفاوت تلك العبارات عددياً في نسبة ورود كل منها ، لكن الفئات الأربع التي تتقدم الأنواع الأخرى هي : [٩٢]

١ — الأفعال المعجمية ، مثل : يبدو ، أعتقد

٢ — الظروف المعرفية ، مثل : بالإمكان ، فيما يبدو

٣ — الصفات المعرفية ، مثل : قريب ، ممكن

٤ — الأفعال المساعدة ، مثل : يمكن ، يجدر

وتزداد نسبة استخدام العبارات المالئة ، كلما كانت موضوعات الحديث أكثر سطحية ؛ حيث تزداد الحاجة إلى التعاون الاتصالي في مثل الحوارات في وسائل النقل العامة أو أثناء الانتظار في مكان عام . في كل تلك الحالات يسعى المنشئ إلى تكوين علاقة اجتماعية مع من يخاطبه دون معرفة سابقة ، أو دون أن تكون الصلة قوية بين الطرفين .

وتوجد من تلك العبارات مجموعة ذات استخدام أسلوبي متميز ؛ تنشأ في الاستخدامات الشعبية في كل فترة من فترات اللغات ، وتوجد منها في اللهجات العربية الحديثة أيضاً بعض النماذج التي تتفوق على مستويات اللغة الفصحى في قدرتها التعبيرية . أهم تلك المجموعة وأكثرها استخداماً كلمة " مير" (أو : مار) في أغلب اللهجات النجدية ، وكلمة " عاد " ذات الدور البارز في تذكير المتلقي بحلقات متصلة من الأحداث المرتبطة بالخطاب . ومن أمثلتها :

---

[٩٢] انظر : K. Hyland , How good are our textbooks ? Biennial inernational conference 22 - 24 May 1995 , Kuala Lumpur , Malaysia . Ed. by Maya Khemlani David , p. 66.

" هذا رابي يالمره ، مار ردوني عنه الرعوم " [٩٣]

" مار ترى الوعد بم المكان الزين " [٩٤]

" قبل لا يروح لهذال تمّل عاد في فرسه ويرثاها . قال ... " [٩٥]

" يا عنك ما ساج العنان بلحيها " [٩٦] .

أهداف استخدام العبارات المالئة

تكاد تكون أهداف استخدام تلك القوالب مرتبطاً بالهدف من التواصل ، وتحكمها العلاقـــة بين المستخدم والمخاطب ؛ إذ يمكن أن تستخدم إيجاباً أو سلباً حسب ما يهـــدف إليه المتكلم من خطابه الذي يريد إيصاله إلى من يتواصل معه ، فيضعه في القالب الذي يعتقد بأنه يحقق مآربه . ويمكن أن نستعرض فيما يأتي بعض الأهداف مع التمثيل لها :

١ – التأدب مع المخاطب

يمكـــن توظيـــف العبارات المالئة في إدخال معانٍ للتأدب ، أو تلطيف الأجواء بين المتواصـــلين ، أو خلق الاستجابة في كثير من النصوص العلمية أو الكتابات المعرفية العامة . فالعلوم – والمعارف العامة بدرجة أقل – تشكل أبنية تراكمية ، وكل عالم أو مشـــتغل في حقل علمي بحاجة إلى تفاعل الآخرين مع ما يطرحه واستجابتهم لما قدمـــه في ذلك الحقل ؛ وإذا لم يترك لهم مساحة تمكنهم من الأخذ والرد مما يقدمه

---

[93] P. M. Kurpershoek , Between ad Dakhûl and Afif : Oral Traditions of the Utaybah Tribe in Central Najd. ZAL 26 (1993) , p. 56 .

[94] المرجع نفسه ، ص ٦٢ .

[95] المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

[96] المرجع نفسه ، ص ٤٢ .

مـــن أطـــروحات بسبب تصوره حتمية كل ما يقوله واعتقاده بالصحة المطلقة لما توصل إليه أو ما يدعيه ، فإن الهامش يضيق ، وإمكانات التحاور تتضاءل .
وتهـــدف آليـــات التأدب بالدرجة الأولى إلى تفادي ما يمكن تسميته أفعال تشويه الصـــورة لأي مـــن الأطـــراف المشـــتركة في الخطاب ؛ وتؤدي هذه الأفعال إلى اضمحلال الصورة الإيجابية للفرد أو قيمته في المجتمع الذي يعيش فيه . وهي صورة تتشـــكل لكل عضو من أعضاء المجتمع حسب ثقافة المجتمع السائدة ، ويحرص كل شـــخص غالباً على نوع معين من بناء الصورة الفعلية التي تعكس واقع حياته ، أو صـــورة مـــزيفة يحـــرص على ترويجها لدى الآخرين . ولصورة الفرد الاجتماعية وجهـــان : وجـــه سلبي وآخر إيجابي ؛ ويتمثل الوجه السلبي في التمسك الفطري بمـــناطق الـــنفوذ والتحفظات الشخصية والحقوق في عدم التشتيت (أي : حرية التصـــرف وحـــرية التكليف) ، ويتمثل الوجه الإيجابي في تكوين صورة ذاتية أو مقومات شخصية (وبشكل أساسي من أجل أن تكون هذه الصورة الذاتية مقدرة ومعـــترفاً بهـــا) لدى المشتركين في خطاب تفاعلي . وعلى خلفية هذين الوجهين ينشأ نمطان للتأدب ؛ أحدهما **التأدب السلبي** الذي تؤدي وسائله وظائف تتمثل في محاولة التقليل من درجة التعدي على استقلالية المخاطب ، والآخر **التأدب الإيجابي** الـــذي تـــؤدي وســـائله وظـــائف تتمثل في محاولة التقليل من المسافة بين المتكلم والمخاطب ، حتى تبدو رغبات المتكلم والمخاطب وكأنها متماثلة. [٩٧]
وللتأدب السلبي تطبيقات كثيرة في اللغة ترد في لغة الخطاب اليومي ، ويستخدمها الناس في كثير من الحالات دون أن يشعروا أنهم يمارسون سلوكاً اجتماعياً مقنناً ، أو يختارون أحد الإمكانات اللغوية في خطاب معين تحت ضغط دافع نفسي تفرضه

---

[97] انظر : Ch. Linde , The quantitative study of communicative success : Politeness and accidents in aviation discourse . Language in Society 17 (1988) , p. 380 .

الرغبة في التعامل مع الشخص المخاطب بدرجة من الاحترام ، بحيث لا يتجاوزون حـــدوداً معيـــنة ، لكنهم مع شخص آخر لا يحترمون تلك الحدود . وهذا التباين مـــرده إلى ســـلوك الأفراد المطبوع اجتماعياً ، والذي يظهر في الثقافة على شكل عبارات لغوية .

وبالـــرغم من أن أهم سمات عبارات التأدب السلبي أنها غير مباشرة ، وفيها تلميح أكـــثر من التصريح ، إلا أنها محددة الوظيفة ، وتركز على التقليل من الآثار الحتمية لمـــا يطلق عليه أفعال تشويه الصورة ، وهي أكثر استخداماً في الثقافات الغربية من الـــتأدب الإيجابي . [٩٨] وربما يعود ذلك إلى ارتفاع نسبة احتمال الفهم الخاطئ في تـــلك الـــثقافات ، وارتفاع درجة الوعي بخصوصية الفرد والحرية الشخصية التي تترافق مع سيطرة القانون المدني على جميع شؤون الحياة .

وتستخدم في النمط السلبي جمل مركبة أكثر من النمط الإيجابي ، وتُضمَّن العبارات المالـــنة في تـــلك الجمل من أجل تعديل محتوى القضايا ذات القوة التحقيقية ، [٩٩] كما في حالات إدخال ألفاظ مثل : " يا الله " و " بس " في جملة :

" مقلوبة هات يا الله ! أحطلّك مغرفة بس هات ! "

(عند عرض المضيف تقديم شيء من الطعام إلى ضيفه)

ويكثر في هذه الاستراتيجية استخدام الأسئلة بدلاً من صيغ الأمر المباشرة أو صياغة الطـــلب على شكل اقتراح أو وضعه في صيغة افتراضية ؛ وإذا كان لا بد من ذكر الطلب فيعطي سبب الطلب أو يحدد إطار الفعل المطلوب . لكنه في بعض الحالات تُفهـــم تـــلك الصـــيغ ، التي يهدف منها المتكلم إدراج الطلب في صيغة مؤدبة ،

---

[٩٨] انظر : N. Alshurafa , Linguistic patterns of politeness forms and strategies in Palastinian Arabic : A functional pragmatic analysis , Journal of King Saud University , Vol. 14 , Arts (1) (2002), p. 14 .

[٩٩] انظر : المرجع نفسه ، ص ص ١٥ – ١٦ .

بوصفها أسلوباً مباشراً ، فيجيب السامع عن السؤال غير القابل للإجابة في مثل موقفين حدث فيهما تبادل للخطاب شفهي في الأول وكتابي في الثاني . ففي الموقف الأول كنت أحادث أم الطفل الذي استضاف ابنيّ نزار وزياد من عند الباب فاستخدمت هذه الاستراتيجية في صيغة سؤال : ممكن يطلعون نزار وزياد ؟ فأجابت : إيه ممكن ! وفي الموقف الثاني استخدمتها أيضاً بدلاً من صيغة الأمر المباشر في أسئلة امتحان للطالبات : هل يمكنك الإجابة عن ... ؟ فأجابت إحداهن: نعم يمكنني .

ولهذه الاستراتيجية دور في حظر بعض الموضوعات عند الحديث مع من لا يتوقع استحسانهم الدخول في أحد هذه الموضوعات ، أو عند تقدير درجة العلاقة في حد لا يرتقي إلى تضمين أسئلة معينة في حوار مع ذلك الشخص المخاطب ، وتشمل بعض الأشياء المحرجة أو الأشياء ذات الخصوصية الفردية مثل أمور الزواج والدخل المادي ، بالرغم من تفاوت المجتمعات أيضاً في حظرها ، أو وضع الشروط التي يجب أن تتوفر قبل أن تدخل تلك الموضوعات إلى الحوار .

وتوجد عبارات كثيرة تتصدر الأساليب المنتمية إلى هذه الاستراتيجية مثل : "المعذرة " ، " عفواً ". وكلما زادت درجة الحرج الموضوعي (نتيجة حساسية الموضوع) أو الشخصي (نتيجة طباع المتكلم أو جنسه أو عمره أو موقعه أو علاقته بالمتلقي) ، زادت نسبة العبارات المالئة المستخدمة في ردم الهوة التي يحس بها المتكلم ، أو يشعر أنه بحاجة إلى استخدامها كي يشجع المتلقي على الاستمرار في التفاعل ؛ مثل : " عذراً لو تطفلت ... " ، " بما أنك فتحت الموضوع ... " ، "عملي ذكر كذا ... " (وفي الحالتين الأخيرتين تلميح إلى كون الموضوع ورد في سياق سابق هو ما جعل المتكلم يتحدث عنه ، وليست رغبة ذاتية) .

وفي بعض الحالات تتعارض متطلبات التأدب مع أهداف الخطاب ؛ فينشأ خياران غير مناسبين يتمثلان في الاستمرار في صيغة التأدب مع عدم نجاح الخطاب في أهدافه أو تغيير قالب الخطاب إلى صيغة مباشرة ، فينتفي التأدب ، ولكن الخطاب يحقق شيئاً من أهدافه . ومثل ذلك بعض الملصقات التي تحمل تعليمات محددة صيغت بأسلوب مؤدب ، لكنه لا يناسب الجمهور الذي يتلقى ذلك الخطاب ، ويفهمه بطريقة لا تتناسب مع درجته من الإلزام ، ومنها : " شكراً لعدم التدخين!" ، حيث يمتنع الجميع عن التدخين في مجتمع تسوده القوانين ، ويعرف أفراده حدود القانون حتى وإن اشتمل على عبارات مؤدبة ، بينما يمتنع البعض (أو لا يمتنع أحد) عن التدخين في مجتمع آخر لاعتقاد المتجاهلين بكون ذلك الخطاب توصية أو نصيحة بفضل الالتزام بها . ففي هذه الحال يكون الخطاب الناجح في أهدافه من نوع : " التدخين ممنوع " أو " امتنع عن التدخين هنا ! " . وفي نوع آخر من التعارض بين متطلبات التأدب ولأهداف الخطاب يقول المتكلم شيئاً يحط به من قدر نفسه تواضعاً ، فيبني عليه الآخرون خطابات أخرى بوصفه حقيقة ، مثل المسؤول الذي أحرجته إشادة الفرّاش به أثناء تقديمه ابنه لمقابلة المسؤول ، فقال : "تسمع بالمعيدي – يا فلان – خير من أن تراه ". فعلّق الفرّاش : أي والله يا أبو محمد ! (اعتقاداً منه بكون كل ما يقوله ذلك المسؤول حقيقة ، ولأن المثل من مستوى لغوي أعلى من المستوى الذي يتحدث به ذلك الإنسان البسيط) .

وللتأدب الإيجابي أيضاً تطبيقاته التي تتسم بكونها مباشرة ؛ يلجأ المتكلم عند استخدامها إلى أقرب الطرق لكسب المستمع (وهي في أغلبها خطابات منطوقة ، حتى وإن وجدت منها بعض نماذج مكتوبة) . وتختلف الأساليب المستخدمة في تلك النماذج حسب الثقافة والموقف والشخص المستخدم ، لكن بعض القوالب الجاهزة التي أصبحت في كل بيئة لغوية معدة لمثل هذا الاستخدام هي التي تتواتر في

حـالات استمالة الشريك . وبالطبع تتفاوت في قوة تأثيرها وفي سعة انتشارها ، كمـا تـتفاوت — حسب فهم المستخدم — في درجة تصنيفها على سلم التأدب الإيجابي .

وأكثر حالات التأدب الإيجابي انتشاراً استخدام القوالب غير الرسمية ، مما يسهم في تقـليل المسـافة بين طرفي الخطاب مثل استخدام الاسم الأول مجرداً من الألقاب والكـنى واستخدام ضمير الجمع للمتكلمين (نحن) بدلاً من ضمير المفرد لإشراك المخـاطب ، أو صـنع الإحسـاس بأن من يصدر عنه هذا الخطاب ليس شخصاً واحداً، بل جماعة تستحق أن يتضامن المتلقي مع خطابها ، حتى وإن لم يتفق معه .

وفي إجـراء يتـبع كثيراً عند اختيار هذه الاستراتيجية يقوم المنشئ بمحاولات ضم المتلقي (أو المتلقين) إلى المقربين ، وفي بعض الأحوال يوهمه بذلك . وتستخدم في تلك المحاولات عبارات مائلة من مثل : " حبيبنا ! ... " ، أو " أيها الأخوة ... " ، أو " بيـني وبينك ... " ، أو " صراحةً ... " . وفي المثالين الأخيرين وما يشبههما يُـدرج المنشئ في الخطاب عبارات توحي بكون الأسرار مقتصرة عليهما أو على طائفـة قليـلة العـدد ، حتى وإن قال ذلك الخطاب لكل من تحدث معه . وقد أصبحت بعض تلك العبارات من اللزمات التي لا تفارق ألسنة مستخدميها دون أن تتضمن أهدافاً محددة ، أو دون أن يصدقهم أحد في ذلك .

ومن أهداف هذه الاستراتيجية أيضاً البحث عن الموافقة بين طرفي الخطاب ، لذلك تعـد ألفاظ مثل "صحيح" أو "تماماً " أو " بالضبط " في وصف وجهة نظر الطرف الآخـر مـن العـبارات المائلة المحبذة في تقريب المسافة بين المتحاورين . وأحياناً تسـتخدم مثل هذه الوصلات لدى محترفي اختطاف الدور في الحوار من أجل أن يصـغي إليه الآخر ، وربما يسوق شيئاً مناقضاً أو فيه اختلاف عما وصفه بالتطابق مـع وجهة نظره من خلال تلك العبارات التي تكون في هذه الحال ليست مائلة بل

فارغـــة ، لأنها كانت مسوغات فقط لأخذ الدور قبل غيره (خاصة إذا كان ذلك الاتفاق المزعوم مع من له نفوذ في مجموعة الحوار أو إدارته) .

وإذا وجـــدت حـــالات يكون فيها المخاطب غير راض ، فإن عبارات الاعتذار الفعلي – وليست ألفاظ الاعتذار الشكلية التي تمثل مدخلاً فقط في التأدب السلبي – تقوم بدور التقريب بين الأطراف ، مما يسهل عملية التواصل وتقبل المخاطب لما يطـــرح في الخطـــاب . كما تدخل في هذا الجانب عبارات مصدرها التعاطف مع المخاطب أو تعزيته أو الإحساس بمشكلته واستخدام بعض ألفاظ المبالغة في وصف المشاعر في هذا الاتجاه ، أو استخدام ألفاظ تدل على الاشتراك في شيء عام مثل : " طـــبعاً هذا غاية في السوء ... " . وفي جميع تلك الاستخدامات يكون للطقوس الاجتماعية الدور الأكبر في فرض بعض العبارات المالئة التي يصعب على الشخص البســـيط المتشرب لتلك الثقافة التخلص من أثرها القوي في كلامه ، مثل ما درج عليه المصريون من الرد على من يسأل عن تكلفة شيء يود شراءه أو خدمة قدمت إليه : " من غير حاجة ! " .

٢ – صنع الحاجز بين المتكلم والمتلقي

هذا الجانب من جوانب العلاقة بين أطراف الخطاب يهم دارسي الاتصال أكثر من دارســـي الـــلغة ، لكـــن علم اللغة النصي أصبح متسعاً إلى حد مساواته مع علم الاتصال ؛ إذ أصبح يعنى بدراسة كل ظواهر الاتصال وشرائطها ؛ فالمرء لا يعرف دور الـــلغة في صـــنع الخطاب ما لم يدرس الإشارات الاتصالية التي ترد في تفاعل تواصلي .[١٠٠]

---

[100] انظر : ف . هاينه من & د. فيهفيجر : مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة : فالح العجمي . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٩٩٩ ، ص ص ٨ – ٩ .

وإذا انطلقنا من المسلمات التداولية ، فإن ما تقوم به العبارات المالثة في هذا الشأن هـو من صميم الوظيفة الاتصالية للغة ؛ فبالإضافة إلى الدراسات البلاغية المعاصرة والتداولية الخاصة بوصف الإشارات اليدوية المصاحبة وصيغ التعبير بملامح الوجه (لغة الجسم) قام علم التقاربية (نظرية بعد المسافة بين أجسام المتخاطبين أثناء وقائع الاتصال) بدور كبير في توضيح أثر ذلك في المعنى من جهة، وفي العلاقة بين المتخاطبين من جهة أخرى . كما قامت دراسات علم اللغة الاجتماعي بدور بارز في توضيح أثر بعض العبارات في تقوية العلاقة أو زيادة المسافة التي تفصل بين المتكلم والمتلقي .

وبالمقارنة بين هذا الهدف من إدراج العبارات المالثة ونمط التأدب الإيجابي في الهدف السابق نجدهما من الناحية الشكلية في موقفين متضادين ؛ إذ يسعى منشئ النص إلى تقليل المسافة بين المتكلم والمخاطب، بينما نسعى هنا إلى زيادة المسافة بين الطرفين. لكن الأمر في الواقع ليس كما يبدو من الوهلة الأولى؛ فالهدف هنا بالدرجة الأولى حماية الذات من تطفل المتلقي أو تجاوزه الحدود (إما لسابق معرفة به وتجربة ، أو لأنه غريب والمرء يسعى بطبعه إلى حماية نفسه من الأشياء الغريبة أو الناس الغرباء)، ومع تلك المحاولة تبنى حواجز لغوية (ونفسية تصاحبها) ، وتبقى قائمة ما لم يقم أحد الطرفين بإزالتها . وغالباً يكون المتحكم في تلك الحواجز هو منشئ الخطاب الأول نفسه ؛ إذ هو من يسمح بالتخفيف من الحواجز الاجتماعية التي بناها حول نفسه من خلال الوسائل اللغوية التي استخدمها في الخطاب . وغني عن القول أن المرء يمكنه أن يصنع حاجزاً مع شخص أو فئة في موقف معين ، لكنه يتبسط مع آخرين في الموقف نفسه .

وتتعدد أمثلة هذه الظاهرة حسب المواقف المختلفة ؛ ففي الحوارات ترد عبارات مثل : " رجاءً أنا أتكلم ! " ، وإذا رأى المرء دخولاً فظاً من أحد أو مفاتحة مفاجئة

مـــن أحـــد تنم عن سابق معرفة أو ادعاء بذلك فربما يخاطبه بقوله : " يوه ، متى المعـــرفة ؟ " . وفي كثير من الحالات يمكن أن يصنف الهدف من إنشاء الخطاب في هذا الإطار بعد معرفة ملابسات الموقف ، ومقارنة الخطاب بما يجري من الشخص نفسه في حالات أخرى أو من الفئة التي ينتمي إليها في ظروف اعتيادية .

وللتربية المنزلية والمدرسية دور لا يستهان به في تكوين القوالب الخاصة بهذا الهدف بشـــكل مـــتدرج لـــدى الأطفـــال ، بالإضـــافة إلى عوامل أخرى في لغة الطفل وشخصـــيته. ومـــا دام للمجتمع والثقافة دور في بناء هذه الأطر ، فإن الشعوب تـــتفاوت في وجود هذه الظاهرة أصلاً في حياتها الاجتماعية اليومية وفي لغتها ، أو في كـــثرة استخدامها ومستويات ذلك الاستخدام ، أو في ثبات قواعد الاستخدام وتـــأطير كـــل علاقـــة بين متخاطبين بمستوى معين من الخطاب وعبارات محددة تستخدم بين أصحاب تلك العلاقة .

وربما تخلو بعض المجتمعات البدائية من تلك الظاهرة (الإيجاد المتعمد للحواجز التي يصنعها المتكلم ، وليست أساليب الأدب المستخدمة ربما مع كبار السن والسحرة ورجـــال الديـــن) ، وقد توجد بشكل غير منظم في المجتمعات الريفية المستقرة ، لكـــنها تخضـــع لاجـــتهادات فردية ولا تحكمها قواعد صارمة . أما في المجتمعات الصـــناعية فـــإن الظاهرة راسخة وذات أطر ثابتة ، وتوجد في أغلب لغات تلك المجـــتمعات قوالب جاهزة يلجأ المتكلم إلى المناسب منها عند مخاطبته لأي فئة يريد أن يكون التعامل على أساس ما يحدده في خطابه ، وليس على أساس مزاج المتلقي وانفتاحه .

وقد وجدت دراسات تقارن بين تلك الأساليب في لغات تنتمي إلى ثقافات مختلفة؛ إحداهـــا درســـت ثلاث مجموعات لغوية مختلفة هي : المجتمع الأمريكي والمجتمع الإســـرائيلي وعائلات المهاجرين الأمريكيين في إسرائيل . ووجدت فروقاً واضحة

بين هذه الفئات الثلاث في أساليب الاستفسار وإعطاء الأوامر . كما اتضح التباين في عناية الإسرائيليين بتعليم أبنائهم الاستخدام الصحيح للغة وتأطير ذلك الاستخدام في التفاعل مع المجتمع ، وهي إحدى خصائص المجتمع الذي يشعر بتشتت الهوية وارتباطه بثقافة عريقة ينبغي عليه الاهتمام بها ؛ بينما كانت عناية الأمريكيين منصبة على حصول كل فرد من أفراد العائلة على دور عادل في الكلام، وهو ما يعكس الخلفية الثقافية الأمريكية المتعلقة بأهمية التعبير عن الذات بشكل مستقل . [١٠١] وهذه إحدى سمات المجتمع الأمريكي التي أصبح يتميز بها في التقليل من الحواجز والانفتاح على الآخرين .

ومن المسلمات التي تقترب من الحقائق وجود بعض الخصائص الأسلوبية في اللغات المختلفة بعضها ذو منشأ أنثروبولوجي ، وبعضها مرتبط بطبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع من انتماء إلى طبقة أو طائفة دينية . كل تلك العوامل تؤدي إلى نشوء أفكار عن الأشخاص تبعاً للتصنيف ، ثم النظر في علاقة الفئة التي صنف الشخص إليها بفئة المتكلم ، مما يؤدي أخيراً إلى استعمال أحد القوالب التي وضعت من أجل تعامل تلك الفئات بعضها مع بعض في الاتصال اللغوي، وهي القوالب التي تتوارثها الأجيال ، إذا كانت اللغة من إحدى الفئتين المذكورتين أعلاه (أي إن لم تكن اللغة من لغات المجتمعات البدائية التي لا تعرف هذه الظاهرة) . وغالباً سيكون استخدام هذه الوسائل بين الفئات الاجتماعية المختلفة من أصحاب الطبقات الأعلى أو من المنتمين إلى طبقة واحدة. أما المتكلم من طبقة أدنى من طبقة المخاطب ؛ فإما أن يكون خطابه مفتوحاً ، أو يستخدم فيه آليات التأدب السابقة الذكر .

---

[101] انظر : K. Fitch , The Ethnography of speaking : Sapir / Whorf , Hymes and Moerman . Discourse Theory and Practice . Ed by M. Wetherell , S. Taylor , S. Yates . London : Sage , 2001 , p. 57 .

٣ – تقليل التزام المتكلم بمضمون الكلام

يتمـــثل هــــذا الهـــدف في مجموعتين مختلفتين كلياً من المواقف التي تستخدم فيها العـــبارات المالـــئة ؛ إحداهمــــا بمجموعة التقارير والأبحاث العلمية التي يفترض فيها الحياديـــة والموضوعية ، وتقليل هامش التصور الشخصي لكاتب التقرير أو الباحث في القضـــايا العلمية . والمجموعة الأخرى التي يُتبين فيها هذا الهدف تتصل بمواقف يغير فيها صاحب الخطاب من آرائه المتضمنة في خطابه ، أو يعتقد بأنه سيغير فيها مستقبلاً بحكم الظروف التي تستجد ؛ وفي كل ذلك لا يريد أن يلزم نفسه بشكل قطعـــي ، وربما يفكر أن يكون له في ليونة الخطاب أو عدم حسم الأمور فيه مخرج في حالة تغير الظروف أو تغيير آرائه .

من يشتغل بالبحث العلمي أو له علاقة بكتابة التقارير الرصينة يعرف أن التوصيات دائمــــاً ترتكـــز على تحاشي الجزم بشيء ربما يتضح خلافه في دراسة لاحقة ، وأن اســـتخدام صيغ البناء للمجهول وألفاظ العموم هي الأنسب لما يريد المرء إقراره في مـــثل هذا النوع من النصوص . بالإضافة إلى ذلك يجدر بالمشتغل في تلك الحقول إدراج العـــبارات المالـــئة الـــتي تخلصه من تبعات التعارض المحتمل مع جزئيات أو حـــالات شاذة قد تكتشف لاحقاً ، ولا قبل له بتقصي كل شيء بدرجة تمنعه من الوقوع في ذلك التعارض ؛ فالأولى أن يحتاط لذلك باستخدام عبارات مثل : " في العـــادة ... " ، أو : " حـــــسب المعطيات المتوافرة ... " ، أو : " يمكن للمرء – والحالة هذه – أن ... " .

والمتتبع للدراسات الاجتماعية والسياسية المتعلقة بالأخلاق العامة لدى الناس يعرف أن كـــثيراً من الأفراد ، أو الشخصيات العامة في المجتمع يقدمون وعوداً ، أو كلاماً ربما لا يستطيعون الوفاء بمضمونه عندما يحين وقت الوفاء ، أو حتى يعرفون مسبقاً عـــدم قدرتهم أو رغبتهم في ذلك ؛ لكنهم مع ذلك يُقدمون على مثل هذا الخطاب

ربمـا لأن الكـلام مجـاني في ظاهره ، أو لأنهم يريدون تحقيق منفعة آنية في ذلك الوقـت. ولأجـل تفادي التبعات اللاحقة فهم يحتاطون في خطاباتهم بتكوين لغة مائعة يمكن التملص من دلالاتها ، مثل : " يصير خير ، إذا ... " (وهذا الخير يمكن تفسـيره لاحقـاً بطرق شتى) ، أو بإيجاد مخرج في حالة رغبة منشئ الخطاب في الـتراجع عـندما يواجه بشيء لا يريده، مثل : " إن لم تخنّي الذاكرة ... " (فإن وجـد أن من مصلحته التراجع ، فإن اللوم سيقع على الذاكرة التي خانته) ، أو : "إن دل على شيء ، فإنما يدل على ... " (فإذا كان ما بعد " إنما " لم يعد يصلح، فيكـون لم يـدل على شيء) . وعندما يُطلب من أحد تنفيذ شيء محدد ، فتأتي الإجابة : " إن شاء الله سأعمله ... " ، فإن لم ينفذ ما طلب منه ، فإنه سيلجأ إلى القول إن الله لم يشأ ذلك .

وفي كـثير من خطابات الساسة تستخدم عبارات مائعة تساعدهم في قول أشياء لا معـنى لها ، أو لا يعين وقتها أو وقت المحاسبة فيها ، مثل : " بعد فترة من الزمن " ربما تكون تلك الفترة أياماً أو شهوراً أو سنوات أو قرون . فاللغة مطاطة ومخادعة، لكن السياسيين أكثر خداعاً ، وقد وجدوا فيها ضالتهم .

٤ – تأكيد الثقة بالمتكلم ومخاطبة مشاعر المتلقي

توجد عدة طرق لتحقيق هذا الهدف ؛ أحدها عن طريق التكرار ذي القيمة الفعالة، ويفيـد ذلـك كثيراً في نجاح الإعلانات . وقد يجمع بين الثلاثي الذي يحقق أعلى درجـات التأثير وهو التأكيد والتكرار والعدوى ، ويقول البعض إن التأكيد كلما كـان قاطعاً وخالياً من كل برهان ، كلما فرض نفسه بهيبة أكبر . أما تكرار الأمر المؤكـد ، فإنه يجعله يرسخ في الأذهان كحقيقة برهانية . وأما العدوى فإنها وظيفة الجماهير التي تتلقف ذلك المؤكد المكرر ، وتضيف إليه تأكيدات أخرى تنتقل من شخص إلى آخر .

ويقول غوستاف لوبون في هذا الشأن : " بما أنه لا يمكن تحريك الجماهير والتأثير فيها إلا بواسطة العواطف المتطرفة ، فإن الخطيب الذي يريد جذبها ينبغي أن يستخدم الشعارات العنيفة . ينبغي عليه أن يبالغ في كلامه ، ويؤكد بشكل جازم، ويكرر دون أن يحاول إثبات أي شيء عن طريق المحاجة العقلانية . وهذه هي الطريقة التي يستخدمها الخطباء في الملتقيات الشعبية ... وبما أن الجمهور لا يشك لحظة واحدة فيما يعتقده الحقيقة أو الخطأ ، وبما أنه واعٍ كل الوعي بحجم قوته ، فإن استبداده يبدو بحجم تعصبه ، وإذا كان الفرد يقبل الاعتراض والمناقشة ، فإن الجمهور لا يحتملهما أبداً " . [١٠٢]

وقد تكون أسباب تعصب بعض الناس للحضارة التي تربى في كنفها وعدم النظر بعدل إلى حضارات الشعوب الأخرى وتاريخها نابعة من التركيز المستمر على خصائص ذلك المجتمع في كل ما يُلقى من خطابات وكل ما يُكتب من نصوص ، كما تؤدي مصطلحات مثل " الشعب " أو " الأمة " دوراً جوهرياً في تأجيج مشاعر الإعجاب بالذات ، وكراهية الآخر ، أو على الأقل عدم الاعتراف بإنجازاته والسكوت عن تأليب الجماهير ضده .

ومما نعتقد أنه يدخل في هذا الإطار العبارة المستخدمة في التراث العربي : " تربت يداك ! " وما يشبهها من التعابير الاصطلاحية التي فسرها العرب قديماً وحديثاً بطرق ملتوية ، مثل إخراج الذم بصورة المدح وغير ذلك . بينما نعتقد أنها صورة من صور تطور الدعاء على النفس والقريب ، إن لم يحدث ما ربطه بذلك الدعاء من وقائع ؛ وهو تراث سامي قديم تطورت عنه أغلب أساليب القَسَم . وقد بقيت منه بعض الأساليب المستخدمة في تراث كثير من اللهجات العربية مثل " يلعنّي ، إذا ما ... " ، " عساها في عيالي ، إني صادق " . ويتبع ذلك القسم المرتبط بذكر

---

102 غوستاف لوبون : سيكولوجية الجماهير ، ترجمة وتقديم : هاشم صالح . لندن : دار الساقي ، ١٩٩١ ، ص ص ٧٥ — ٧٦ .

الآلهـــة وكـــل ما هو عزيز على الإنسان مثل : " والله ... " ، " واللات والعزى ..."، " وحيـــاتك (أو : وحياتي ، أو : وحياة أولادي) ... " ، " والنبي ... " . كمـــا يصح على ألفاظ النذر التي يؤكد فيها المتكلم صحة قوله ، ويدفع ثمناً مقابل ذلك ، وهو بهذا الاستعداد يخاطب مشاعر السامع من أجل تصديق ما يقوله .

٥ – الانحياز إلى جهة أو فكرة

تنشـــأ دواعي الانحياز في مواقف تكون فيها المشاعر أقوى من القدرة على التحكم في الـــلغة ، أو عندما يخضع المرء لضغط يضطره إلى الكلام دون أن يكون بمقدوره الكلام كما يشاء . وتزداد حالات الانحياز تفاقماً ، إذا وجدت عبارات ذات معانٍ متعددة ، مثل : " شعب الله المختار " ، أو " خير أمة أخرجت للناس " . ويتوقف المتـــلقي في تـــلك الحالات عند حدود معرفية معينة ، لأن العبارات من هذا النوع تدخـــل في الظواهر القابلة للتفسير النفسي خارج إطار إمكانات التوضيح الخاضعة لقدراتنا العقلية . عندئذ يكون للجوانب غير اللغوية الدور الأكبر في التحليل .

وتمثل هذه الحالات تدخلاً شخصياً للمتكلم في الموقف ، ويُحمى خارجياً بالتقاليد المتـــبعة ، طالما كان الناس الذين يتحدثون تلك اللغة يشاركونه بشكل طبيعي المثل والقـــيم المحددة اجتماعياً ؛ إما من خلال الخلفية التعليمية المشتركة ، أو من خلال القـــناعات الديـــنية والإيديولوجية التي تمثل قاسماً مشتركاً بين أفراد المجتمع . ولهذا يظهر من خلال التواصل بين مجتمعات مختلفة ثقافياً فروق ثقافية قد تؤدي إلى تباين في الفهـــم وعرقلة للتواصل ، لأن المنتج والمتلقي لا يشتركان في المعايير والتوقعات نفسها .

وتنشـــأ عـــن تلك التشنجات عبارات تتكرر ، وتبنى عليها تصورات تصبح مدار أحـــاديث الإعـــلام والبسطاء المسيّرين مثل : " الغزو الفكري " (والمصطلح ليس ابـــتكاراً عربياً أو إسلامياً ، بل تستخدمه ثقافات أخرى في وصف فكر الآخرين

عـــندما يصـــل إليهم ، مثلما يصف الفرنسيون الثقافة الأمريكية). وتماثلها عبارة "الفـــرقة الـــناجية " التي ابتكرها بعض المنظرين أو الأمراء للتفرد بالسلطة ورمي الجماعـــات الأخـــرى بـــالهلاك ، ولا يقل عنها استخداماً في العصر الحديث لفظ "الوطـــنية " ، حيـــث يسمي كل طرف نفسه وطنياً ، ويسمي الآخر خائناً .[١٠٣]

وتشـــيع على ألسنة أصحاب الإيديولوجيا عبارات تخدم فكرة التصرف المطلق في الســـلطة منها " أولو الأمر " ، حيث تعني عدم مشاركة الناس تلك الفئة في شيء مـــن ولايـــة أمـــرهم ، ومـــا عـــلى " الرعية " (وهي أيضاً مما يطلقه أصحاب الإيديولوجيا على المتسلمين بقوة الإيديولوجيا وقوة اللغة لأولي الأمر) إلا تسليم أمـــرهم لأولئك ، وربما مناشدتهم بين حين وآخر الرأفة بهم أو مراعاة الله فيهم . لكـــن إعادة النظر في واقع الحال ، وتحليل تلك العبارات بوصفها استلاب لإرادة البشـــر ، وسوقهم إلى ما يريده صانع تلك العبارات كالقطيع ، غير وارد في أذهان أولئك المتأدلجين .

ولا غـــرو أن الساســـة قد أعجبوا على مر التاريخ بتلك العبارات بعد تحولها إلى عبارات مألوفة لم يعد أحد يفكر في صحتها ، فأصبحوا يستخدمونها بالكثافة نفسها الـــتي يستخدمها بها أصحاب الإيديولوجيا . ويمكن إضافة ألفاظ مثل " الشريعة " التي تعني الطريق ، لكنها أصبحت تعني أشياء أخرى مثل " القانون " و " الدين " ، وهو ما يختلف كلياً عن المفهوم القرآني ، الذي يريد الأصوليون والساسة التابعون لهم تقوية موقفهم بالاعتماد عليه . فكلمة " الشريعة " لم ترد في القرآن سوى مرة واحـــدة ، ولا تعني أياً مما يقولون ، لكن الهدف من تنظيرهم لذلك بالاعتماد على الفكـــر المتراكم عليها هو السعي إلى تقديس السلطات القائمة ، وإبعاد الناس عن إعادة النظر في أي من أمورها .

---

[103] انظر : حسن حنفي : السلفية والعلمانية في فكرنا المعاصر . الأزمنة ٣ / ١٥ (مارس – أبريل ١٩٨٩) ، ص ٦٤ .

٦ – وضع الحقائق في إطار نسبي

يمكـــن أن تتعدد طرق وضع الحقائق في إطار نسبي ، غير أن أكثرها وروداً ما يلجأ فيه المتكلم إلى الالتفاف على الموضوع بعدم الإجابة عن السؤال مباشرة ، إذا كان الموقـــف حواراً تطرح فيه أسئلة محرجة أو صعبة ، أو تغيير الموضوع وتحويره ، إذا كـــان في مناقشـــة يـــراد استغلال بعض العبارات المطاطة فيها . وعند ذاك يتبعج الموضوع أو يتغير كلياً .

وتوجـــد عدة وسائل لتكوين التراكمات المفتتة لجزئيات المعنى داخل الفكرة ، مما يجعـــل المعنى مطاطاً ، ويسهل تبرير الشيء وضده بواسطة النص الواحد ؛ وهو ما يســـمى بالفكر المرتبط بالقضايا الموضوعية. ومن الوظائف الأساسية لهذه الوسائل أنهـــا تـــلمح بشكل محدد لإمكانات المعرفة التي يمتلكها المخاطب ، مما يمثل أهمية للموضوع وما يقال في ذلك السياق . وهذه بلا شك طريقة تجعل الخطاب بكامله يوضـــع في إطـــار ذي سقف غير مرتفع فيما يخص إيراد الحقائق أو تبني صحة ما يطرح من جزئيات الخطاب ، حيث تكون مسؤولية وصفه بالحقيقة قضية مشتركة بـــين الأطراف المتفاعلة . وبذلك تفيد هذه القوالب في التماسك النصي عن طريق ربـــط أدوار المشاركين معاً ، وطلب الاستجابة لما يطرحه المتكلم وخلق الأرضية المناسبة لاستمرار الحوار . وفي الوقت نفسه تعطي المتكلم أيضاً فسحة من الوقت ، لاســـتمرار التخطيط في ثنايا خطابه للفقرات التي تلي تلك الفقرة ، والحكم على صلاحية الاستمرار في النهج الذي بدأه في الخطاب .

وهـــناك بـــلا شـــك بعض تلك القوالب التي تعد من الوسائل البراجماتية الناجحة للتفاعل في الخطاب من مثل : " واخد بالك ؟ " (في اللهجة المصرية) ، " شايف كيف ؟ " (في اللهجات الخليجية) ، "معناها" (في اللهجات المغاربية) ، you

١

know (في الإنجـليزية) [١٠٤] ذات الـدور الجوهري في هذا الشأن ؛ إذ تدفع المتـلقي إلى الـتفاعل خلافاً للعبارات المالئة الأخرى مثل : " نوع من " أو " من قـبيل" التي تركز على المحتوى ، أو العبارات المسندة إلى المتكلم مثل : " أظن " أو "أعتقد " التي تركز على وجهة نظر المتكلم .

ولمثل هذا النوع من العبارات المالئة وظائف مختلفة تحكمها سياقات الخطاب ؛ لكن أهمهـا وظيفـتان موجودتان في أغلب اللغات البشرية ، تتمثل الأولى في درجات متبايـنة مـن الثقة (حسب العبارة المستخدمة) ، وتتمثل الثانية في ملء الخطاب بشـعور المتكلم بشيء من عدم اليقين . وكيفما تبدو الوظيفتان متعارضتين ، فإنهما تقوم بهما في بعض اللغات ، وفي مواقف معينة ، العبارة المالئة الواحدة نفسها .

٧ — ابتزاز المخاطب

يسـتطيع المتكـلم بواسطة عناصر معينة التحايل على السامع ، وذلك باستخدام قوالـب فهـم معروفة في المجتمع ؛ مما يجعل عناصر فهم أخرى تدخل في اللعبة ، وتحـدث الاضطراب الذي يقصده المتكلم ، لكي يمرر عمله المصاحب . مما يجعل الـلغة وسيلة خداع بغرض ابتزاز المخاطب ، وجعله يسلّم بسلامة الموقف . ومن أمثلة ذلك :

- يسـأل الأستاذ الطالب عن سبب تردي مستواه في الامتحان ، وما الذي دعـاه للإخفاق خلافاً لزملائه الذين تجاوزوا الامتحان ، وحقق بعضهم درجات عالية . فيجيب الطالب : " سويت اللي عليّ والباقي على الله " . فهـو بذلك القالب يريد أن يوهم أنه أدى ما هو مطلوب منه ؛ أو يقسم الواجـب المفروض عليه من أجل الاستعداد للامتحان إلى قسمين : قسم

---

[104] انظر : J. Holmes , Functions of you know in women's and men's speech . Language in Society 15 (1986) , p. 16 .

منوط به ، وقد أداه كاملاً – كما يزعم – وقسم آخر منوط بربه ، ولم يؤده الرب – كما يفهم من قوله – ولهذا فشل في الامتحان . وهو بذلك – عن وعي أو غير وعي – يريد أن يضع الأستاذ في مواجهة مع الرب ، لأنه هو الذي لم يؤد القسم المنوط به ، وإن كانت هناك محاسبة فهي للرب . أما هو فلم يبدر منه أي تقصير .

- يقف الناس في صف واحد من أجل الوصول إلى شباك يعطون الموظف من خلاله أوراقهم ، فيتقدم أحد الناس على من سبقه ، ويضع نفسه بموازاة الواقف أمام الشباك . وعند الاعتراض على تصرفه يأتي الرد الذي يغلف بعبارة مالية هدفها الابتزاز واستخدام قوة اقتناع المجتمع بها في سبيل إخضاع المعترض لتلك القوة : " يا رجّال كل بياصل " . مع أن المشكلة ليست في الوصول ، بل في وقت الوصول الذي دعا هذا المتطفل إلى التقدم ، لأنه يريد الوصول إلى الشباك في وقت أسرع ، أما الآخرون الذين سيتأخرون في الوصول إلى الهدف نفسه فعليهم أن يقتنعوا بتلك العبارة التي يفرضها سياق الثقافة .
- يخرج المرء من مكان متجهاً إلى سيارته ، فيجد خلفها سيارة أوقفت بطريقة لا تمكنه من الخروج . فيضطر إلى الانتظار ، وقد يطول ذلك الانتظار ، ثم يطل صاحب السيارة المخالف لأنظمة المرور وآداب التعامل، فيلقي كلمة عابرة غالباً تكون " معليش " مع ابتسامة باهتة . وهو يعتقد في قرارة نفسه أن تلك الكلمة السحرية تزيل التبعات المترتبة على سلوكه من تأخير صاحب السيارة الأول واحتراق أعصابه ، وربما عرقلة للمرور . أما لماذا تحقق هذه الكلمة في ثقافة معينة المعجزات ، فلأن الناس أصبحوا

يقبلونها ، ويعتقدون بأنها اعتذار يزيل تبعات الخطأ عن مرتكبه ، متناسين أنه – غالباً – سيكرره في أقرب فرصة يجد نفسه فيها في موقف مماثل .

- يـــأتي سائق من أقصى الطريق ، ويلتف مستهتراً بالآخرين وبنظم المرور ، فيصـــطدم بسيارة أخرى يقف صاحبها في نظام ودعة . ينزل المستهتر إلى موقـــع الحـــادث ، وبدلاً من الاعتراف بخطئه ومناقشة تبعاته ، يلجأ إلى أســـاليب ابـــتزازية مـــثل : " حنا أكبر من كذا " أو " الحمد لله إنها في الحديد" وغيرها من مسوغات تبسيط الأمر ولفت النظر بعيداً عن مسببات الحادث وسلوكه الغريب .

ومـــا يرتبط أيضاً بالابتزاز استخدام العبارات المالئة من أجل سلب حق المتلقي في رفـــض عروض المتكلم، إذا وضعت بذكاء في قالب يصعب رفضه . وقد تستخدم في حمايـــة النص من النقد أو إبداء رأي المتلقي في بعض جزئياته ، خاصة إذا نبعت مـــن خـــلفية دينية في مجتمع محافظ ، أو استخدم المتكلم مسلّمات لها من القوة ما يجعـــلها فـــوق الـــنقد . وفي كل الأحوال يكون التخطيط لهذا الإقحام مقصوداً، والتـــلويح بقـــوة الفكر الذي يقف خلف الخطاب لا منطق الخطاب نفسه يوحي باســـتغلال مـــتعمد لـــهيجان العامة إزاء مناقشة المسلّمات . وغني عن القول أن صـــلاحية الخطـــاب تبقى في تصور تلك الفئة غير محددة ، ومصلحة المجتمع المنتج للخطاب أو خلفياته غائبة عن التفكير .

وبالرغم من انتشار القناعة العامة [١٠٥] أن حقيقة الموقف وسلامته من وجهة نظر المجـــتمع مرتبطـــتان بزمن الخطاب ؛ حيث تتبدل موازين القوى والمعرفة التي تنتج الحقـــائق مـــن فترة تاريخية إلى أخرى ، وتحل بدلاً منها موازين جديدة تحكم أطر

---

[105] انظر : M. Wetherell , Debates in discourse research . Discourse Theory and Practice . Ed. by M. Wetherell , S. Taylor , S. Yates . London : Sage , 2001 , p. 384 .

تكويـــن الخطاب تبعاً لتغيرات المجتمع دينياً وثقافياً واقتصادياً، فإنه يوجد من يسعى إلى تعمـــيم معطيـــات فـــترة زمنية محددة على جميع فترات التاريخ ، وبالتالي فهو يتعســـف ملاءمـــة الحقب التاريخية المختلفة تحت شروط الحقبة التي ينتسب إليها الخطـــاب تاريخياً وثقافياً. وفي ذلك ابتسار للعلاقة بين موازين القوى والمعرفة التي أنـــتجت الخطاب تاريخياً ، وتجاهل لموازين القوى والمعرفة المتأخرة التي تقوم بإعادة قـــراءة الخطـــاب في ضوء فترة حياة الخطاب الحالية ، وإلا كان خطاباً ميتاً . وفي هـــاتين العمليـــتين (الابتسار والتجاهل) تكمن عملية مصاحبة هي ازدراء عقل المتلقي وابتزاز مشاعره .

آثارها في اللغة

لا يخفـــى مـــا تســـببه العبارات المألفة من مشاكل كبيرة للمتعلمين في سبيل تعلم الكـــتابة الفعالة ، وفي وجه متعلمي اللغات الأجنبية ، وفي قضايا الترجمة ومراجعة النصـــوص . لذلك فالحاجة قائمة لمعرفة مدى التقاطع الثقافي وسعة الاختلاف في فهـــم الألفاظ المألفة ، وتباين أثرها في القراء أو السامعين تبعاً لاختلاف ثقافاتهم أو نضجهم أو أعمارهم أو جنسهم أو اطلاعهم على ثقافات متعددة .

وكمـــا تبين من خلال وصف دور تلك العبارات الوظيفي في الخطاب المتمثل في تـــليين الموقف ووسطية الآراء ، فإن كثرة استخدامها تهيئ لمناخ فكري غير محدد المعـــالم ، وتصنع آراء — إن وجدت — رمادية اللون ، وتقلل من هامش المصارحة وتســـمية الأشياء بأسمائها . وقد وصل الأمر بمجتمعات تكثر من إدراج العبارات المألـــفة في حاجة أو دون ضرورة إلى أن يسأل المشتري البائع عن وجود سلعة في المـــتجر الذي يعمل فيه ، فيجيب : " إن شاء الله " ، دون أن تتبعها عبارة إيجاب أو نفي ، ودون أن يتحرك ليتأكد من وجودها ، وفي بعض الحالات لا تعني سوى

أن البـــائع قد سمع كلام المشتري . وتسأل بعضهم عن اسمه ؛ فيقول : إن شاء الله محمد .

وفي نشرة أحوال الطقس في السعودية تعلن عبارة " بمشيئة الله " في بداية النشرة ، وتتلو كل فقرة وجملة ، وربما تتناوب مع عبارة " بإذن الله " ، بحيث تبعد التركيز عـــن مضـــمون النشرة . كل ذلك بسبب الخوف من الأصوليين الذين يترصدون للإعـــلام الســـعودي ، ويصـــفونه بالفسق والقائمين عليه بالمراطقة مع كل ذلك التحجر المعروف عنه .

وقد أفرزت لغة الخطاب العربي الحديث المليئة بالعبارات المالئة سمات المجاملة المبالغ فيها في التعامل بين الناس ؛ ففي مصر لا تستطيع أن تعرف من سائق سيارة الأجرة كم عليك أن تدفع مقابل ركوبك معه ، حتى بعد أن تتخطى عبارات : " ما تخلي يابيـــه ! " وما أشبهها ، وفي بلاد الشام لا تستطيع أن تتخلص من دعوات العشاء والزيارة المليئة بعبارات أصبحت تطبع السلوك ، وفي منطقة الخليج يصعب أن تكلم من تريد محادثته بالهاتف دون أن يضيع جزءاً كبيراً من الوقت في عبارات مكررة لا تعني شيئاً ، ولكن لا بد من قولها .

وفي الواقع أن حشو الخطاب بكثير من العبارات المالئة يترافق في كثير من الثقافات مع تدني المستوى الحضاري ، وهو ما اتضح في فترة انحدار الحضارة العربية ، عندما بـــدأت محـــاولات التنميق تأخذ بألباب المنشئين ، فطغت على الفكرة الرئيسة في أغـــلب الخطابات (شفوية كانت أو مكتوبة) . وما يوجد في العصر الحاضر هو صورة لما كان يجري في الفترات التاريخية التي كانت الشكليات فيها تطغى على ما في الخطاب من أفكار .

ومـــن آثـــار استخدام الألفاظ المالئة في أي ثقافة اتساع طرق التعبير عن القضايا والأحداث بأشكال متعددة تتيحها تلك الثقافة ، ويتسامح معها المجتمع . وقد برز

هـــذا الاتساع في الثقافة العربية في جانبين ؛ أحدهما استخدامها وسيلة للكذب ، ويتجـــلى ذلـــك في المقولة المنتشرة في الثقافة العربية "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب " ؛ فهي تحرّم الكذب ، وتدعو إلى اجتنابه ، لكنها تتيح بديلاً له باستخدام العـــبارات المائلة بطريقة تؤدي إلى الغرض نفسه الذي يحتاج إلى الكذب للوصول إليه . لكن تلك المعاريض لا تتناقض مع صريح عبارة موثوق بها . وقد بلغت تلك البدائل التي حلت محل "الكذب" في وظيفته حداً لم يعد كثير من الناس يثقون معه بالآخـــرين ، وبـــدأت تنتشـــر عبارات في التعليق على كل ما يسمع أو يقرأ مثل "صدقته ؟ " ، " والله إنك ساذج (أو صحيّح) ! " . وهذا يعني أن أغلب ما يقال لا يقصد به المعنى الواضح في العبارة أو المعنى القريب ، وربما لا يقصد به أي معنى مـــن معانيه الممكنة التأويل ؛ بل يحتاج المرء إلى النظر بتمعن في الظروف وعلاقات الـــناس بعضهم ببعض ، ويقيس الموقف على مواقف سابقة ، ويقارن الخطاب مع خطابـــات أخـــرى للمنشئ نفسه وآرائه ليكتشف ما يراد . ومن هنا أيضاً نشأت ألـــوان مختلفة للكذب ، ودرجات من الإتيكيت تبيح الالتفاف وتمقت الصراحة ، وتحـــتج بالحاجة إلى حماية الخصوصية من المتطفلين مع البقاء بمنأى من النقد ؛ بل وأصـــبح الـــتفاخر منتشـــراً بعبارات مثل : " صرّفته ! " ، " زلّبته ! " ، " عطيته ركبة!" .

أمـــا الجـــانب الثاني من مظاهر الاتساع بطرق متعددة فيتعلق بالتعبير عن القضايا الجنسية ؛ وقد تضخم هذا المنحى في الثقافة العربية إلى درجة يشك فيها أن العربي كائن جنسي (مهتم بالجنس وخائف من الجنس ويعلل كل شيء بالجنس) . فإذا أشـــار إلى شيء مطلق فهو الجنس (أو الدلالة الجنسية) من مثل " ذاك وذاك " ، "الـــلي تخبره " وما أشبههما ، بينما تعني شعوب أخرى بالشكل المطلق " الشر " كمـــا في الإنجـــليزية You are having one of those days! ، أو السياسة أو

القوى الخارقة ، كما هي الحال في كثير من الثقافات الأفريقية . وإذا غضب العربي بشـــدة أيضاً فهو بسبب تهمة أو شك جنسي ، لما تحدثه تلك الألفاظ بداخله من أثـــر . وإذا تحدث عن فضيحة بشكل مطلق ، فهي فضيحة جنسية دون شك ، مع ما تتحدث عنه شعوب العالم من فضائح مالية أو سياسية أو إدارية .

وقد درجت وسائل الإعلام السعودية على الحديث عن " قضية لا أخلاقية " بمعنى " قضـــية جنســية " أو " اعـــتداء لا أخلاقي " بمعنى " اعتداء جنسي " ، وكأن الأخـــلاق حصرت جميعاً في الجنس . وما يدور في هذا البلد من فصل الجنسين في كـــل مجال مع الحديث عن تدهور الأخلاق وانحطاطها بسبب معاكسات الشبان للفتيات أو العكس ، لدليل على ذلك الهاجس الذي أحدثه الفكر الجنسي المؤجج بعبارات تأخذ مجرى العادة أولاً ، ثم تتحكم في التفكير والسلوك أخيراً . والملاحظ أنه كلما اقترب بلد عربي من هذه البقعة جغرافياً أو فكرياً ، كلما زاد تفشي هذه الظاهرة فيه .

ويؤدي انتشار العبارات المالئة بشكل واسع في الثقافة إلى انقلاب الوضع في علاقة بعـــض الناس باللغة؛ فتكون غربة اللغة لديه أكبر من الأفكار التي تنقلها ، وذلك يدعـــو إلى تضـــخم التصورات الواهية من أجل ملء تلك الغربة . وأغلب المحللين لـــلخطابات يعـــرفون أناســـاً ينطقون بكلام دون جهد كبير ، ويتكلمون بطلاقة وبتعابير مؤثرة ، دون أن يقولوا شيئاً . من الوهلة الأولى يبدو أولئك الناس بارعين اجتماعياً ، بل موهوبين ، غير أن التمعن في أحوالهم أكثر يظهرهم فارغين .

وفي حقيقة الأمر أن تلك الفئة لم تكتمل لديها أجزاء من الدماغ هي المسؤولة عما يســـمى " الإرادة الحـــرة " . ففي تكوين أولئك العصبي – الفسيولوجي يشبهون الأطفال في صعوبة مقاومة الدوافع ، لأن الأطفال لم يكونوا قد تعلموا بشكل عام طريقة التحكم في النفس ؛ حيث يتأخر نضج الأجهزة المسؤولة عن التحكم . لذا

نجد الشخص المصاب بهذا العجز الفسيولوجي أو السلوكي أو كليهما يعيد الكلام، ويقـــدم له ببعض العبارات المائلة أو يلحقها به أو يضمنها إياه دون أن يقول شيئاً جديـــداً. ولأن العامة تريد أن تعاد الأشياء بطرق شتى ، فإنها تعجب بهذا النمط ، وربما تعده من الأفذاذ لأنه لا يتعب الأذهان ، ولا يصدم المشاعر ، ولا يعيد ترتيب الأفكار .

كـــل مـــا يـــؤدي إلى فوضى في العلاقة بين التفكير ووسيلة التعبير وبين السلوك والتصـــنيف هـــي الضبابية التي تضيع الحدود الفاصلة بين مظاهر السلوك الإيجابية والأخرى السلبية ، أو بين ما يعده الناس خلقاً حسناً أو قدرة ذهنية يشاد بها وبين ما يعدونه خلقاً سيئاً (أو مزعجاً) أو عجزاً ذهنياً يشفق على من يتصف به . ففي كـــثير من الحالات التي يقدم الناس فيها آراءهم في قضايا معينة نجد الاختلاط بين حدود وصف تلك الآراء بالوهم ، وعدم وضع ما يفصل الوهم عن التصور . وفي تقـــديم الـــرؤى أو الحلول تقابلنا عبارات وصف ذلك بالحلم ، فلا يفصل في هذه الأوضـــاع بـــين الحلم والحقيقة . وعندما يتحدث عن أمور من الدين تتداخل مع ســـرد الفكـــر الاجـــتماعي ، ويصعب الفصل بين ما هو من الدين وما يتبع إلى العادات . وعندما يعلق أحد على سبب متابعته لأمر أو محادثة بين الآخرين ، فربما يكـــون الجـــانب الشخصي وسلوك المقوم في مثل تلك الحالات هي التي تحكم إن كان هذا الأمر يدخل في الاهتمام أو يكون تطفلاً . وترافق حالات التقويم هذه — كـــل حالة بحسب الاتجاه السائد بين المتحاورين فيها — عبارات مثل : " المرضى النفســـيين " ، " هذا حالم " ، " شايف نفسه " ، " كل شيء إلا الدين " ، " هذا حـــرص عليك " ... إلخ . ومع تأطيرها اجتماعياً تنتقل القضية من تصنيف وسائل التعبير إلى تصنيف المعبرين أنفسهم ، مما يخلق توترات بين طوائف مختلفة في المجتمع،

ويجعـــل الحكـــم على الناس ليس من خلال مخبرهم ، بل من خلال الشعارات التي يرددونها .

ومما يؤدي إليه شيوع الألفاظ المائلة زيادة الاستعمالات التمويهية ؛ حيث يكون غالباً لكل كلمة تاريخها الخاص ، وذلك يعني إدخال ذلك التاريخ عند استخدامها، واستبعاده عند الاستعانة بغيرها . فكلما كانت المهارة في استخدام العبارات المائلة أكـــبر ، كـــلما زادت قـــدرة المرء على التمييز بين تلك الاستخدامات المختلفة ، والاستفادة منها في تطويع اللغة لرغباته .

ففي كثير من حالات الاستخدام التي يريد منها المتكلم إيهام المخاطب ترد عبارات مائـــلة مثل : "شيء زي كذا " ، عندما يُسأل المجيب عن شيء لا يود الإجابة عنه بشكل محدد ، أو " يا ليت (أو : ياريت) " ، عندما يُسأل المرء عن خيار بعينه ، لكـــنه لا يحدد ماهية ذلك الخيار . وهذه الطرق يفضلها الساسة وكبار المسؤولين والـــنجوم (في الفـــن أو الرياضة) للتخلص من بعض الأسئلة المحرجة، أو لتوجيه الرأي العام نحو طرح يرغبون في انتشاره .

وقد وصلت نتيجة لذلك اللغة المستخدمة في خطابات الساسة إلى حد من المراوغة يصـــعب القـــول معه إنها ما زالت تتصف بالموضوعية ، ولا هي أيضاً ذات طابع شخصـــي ؛ بل أقرب ما يمكن وصفها به أنها قوالب مرنة يمكن إلباسها على أكثر مـــن موضـــوع ، وأحيانـــاً تتناسب مع أشياء متناقضة . وأغلب الدراسات ذات الجـــدوى العمـــلية للعاملين في السلك الدبلوماسي توصي بتدريبات لغوية في هذا الشأن؛ أهمها ثلاث نقاط رئيسة : الأولى تركز على أن يضع المتحدث ما يريده هو — عـــندما يـــبدي رأياً أو يُسأل في وسيلة إعلام عامة — في عبارة رئيسة ، وليس بالضرورة أن يبدأ بما سئل عنه ، ثم يضع ما يرغب فيه الآخرون أو موضوع السؤال في عبارة مائلة يقل التركيز عليها ، لأن الاتجاه عند سماع القول أو قراءته يكون نحو

العبارات الأساسية . الثانية تتمثل في صبغ كل العبارات التي يود استخدامها معبرة عـــن الوضـــع الحـــالي أو المستقبل — إن كان يتحدث عن وضع بلاده — بطابع التفاؤل؛ ولا توجد في اللغة من وسائل تكون قادرة على إضفاء صبغة التفاؤل أكثر مـــن العـــبارات المالئة . أما النقطة الثالثة فيحذر فيها من استخدام العبارات ذات الصدى السيء ؛ وإذا اضطر لسبب من الأسباب إلى التعبير عن شيء سيء ، فعليه اســـتخدام الألفـــاظ الإيجابية مع أدوات نفي يحبذ أن تكون من الظروف ضعيفة الدلالة (وأغلبها في الواقع عبارات مالئة) ، لكنها تحمل معنى النفي ، أو بأداة نفي ضعيفة لا يركز عليها ، أو بتكرار النفي (ليعطي معنى إيجابياً) ، ثم ينفيه مرة ثالثة كي لا يتلقاه إلا قليل ممن يدققون في معاني النصوص .

ومـــا لا شـــك فيه أن أغلب الساسة الموهوبين أو المتمرسين في فن السياسة ليسوا بحاجـــة إلى مـــثل هـــذه التوصيات في فن الخداع ؛ فهم أساتذة في هذا الشأن ، ويخـــرجون دائماً أجيالاً من مدارسهم تتبنى أفكارهم ، وتستخدم أيضاً طرقهم في الكلام .

وتقـــترن كـــثرة اســـتخدام العـــبارات المالئة بالتوسع في أبنية ما يسمى " الإتباع والمزاوجة " ، لأن السجع والجرس اللفظي هما أفضل السبل لإحداث الأثر المطلوب في الإقناع عن طريق استخدام قوة ما يسود استخدامه . وقد أدى ذلك إلى ارتباط كـــثير مـــن الكلمات (الدوال) بعضها ببعض ، مما خلق ارتباطاً غير مقصود بين دلالات كـــل منها ومرجعياته في الواقع . وقد دخلت بسبب ذلك قيم إلى خلفية مستخدم تلك العبارات لم تكن موجودة من قبل ، واحتلت تلك المكانة .

وتـــتعدد الأســـاليب التي تحمل صفة التوازي الصوتي أو التضاد الدلالي من خلال وجـــود ألفـــاظ تختلف في صفة دلالية واحدة أو أكثر ، لكنها تشترك في إحداث تغيـــيرات عـــلى مستوى الصيغة والدلالة . حيث يقصد في بعض الحالات إعادة

الـــتركيز على دلالة اللفظ الأول من خلال اللفظ الثاني ، وفي ذلك تعديل لدلالة الـــثاني في تـــلك الأســـاليب ، وفي بعض الأحيان يتجاوز التعديل تلك الحالات السياقية، ليرتبط بذلك اللفظ بشكل مطلق . كما تؤدي تلك التعديلات إلى فراغ في معاني العبارات التي يقصد بها الجرس والتأثير الصوتي في المقام الأول .

وتنتظم في هذه الأساليب عناصر لفظية في اتجاهين مختلفين ؛ إما أن يكون العنصران بـــالمعنى نفسه أو بمعنيين متقاربين أو أحدهما – غالباً الأول – بمعنى والآخر ليس له معنى ، وإما أن يتضاد العنصران في دلالتيهما . ويرد ذلك بشكل خاص في الأفعال وبعـــض أســـاليب الـــرفض ، كما يكثر استخدامهما في القصص الشعبي وبعض نصوص الحوار الدرامي .

أمثلة المجموعة الأولى (العنصران بالمعنى نفسه أو بمعنيين متقاربين) :

" أكل ومرعى وقلة صنعة "

" فلان ما معه لا أبيض ولا أحمر "

أمثـــلة المجموعة الثانية (أحد العنصرين لا معنى له ، أو لا يقصد معناه ، بل الهدف منه إطالة العبارة أو إحداث الجرس) :

" لا حس ولا إنس "

" لا هابوب ولا دابوب "

" إنه حارّ يارّ "

أمثلة المجموعة الثالثة (العنصران يتضادان في الدلالة) :

" حساب القرايا غير حساب السرايا "

" يعمل الحبة قبة " [١٠٦]

---

[106] انظر : فالح العجمي : " تطورات الإتباع الصوتي العربية " . مؤتة للبحوث والدراسات (سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية) مجلد ١٤ / العدد الخامس (١٩٩٩) ، ص ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

وبغض النظر عما يقال عن ظاهرتي الإتباع والمزاوجة ، فإن هدفهما الأساسي اللعب بالألفاظ والتحليق بالمخاطب عالياً وبعيداً عن المنطق ليتحقق رضاه . وقد ورثت العربية الحديثة من التراث تلك الظاهرة ، لكنها أصبحت تصاغ في عبارات سليمة تركيبياً ، غير أنها تخدم الهدف نفسه ، مثل : " اتفق العرب على ألا يتفقوا"، أو كما في القصيدة الحديثة : " اختلفنا من يحب الثاني أكثر ، واتفقنا أنك أكثر وأنا أكثر ... " .

المراجع العربية :

ابن الجوزي : **الأذكياء** . بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٨ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : **مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)** . بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، د. ت.

ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : **لسان العرب** . بيروت : دار صادر ، د. ت.

براون ، ج. ب. ؛ يول ، ج. : **تحليل الخطاب** ، ترجمة : محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٩٩٧ .

بنكر ، ستيفن : **الغريزة اللغوية ، كيف يبدع العقل اللغة** ، ترجمة : حمزة المزيني. الرياض : دار المريخ للنشر ، ٢٠٠٠ .

تشومسكي ، نعام : **اللغة ومشكلات المعرفة** ، ترجمة : حمزة المزيني . الدار البيضاء (المغرب) : دار توبقال للنشر ، ١٩٩٠ .

جيبرين ، جودث : **التفكير واللغة** ، ترجمة : عبد الرحمن العبدان . الرياض : دار عالم الكتب ، ١٩٩٠ .

حــنفي ، حســن : " السلفية والعلمانية في فكرنا المعاصر " . **الأزمنة** ٣ / ١٥ (مارس – أبريل ١٩٨٩) ، ص ص ٦٠ – ٦٩ .

حنفي ، حسن : **في الفكر الغربي المعاصر** . بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ .

الخـوري ، بولـس : **التراث والحداثة ، مراجع للدراسة الفكر العربي الحاضر** . بيروت : معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٣ .

دراســات في تأريخ اللغة العربية ، ترجمة : حمزة المزيني . الرياض : دار الفيصل الثقافية ، ٢٠٠٠ .

دي سوسـير ، فرديناند : **محاضرات في الألسنية العامة** ، ترجمة : يوسف غازي ومجيد النصر . جونية (لبنان) : دار نعمان للثقافة ، ١٩٨٤ .

الديـنوري ، أبـو حنيفة أحمد بن داود : **كتاب النبات** ، تحقيق : برنارد لوين ، الجزء الخامس . ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٥٣ .

رابعـة ، موسـى : " ظاهرة التجريد في نماذج من الشعر الجاهلي " . **دراسات** (العلوم الإنسانية) (أ)، ٢٢ / ٢ (١٩٩٥) ، ص ص ٧٣٥ – ٧٦٠ .

ربابعـة ، موسى : " ظواهر من الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى " . **أبحاث اليرموك** (الآداب واللغويات) ٨ / ٢ (١٩٩٠) ، ص ص ٤٥ – ٧١ .

رشـــوان ، محمـــد مهران : **دراسات في فلسفة اللغة** . القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٨ .

زيدان ، محمود فهمي : **في فلسفة اللغة** . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٥ .

طـــه ، جمانـــة : **موســـوعة الأمثال الشعبية العربية** . الخبر (السعودية) : الدار الوطنية الجديدة ، ١٩٩٩ .

العجمـــي ، فـــالح : **أبعاد العربية ، دراسة في فقه اللغة العربية وتاريخ تطورها وعلاقاتها ببقية اللغات السامية** . الرياض : مطابع الناشر العربي ، ١٩٩٤ .

العجمي ، فالح : **أسس اللغة العربية الفصحى** . الرياض : مطابع التقنية ،٢٠٠١.

العجمي ، فالح : " تطورات الإلزام النسقي العربية " . **مؤتة للبحوث والدراسات** (سلســلة العلوم الإنسانية والاجتماعية) مجلد ١٤ / العدد الخامس (١٩٩٩) ، ص ص ٢٦٩ — ٣١٠ .

العجمي ، فالح : " العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص " . **عالم الفكر** ٢٨ / ١ (يوليو — سبتمبر ١٩٩٩) ، ص ص ٣٤٥ — ٣٧٧ .

العجمي ، فالح : " نظام الصيغة في اللغة العربية " . **مجلة جامعة الملك سعود** ،م٥، الآداب (١)، (١٩٩٣) ، ص ص ٨٩ — ١١٧ .

العظمـــة ، عزيـــز : " الـــنص والأسطورة والتاريخ " . طه حسين (**العقلانية ، الديمقراطية ، الحداثة**) ، قضايا وشهادات / ١ ، ص ص ٣٠٦ – ٣١٦ .

عفيفي ، فوزي : **السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين** . الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ .

عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** ، ط ٢ . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٧ .

فـــروم ، إريك : " اللاوعي والمجتمع " ، ترجمة : ثائر ديب . **مجلة البيان** ٣٤٨ / ٣٤٩ (يوليو/ أغسطس ١٩٩٩) ، ص ص ١٩ – ٢٦ .

فـــريحة ، أنيس : **في اللغة العربية وبعض مشكلاتها** . بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٦٦ .

لوبون ، غوستاف : **سيكولوجية الجماهير** ، ترجمة وتقديم : هاشم صالح . لندن : دار الساقي ، ١٩٩١ .

المـــبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : **الكامل في اللغة والأدب** . بيروت : مؤسسة المعارف ، د. ت.

مليكة ، لويس : **سيكولوجية الجماعات والقيادة** ، ج ١ . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ .

المنصور ، وسمية : " توظيف المأثور القولي في تنمية لغة الطفل " . **عالم الفكر** ٢٨ / ٣ (يناير – مارس ٢٠٠٠) ، ص ص ١٣٧ – ١٩٢ .

الموســوعة العربية العالمية . الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ .

النـقيب ، خـلدون : **الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر ، دراسة بنائية مقارنة** . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١ .

هاينه من ، فولفجانج ؛ فيهفيجر ، ديتر : **مدخل إلى علم اللغة النصي** ، ترجمة : فالح العجمي . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٩٩٩ .

هرمز ، صباح ؛ إبراهيم ، يوسف : **علم النفس التكويني (الطفولة والمراهقة)** . الموصل (العراق): مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٨ .

المراجع الأجنبية :

Babcock , B. : **The Reversible World , Symbolic Inversion in Art and Society** . Ithaca, NY : Cornell University Press , 1978 .

Bakhtin , M. M. : **The Dialogic Imagination : Four Essays by M. M. Bakhtin** , M. Holquist (ed.) , C. Emerson and M. Holquist (trans) . Austin : University Texas Press, 1981 .

Carroll , J. B. : " Language , thought and reality " . **Selected Writings of Benjamin Lee Whorf** . Cambridge , Mass. : MIT Press , 1956 .

Carter , R. : **Mapping the Mind** . London : Phoenix , 2000 .

Conley , J. M. ; O'Barr , W. M. ; Lind , E. A. : " The Power of language : presentational style in the courtroom ". **Duke Law Journal** Vol. 6 (1978) .

Daher , N. : " Arabic sociolinguistics : State of the Art " . **Al-Arabiyya** 20 (1987), pp. 125 – 159 .

Douglas , M. : **Purity and Danger** . London : Routledge and Kegan Paul , 1966 .

Eco , U. : " How culture conditions the colours we see ". **The Communication Theory Reader** . Ed. by Paul Cobley . London & New York : Routledge , 1996 .

Farghal , M. : " Dysphemism in Jordanian Arabic ". **ZAL** 30 (1995), pp. 50 – 61 .

Fitch , K. : " The Ethnography of speaking : Sapir / Whorf , Hymes and Moerman " . **Discourse Theory and Practice** . Ed. By M. Wetherell , S. Taylor , S. Yates . London : Sage , 2001 , pp. 57 - 63 .

Foucault , M. : **Power / Knowledge** . Brighton : Harverster , 1980 .

Gumperz , J. : " On international sociolinguistic method " . **Talk , Work and Institutional Order** . Ed. by S. Sarangi and C. Roberts . Berlin : Mouton de Gruyter , 1999 .

Hall , S. : " The spectacle of the other " . **Discourse Theory and Practice** . Ed. by M. Wetherell , S. Taylor and S. Yates . London : Sage , 2001 .

Henne , H. ; Rehbock , H. : **Einfuehrung in die Gespraechanalyse** . Berlin / New York, 2. , verb. U. erw. Aufl. 1982 .

Holmes , J. : " Functions of 'you know' in women's and men's speech" . **Language in Society** 15 (1986) , pp. 1 – 21 .

Hyland , K. : " How good are our textbooks ? " . **Biennial International Conference 22- 24 May 1995** , Kuala Lumpur – Malaysia . Ed. by Maya Khemalni David , pp. 65- 75 .

Keenan , E. : " Norm – makers , norm – breakers : Uses of speech by men and women in a Malagasy community " . **Exploration in the Ethnography of Speaking** . Ed. by R. Baumann and J. Sherzer . Cambridge : Cambridge University Press , 1974 .

Kristeva , J. : **Powers of Horror** . New York : Columbia University Press , 1982 .

Kurpershoek , P. M. : " Between ad-Dakhūl and Afif : Oral traditions of the Utaybah Tribe in Central Najd " . **ZAL** 26 (1993) , pp. 28 – 65 .

Lakoff , G. ; Johnson , M. : **Metaphors We live by** . Chicago and London : The University of Chicago Press , 1981 .

Le'vi – Strauss , C. : **The Raw and the Cooked** . London : Cape , 1970 .

Linde , Ch. : " The quantitative study of communicative success : Politeness and accidents in aviation discourse " . **Language in Society** 17 (1988) , pp. 3 75 – 399 .

Luria , A. : **Language and Cognition** . Ed. J. V. Wertsch . Washington , D. C. (U. S. A.) : Winston & Sons , 1982 .

Malinowski , B. : " The Problem of meaning in primitive language" . **The Meaning of Meaning** . Ed. by C. K. Ogden and I. V. Richards . New York & London : Harcourt Brace , Kegan Paul Trench Trubner , 1923 .

Nierenberg , G. I. : **Wer sieht , kann erkennen** . Bern & Muenchen : Scherz Verlag , 1972 .

Rosenthal , F. : " The history of an Arabic porverb " . **JAOS** 109 (1989) , pp. 349 – 378 .

Shurafa , N. , al : " Linguistic patterns of politeness forms and strategies in Palestinian Arabic : A functional – pragmatic analysis " . **Journal of King Saud University** , Vol. 14 , Arts (1) (2002) , pp. 3 – 23 .

Sifianou , M. : " On the telephone again ! Differnces in telephone behaviour : England versus Greece " . **Language in Society** , 18 (1989) , pp. 527 – 544 .

Tannen , D. : **That's Not What I Meant : How conversational Style Makes or Breaks Your Relations with Others** . New York : Ballantine , 1986 .

Versteegh , K. : " The Arab presence in France and Switzerland in the 10th century ". **Arabica** 37 (1990) , pp. 359 – 388 .

Wardhaugh , R. : **An Introduction to Sociolinguistics** . 2nd Edition . Oxford (UK) ; Cambridge (USA) : Blackwell , 1992 .

Wetherell , M. : " Debates in discourse research " . **Discourse Theory and Practice** . Ed. by M. Wetherell , S. Taylor , S. Yates . London : Sage , 2001 , pp. 380 – 399 .

Wetherell , M. : " Themes in discourse research : The case of Diana " . **Discourse Theory and Practice** . Ed. by M. Wetherell , S. Taylor and S. Yates . London : Sage , 2001 , pp. 14 – 28 .

الكشاف